

أيمن رجب طاهر

السجانة

رواية

الهلآنة

أيمن رآب طاهر

رواية

رجب طاهر، أيمن.

الهبانة : رواية / أيمن رجب.

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2020.

432 صفحة، 20 سم.

تدمك : 9-066-820-977-978

1- القصص العربية

أ- العنوان : 813

رقم الإيداع : 23909/2019

الطبعة الأولى : يناير 2020

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

إهداء

إلى ابني إياد بجسده الغائب عني، بروحه المرفرفة في السماء وحاضرة حولي.

"لا يمكن لقنبلة أو لرصاصة أن تثير أو تحرك قواد الإبل وهم من الفلاحين الذين جُمعوا من القرى المصرية وكلهم عذّل من السلاح وغير مدربين على الحرب ويمكنهم أن يجرّوا عند الإشارة للهجوم وهم يسرعون في تلبية نداء ضباطهم البريطانيين والرصاص يدوي ويتساقط حولهم".

مراسل المانشستر جارديان الإنجليزية

"لقد سيق مليون ومائتا ألف من المصريين إلى الخدمة في فرقة العمال والنقل، وما يتهم به الوطنيون المصريون السلطة العسكرية أن معاملتها للعمال كانت أسوأ من معاملتها لدواب النقل فقد كان طعامهم رديئًا ومسكنهم فاسدًا والعناية الصحية بهم ضئيلة فمات هؤلاء المجندون التعساء كالذباب، وكلما قضى منهم نفر و خلا بموتهم مكان ساق الكرياج الآلاف غيرهم ليحلوا محلهم، وقد تعرض هؤلاء العمال للنار وهم يحفرون الخنادق وينقلون المؤن والذخائر على خطوط القتال".

الكاتب الأمريكي : مستر جورج كريل

من مجلة لوجب 27- سبتمبر-1919م

بعين مغرورقة بالدموع يتأمل غلاب النجار ابنته منصورة بقامتها النحيلة وشعرها المجعد وهي تحشو بأصابعها اليابسة بقجة ذات فتحتين بأشياء كثيرة قد يحتاجها في سفره، ابتلع ريقه في صعوبة وهو لا يتخيل تركها بالإسماعيلية ويهاجر في رحلة مجهولة؛ فمنذ أن طرقت أوامر القومندان أذنيه بالاستعداد للانتقال إلى بورسعيد وأشواك القلق تنهش روحه المضطربة، تأرجح تفكيره في كل معارفه ممن يثق بهم لكنهم أيضًا هجروا الإسماعيلية إلى غير رجعة بعد أن تحوّلت تلك المدينة إلى كامب كبير لترحيل الهجانة والعمال إلى حيث يريد الإنجليز، التفتت إليه، تخبره بصوتها الناشف:

- كل حاجة جاهزة.

تركته ودخلت الغرفة الوحيدة بالبيت فأغمض عينيه وهزّ رأسه فمنذ قدومه لم يتوقف العمل في تفريغ حمولات السفن الراسية بالإسماعيلية وبناء المخازن ولم يتخل عن صناعة النجارة فكّلف بعمل صناديق متفاوتة الأحجام، الأمر الذي جعل القومندان صادق شوكت الجركسي يثني عليه ويكلفه بالمزيد من العمل، وها هو مهّد بالرحيل إلى مكان آخر لكن منصورة، كيف يتركها؟!

تردد السؤال في دواخل نفسه المهزوزة، حرّ في نفسه ترك منصورة وحيدة بالإسماعيلية، مطّ شفتيه ونهض من فوره خارجًا من مسكنه ذي الدور الواحد، قادتته قدماه إلى بيت عبدالله الجمال، قرع الباب، انتظر برهة حتى تنهى لمسامعه خطوات وئيدة، استقبله عبدالله بقسمات يعلوها ارتباك، خطا غلاب للداخل، انهار على الكنبه، زفر أنفاسه وشفته تترتعشان:

- أخي عبدالله، من الغد مسافر في سفينة إلى بورسعيد وغرضي...

- الجيب واحد يا غلاب.

- مستورة والحمد لله، لكن غرضي تبقى منصورة مع بنتك فاطمة لحين العودة.

ضرب عبدالله كفاً بكف ونهض إلى الداخل، بنفس أضناها القلق انتظر غلاب عودة الجمال ومن حين لآخر يتناهى لمسامعه رغاء فحله من داخل حوش البيت، عاد وبين يديه صينية عليها طبق بلح وقلة ماء، وضعها أمام ضيفه المنتظر قبول طلبه، مدّ غلاب يده ورفع القلة، جرعات الماء تطفئ نفسه الظامئة لكن عبدالله هزّ رأسه وصوته المعتذر يتلجلج:

- أولادي وأمهم عند بيت جدهم في أولاد صقر بالشرقية وأنا نفسي مسافر في مأمورية قرب رمانة، والوحيد الباقي معي ابني كامل، رفض مرافقة أمه وإخوته وأصرّ على البقاء معي.

أخرج غلاب نواة البلحة التي لاکها، تأملها ولم يلبث أن ألقاها جوار الطبق الفخاري، في أسى هز رأسه ونهض من فوره، عند الباب ربّت جاره على كتفه وضمه إلى صدره، استدار غلاب ليخرج فاستوقفه عبدالله وهو يقول في نبرة مصبوغة بالحماس:

- رأيك لو تكون معك؟!

تلاقى حاجبا غلاب في تقطيب حاد وزمّ شفّتيه وهو يردد:

- أصحب منصورة معي؟!

- معلوم يا صاحبي، ترافقك في أي مكان.

- لكنها حُرمة ويمكن تقوم حرب على ما نسمع من شهور.

- يا سيدي ربك هو السّتار، تبقى معك أفضل من تركها هنا لا تعرف مصيرها.

خفق قلب غلاب في قوة وهو يستدير موليًا صاحبه ظهره، خرج من البيت متلكنًا يتدبر
فكرة عبدالله الجريئة، حسده على إرسال زوجته وبقية أبنائه إلى الشرقية وتمنى لو أن
منصورة تزوجت ببني عيش* كباقي من في سنها، عَضَّ شفته لطبيعتها التي أضفت عليها
قلة جمال يضعها الشباب في الاعتبار فتزوجت صويحباتها وبقيت هي، تمنى أن يعود
بمنصورة إلى جرجا لكن لمن تعود وعمّه الوحيد نور رحل إلى الجنوب مع الأورطة وسمع
أنهم استقروا بعد شلالات النيل لمراقبة ثوار سلطان بلد الفور علي بن دينار، فإن دبر لها أمر
الرحيل إلى بني عيش بجرجا البعيدة ستعيش في البيت مقطوعة من شجرة ولا يدري
عنها خبرًا.

*بني عيش: إحدى قرى مركز جرجا التابع لمحافظة سوهاج بصعيد مصر.

- لا.

فاه بها وهو يمر على الحلاق المقرص أمام زبون يزين له وجهه فألقى عليه السلام ووقف هنيهة يرقبه والمقص يزيل شعر مخيمر ابن أم سعدي، برقت عيناه لوجه أم سعدي الطيبة، سيذهب إليها ويطلب منها استبقاء منصوره مع ابنتها سنية لكن ابنها سعدي ولد فاسد مدمن احتساء عرق البلح وتدخين المخدر، وكثيراً ما كان يراه يتطوح وهو عائد إلى البيت ويتشاجر مع أمه وأخته من أجل تدبير القروش لينفقها على مزاجه، أم سعدي مختصرة وفي حالها لكنها قليلة حيلة ولا يضمن منصوره في هذا البيت؛ فسعدي يغيب عنهم أياماً ثم يعود بأفعاله المشينة.

- لا.

تارة أخرى فاه بها مؤكداً لنفسه الرفض التام، رأى مخيمر يقدم لسيد الحلاق بتاوة عليها بيضتان أجر الحلاقة، جمدت قدما غلاب، كالبرق ومضت فكرة ففغر فاه وأدارها في عقله وأمسك بتلابيبها قبل أن تفلت، ابتسم وتسارعت خطواته نحو البيت، ما إن دلف حتى استقبلته منصوره بابتسامة وديعة كشفت ركوب إحدى سنتيها على الأخرى، همّت أن تطمئننه بأنها ستكون بخير أثناء غيابه ففاجأها بقراره الأخير:

- منصوره، ترحلين معي، لكن الأمر يحتاج منا إلى تدبير.

الطابور يسير ببطء، جندي يرتدي سروالاً قصيراً يجلس أمام منضدة، من حين لآخر يغمس قلم الغاب المدبب في قنينة الحبر ويدون أسماء كل من يمر أمامه من شباب ورجال نحو الباحة الكبرى قرب مرسى السفن الرابضة بمرفأ الإسماعيلية حتى إذا ما وقف أمامه غلاب النجار زعق بأعلى صوته ليسمعه المدون وسط لغط العمال:

- غلاب عبدالكريم النجار، وهذا ابني منصور غلاب عبدالكريم.

تدافع العمال وكانهم انحشروا بالباخرة، من طرف خفي أبصر غلاب مكانًا فقبضت أصابعه على معصم منصوره نحوه، في صعوبة يزاحم الأجساد المتلاصقة وبعد شد وجذب استطاع أن يصل ويقعد موسعًا لابنته شبرين فجلست ملتقطة أنفاسها وأعدت لف الشملة على رأسها، تأملها بالجلباب البلدي والشل يلف شعرها القصير، فما إن أخبرها ليلة أمس بقرار اصطحابها معه حتى نَقَذَ تدبيره المكير، لم تعترض الفتاة على خطة أبيها في قص شعرها وارتدائها الجلباب البلدي، ووجهها الأسمر وشفاتها الغليظتان اللتان ورثتهما من أمه حوّلت سحنتها إلى شاب في أوائل العشرين بلامح رجولة منحوتة من الصخر وإذا أضيفت أسنانها الأمامية الممتدة وركوب إحداها على الأخرى فإن ذلك جعل وجهها ذا قسما قاسية، افترت شفاتها عن ابتسامه الرضا حين علا صوته باسم منصور فدوّنه كاتب سجل العمال المرشحين بعد اسمه، في داخل نفسه أثنى على صنيعه، فمنصورة الآن ولد ولا يخشى عليها من عبث الشباب وطمع الرجال في الغربة التي لا يدري كم سيمكث بها، حتى البيت الذي اكتراه أخبر مالكة بالسفر وسلّمه المفتاح، روائح العرق الفائحة تطوف بأنفه، تدفعه لأن تلتقط ذاكرته أحداث يوم زجه داخل وابور النيل نحو الشمال رغم أن الكثيرين من بني عيش وقرى جرجا استقلوا القطار وتجمعوا بالقاهرة قبل ترحيلهم إلى الإسماعيلية والسويس، ألقت به المقادير بالإسماعيلية الهادئة وها هو يغادرها إلى بورسعيد، لم ينقض النهار حتى توقفت السفينة الكبيرة فانتظر حتى دُفع دفعًا للخروج إلى السطح وأصابعه تقبض على كف منصوره التي راققتها صحبة أبيها لتري بلادًا أخرى سمعت أن البنات الأجنبية يسرن في الشوارع بملابس مزوّقة وشعورهن محلولة على الأكتاف والظهور. على السطح وقفوا منتظرين الإذن بالمغادرة، الهواء الطازج يملأ صدر منصوره فعبّت ملء رثتها ولاحظ منها نظرة لأبيها الذي عض شفثيه للتمثال المنتصب على قاعدة طويلة، دون أن تسأل التفت إليها قائلاً:

- تمثال ديليسبس.

تلعثمت وهي تحاول إعادة نطق الاسم الغريب فصمتت مفسحة لعينيها تأمل الرجل الواقف ويده اليسرى تقبض على ورقة مطوية واليمنى مفرودة نحو الماء، تارة أخرى لم ينتظر غلاب أن تستفسر:

- زمان ديليسبس فرض على الخديو شروط حفر ترعة السويس الكبيرة، جدتك طول عمرها تحكي سيرة الترعة، أبوها مات هناك أيام السخرة.

هومت وهي ملتزمة بقلة الكلام تنفيذًا لأمر أبيها؛ حتى لا يستدرجها أحد في حوار ويعرف أنها بنت وتثير حولها الشكوك، بحماس أعادت لف الملفعة الزرقاء حول رأسها، أصابعها تقبض على الصرة الكبيرة، همت أن تهمس في أذن أبيها بشيء فأحجمت لشروده، أصابع غلاب تعتصر زيار السفينة الخشبي، انمحت كل الوجوه من أمام مقلتيه الذاهلتين، تواتر وجه أمه المستدير والوشم الباهت منحوت أسفل ذقنها يوم أن لعلت زغرودتها فور سماعها لخبر هلاك الخديو توفيق الذي لم تكف عن دعائها عليه بعد أن مات أبوه في التل الكبير، ليلتها صرخت زوجته قمر معلنة عن ولادتها ففرحت أمه أشد الفرح واعتبرت أن الله نصرها بطول أيامها حتى شهدت موت الخديو ليلة ولادة زوجة ابنها؛ فحكمت رأيها أن تسمي الولد المنصور لكن خاب رجاؤها وهي ترفع المولودة الساكتة من قدميها وتربت على ظهرها كي تصرخ فانفلتت مأماتها المكتومة، لفتها في الأقمطة الشحيحة، رفعت رأسها وقالت: اسمها منصور يا غلاب.

لم تحزن أمه لتبكيه بالبنت بل رفعت يديها بالدعاء لها وهي تؤكد: البنت رزقها برزقين، وعلقت أملها أن يكون المولود الثاني ذكرًا لأنها حلمت يومًا أن واحدًا من ذريتها سيقاتل الإنجليز الذين تركوا أباه يتعفن في التل الكبير كما جاءتهم أخبار المعركة أيام هوجة عرابي*، استحصى بالصبر على زوجته قمر التي عقت بعد ولادة منصور إلى أن فاضت روح أمه والعالم يستقبل العام الألف وتسعمائة من ميلاد المسيح عليه السلام، لم ير يومًا

وجه أمه مبتسمًا فكانت دائمة التجهم ولا تكف عن رواية رحيل أبيها فضل الأنداني من
زمن لا تدري بدايته وهو موثوق

* هوجة عرابي: هي ثورة الزعيم أحمد عرابي على الخديو توفيق وحربه مع الإنجليز.

اليدين بالحبال الغليظة، وكل ما عرفوه أنه هاجر مع غيره من رجال أوندان لحفر ترعة كبيرة وظلوا ينتظرونه أعوامًا لكنه لم يرجع ولم يعد أحد من رفاقه، الأمر الذي جعل أمه شديدة الكراهية للأجانب ودفعت أباه عبدالكريم للعمل مع الجيش فإذا ما جاءها خبر موته بالتل الكبير عاشت بقية حياتها القاتمة في ندم، مما دفعها لأن تبعده عن العمل في الجهادية*، لا يزال يتذكر شيخ البلد وخفر العمدة وهم يسوقون لفيقًا من الرجال للخدمة مع الجيش، استطاعت أن تقدم لشيخ البلد كل ما جمعته من مال؛ حتى لا يأسره مع غيره من رجال بني عيش وقدّر شيخ البلد تضرعها وأنه وحيدها وذكرته بأبيه المقتول بعيدًا عن دياره فقبل فديتها وتركه، زوّجته لقمر ابنة أخيها، وجه قمر الشاحب يطل على ذاكرته ولسانها يلهج بالتوصية بمنصورة حتى ماتت، لم يأل جهدًا في رعاية منصوره التي التصقت بركان النجارة وساعدته في كل شيء حتى في جمع أخشاب الأشجار وصنعت بنفسها حوامل الأزيار والطبالي والكراسي الواطئة والمناضد، سمع ذات يوم شيخ البلد يعلن عن جمع كل الرجال للعمل في الجيش مقابل أوقيات من الخبز والبقسماط واللحم والعدس والسمن وأجر يومي خمسة قروش، فاهتاج الناس وتطوعوا أما هو فرفض أول الأمر لكن شيخ البلد بعد أيام أذاع الخبر الفاجع بأن من لا يتقدّم بنفسه سيجرجر إلى التطوع والنير على رقبتة بعد أن تعلق رجلاه في الفلقة فأغلق البيت بالضبة

* الجهادية: الخدمة في الجيش.

والمفتاح وانضم مع من تجمعوا ولف عدته في زكينة صغيرة واصطحب منصوره التي
تخطت العشرين سنة معه.

بكفها تربت على كتف أبيها فاستفاق من دوامة سرحانه، أغمض عينيه وفتحهما، الألواح
الخشبية العريضة امتدت ودبت خطوات العمال الثقيلة مغادرين السفينة، وقفوا مصطفين
منتظرين أوامر القومندان الواقف جوار الضابط الآخر بشعره الذهبي ووجهه الأبيض
المشرب بالحمرة:

- تستريحون هنا، لحين توزيع الأعمال عليكم.

التفتوا جميعاً إلى حيث أشار القومندان صادق، الهنجر الخشبي الكبير يربض بعيداً
فاستداروا متجهين إليه، كعادته تباطأ غلاب فإنه يدري أن المقدمة ستتكدس آخر الهنجر
وربما من يحظون بمكانٍ قرب الباب هم الأفضل وبخاصة أن دورات المياه مقابلة للمخزن
الخشبي الكبير، متران وعدة أقدام كان نصيبه قرب الباب فتحرر من البقجة الكبيرة
وجلس فاردًا ساقيه جواره منصوره التي فكت رباط الصرة وأخرجت الخبز والبيض
المسلوق، طفقت تقشر الواحدة تلو الأخرى ليتناول غداه وأذان المغرب يتردد، فور انتهائه
من تناول الطعام، رفع القلة وشرب ففوجئ بالعمال يقتحمون الهنجر ويوزعون على كل
واحد منهم رغيفاً وقطعة جبن فاستلم نصيبه ونصيب ابنته ووضعته منصوره بالصرة
كعشاء لليلة طويلة سيمضونها هنا حتى الصباح.

العمال لا يكفون عن الكلام ومهاتراتهم لا تنقطع، ضيق ينتابه فهبّ واقفاً وخطا في هدوء،
لحظ انفلاق ألواح باب الهنجر، من زكينة عدة النجارة سحب كيس المسامير، ثبت اللوح
جيداً وبالشاكوش دق مسماراً تلو الآخر فثبتت المفصلات أكثر، ما إن استدار حتى طالعه
القومندان صادق ببطنه الممتلئ خلفه اثنان من الجند، انصرف نحو كشك القائد الإنجليزي
فاقترب أحد الجنديين من غلاب:

- جناب القومندان يريدك في إصلاح أعطال بالسفينة.

هزّ غلاب رأسه وقلبه يخفق بالفرحة لأنه سيزاول مهنته، بالإضافة إلى أنه سيبتعد هو ومنصورة عن إفراغ حمولات السفن أو نقل المهات فهتف صائحًا:

- تحت أمرك وأمر جنابه.

هزّ الجندي رأسه طالبًا منه أن يستريح داخل الهنجر ومن فجر الغد سيرافقه إلى داخل السفينة الكبيرة.

- تقدر على تحويل كل ألواح الخشب إلى صناديق؟

- يمكن يا حضرة القومندان وربنا يبسر، لكن أحتاج إلى مسامير.

هوّم القومندان برأسه استجابة لطلب غلاب الذي مسح بعينه كومة الأخشاب المتكسرة بمخزن فسيح ببطن السفينة، خلع جلبابه ومنصورة تهىء له كرسيًا ليجلس عليه أمام تل الألواح، لم يلبث أن قدم عليه جندي بصندوق المسامير أكثرها معوج طاله الصداً والقليل منها المستقيم الذي لم يُدق من قبل، بشاكوش صغير تصلح منصورة المسامير الملتوية وتلقيها بجانب أبيها المنهمك في قياس أطوال الألواح وبالمشار يساوي بعضها حتى استصلح معظمها، الوقت يمر ولم يكف عن إنتاج الصناديق ومنصورة ترصها قرب باب الغرفة فلم يشعر بقرقرة معدته إلا حين فردت ابنته منديلاً كبيراً ورصت الأرغفة التي نشفت بعض الشيء، نفض كفيه من نشارة الخشب وتناول طعامه في صمت قطعه دخول القومندان عليهما فهب غلاب واقفًا تتبعه منصورة لكنه أشار إليهما أن يجلسا ووجهه مبسوط من كم الصناديق:

- جميل يا معلم.

- غلاب يا حضرة القومندان، وابني منصور يساعدي.

- لهجتك صعيدية.

- مديرية جرجا، من بني عيش.

- ومعنا تأكل أحسن عيش و...

بتر عبارته دخول القائد الإنجليزي خلفه عدد من الحماليين وبعدهم بخطوات يقف ثلاثة
عساكر مصريين، تحاور مع القومندان الذي رد عليه بالإنجليزية فعلت قهقهته وغلاب
يسمعه يقول وهو ينظر إليه:

- "جود أبر إيجبت".

يلتفت القومندان إلى غلاب وهو يؤكد له:

- الكابتن معجب بعملك يا غلاب ويقول: أفضل ناس هم أهل الصعيد وسيستعين بك في
أعمال أخرى.

تارة أخرى يقطع القائد عبارة القومندان وهو يشير إلى الحماليين أن ينقلوا الصناديق
الخمسين خارج المخزن فهم العمال بحملها، قبل أن يبرح القومندان مخزن السفينة يلقي
في كف غلاب عدة عملات جديدة مرسوم عليها طغراء الخليفة محمد رشاد سلطان تركيا،
تلقفها غلاب وأعطاه لمنصورة التي لفتها جيداً في منديل وهمت أن تلقها في صدرها
لكنها تماسكت قليلاً حتى يخرج القومندان فوضعت أجر اليوم في البقجة وربطتها بإحكام.

على الرغم من استمرار المصباح الزيتي متوهجاً فإن منصورة أشعلت ذبالة الشمعة التي
سحبته من البقجة وأمالته لتسيل قليلاً وثبتتها على المنضدة الخشبية، انتظرت حتى

ينشف الشمع المذاب، نهضت نحو باب المخزن فأغلقتة بإحكام، لم تكتفِ بذلك بل سحبت منضدة أخرى وركنتها خلف الباب، أحسّ غلاب بتعب ابنته من فرط العمل المتواصل فلم يناقشها حين تمددت على الجِرام فانهار جسمه والإرهاق يدب بين أوصاله، اتكأ بكوعه ورفع القلة، شرب وعاود الاستلقاء ومن حين لآخر يشعر باهتزاز السفينة وأصوات صافرات البواخر الأخرى تنطلق، شعر بمسييس الحاجة إلى الراحة فتشابكت رموشه وما بين الإغفاء والصحو أحسّ بحركة قوية وتأرجح السفينة لكن دوار رأسه أرخى جفونه فاستسلم لرسل النوم التي جثمت على جسمه المنهك.

جال غلاب بنظراته فرأى المخزن الآخر بالسفينة هو الأضخم والأكثر تكديسًا للخشب، مما دفع القومندان صادق إلى الاستعانة بنجارين آخرين معه حتى ينهوا تحويل الألواح إلى صناديق، عرف من أحد العمال أنه كان من المفترض إفراغ تلك الأخشاب وعمل الصناديق منها وإعادتها مرة أخرى إلى السفينة لكن القائد الإنجليزي فضّل أن يكون العمل داخل مخزن السفينة توفيرًا للوقت، طوال أيام ذاق غلاب طعم القلق بسبب الغرباء الذين زُج بهم للعمل معه، القومندان يراقب كل شيء ويتعجّل إتمامهم، يستغرب مرافقة غلاب لابنه حين يذهب لدورة المياه وانتظاره إلى أن يخرج لكنه لم يبال للأمر بل زاد وده للنجار الماهر النشيط وهمته التي لا تعرف الكلل، بعد الانتهاء من إفراغ بطن السفينة من بقية حطام الأخشاب المهترئة والمعطوبة، غادر الجوف المظلم وتنسّم الهواء والراحة من فرط العمل المضني، دلّه القومندان على بيت قريب من المرفأ يشبه عشّة صغيرة مسقوفة بعروق الخشب، فاستأجره غلاب، البيت غرفتان إحداها كبيرة والثانية أضيق من أختها، يقابلهما الكنيف، منذ أيام لم تستحم منصوره فشلحت الجلاب البلدي وألقته أسفل الجدار وهي تبتسم فانتتر غلاب وأغلق النافذة المصنوعة من الجريد، تقارب حاجباه غاضبًا وهو يصوّب إليها نظرات اللوم على تسرعها، دخلت الحمام، ألقّت ببقية ملابسها وأطرقت رأسها لتأمل جسمها الأسمر، بكفها المتشقق تمسح صدرها الضامر فشعرت بروح أنثى صغيرة تائهة تعود فأتسعت ابتسامتها وهي تهيل ماعون الماء على كل جسمها وتنعمد ملامسة كل بوصة به لتؤكد لنفسها أنها منصوره وليست منصور، زاد امتنانها لطبيعتها حين نقطت الدماء فحمدت ربها أن مرضها الشهري حانت دورته هنا في البيت بعيدًا عن النجارين وصبيانهم ببطن السفينة فأكملت حمومها وارتدت ثيابها وخرجت تنشف شعر رأسها القصير.

- كما اتفقنا يا منصوره، نحن في بلد غريب والحرص واجب.

أسرعت بوضع الطاقيّة على ناصيتها، انشغلت في تحضير الغداء حتى إذا ما انتهت تعالَى
شخير أبيها فلم ترد أن تقلق راحته ووجدتها فرصة لتمدد هي الأخرى جسمها المنهوك
فاستلقت جواره وظلت تحمق في سقف الغرفة الواطئ إلى أن استسلمت للنوم.

ليلاً بعد العشاء، خرج غلاب من مسكنه المتواضع، الشارع المنزوي خفتت الحركة أمام
بيوته والدكاكين البعيدة مغلقة، سار نحو بيت القومندان المقابل فرفع عينيه إلى نهاية
سطحه العالي، السور الحديدي يسبح حديقة قدرها بعدة قراريط، ألقى التحية على
الحارسين الجالسين أمام باب السور فكان رد الحارس السوداني هو الأعلى:

- تفضّل يا زول.

على مصطبة قصيرة جلس غلاب فقدّم له الحارس الآخر كوباً من الشاي، تناوله وابتسامة
مرتبكة ترتسم على وجهه:

- أنت غلاب الجرجاوي.

ارتفع حاجبه لمعرفة الحارس ذي البشرة القمحية لاسمه، ابتسم الآخر فأنكشفت أسنانه
اللؤلؤية لتضيء وجهه الأسود وبلهجتة الجنوبية المتكسرة انتشرت كلماته:

- أخبرنا جنباه عن سكنك في العشة المقابلة.

- قصد بلال أن حضرة القومندان صادق الجركسي عرفنا عليك قبل أن تسكن.

- اسمك بلال؟

- نعم يا زول، أنا بلال ابن الضو أيوب.

- والأومباشي؟

- محمد.

- أنت من السودان البعيدة يا بلال أم من أخواننا بعد الشلال؟

سأله غلاب وهو يرشف الشاي ونظراته تتأرجح بين الشابين اللذين ركنا بندقيتهما جوار الجدار وانتظر أن يجيبه بلال، لم يلبث أن افترت شفتاه الغليظتان عن ابتسامة عريضة وهو يجيب:

- جدنا أصلاً من نيالا وكان تاجرًا للصمغ لكنه هاجر إلى الشمال مع أبناء من قبيلتنا الداو وسكن وادي حلفا ولكن أنت قلت أن أخوالك...

- أمي من الجنوب، أبوها فضل الأنداني مات في حفر الترعة الكبيرة، أما أبي فمن جرجا وكان في الجيش أيام عرابي ومات في التل الكبير.

- صعيدي؟

قالها محمد وهو ينهي شرب الشاي ويستعيد بندقيته فيضعها بين رجليه.

- أنا وابني منصور قدمنا من جرجا للعمل مع العساكر المصرية وربحنا والحمد لله لكن العمل متوقف و...

يقاطعه الأومباشي محمد في نبرة حادة:

- العمل لن يتوقف يا رجل، والإنجليز في حالة تعبئة والعالم كله يتكلم عن حرب بسبب قتل ولي عهد النمسا في سراييفو.

برغم غرابة الخبر الذي ألقى به الأومباشي لكنه استرعى انتباه غلاب فلم يرد أن يقاطعه حتى يكمل:

- أرشيدوق النمسا اسمه فرانس أو فرانز على ما أسمع، قتله واحد من تنظيم مسلح والنمسا في الوقت تقابل صربيا عند نهر درينا.

- وكيف عرفت أخبار الحرب؟

- من الصحف ومن جناب القومندان صادق الجركسي نفسه، وهو الآن غير موجود بالبيت ومجتمع بهم القائد الإنجليزي.

أدرك غلاب سر جلوس الحارسين متحررين من السلاح فهو يعرف أن حرس أي قومندان يقفون أمام الباب وبنادقهم في أيديهم لا يتحركون قيد أنملة، لكنه غير موجود الليلة فيجلسان على حريرتهما يصبان الشاي من حين لآخر ويستضيفانه، ويريان في أنيسهما الجديد فرصة للفضضة معه والتحرر من قيود الخدمة المملة، قطع غلاب فترة الصمت القصيرة بسؤال بلال:

- وأنت يا ابن النور، تعرف حاجة عن الحرب؟

تفترت شفتا بلال عن ابتسامة خفيفة فأطرق رأسه المحلوق حتى تكاد صلغته تبرق من انعكاس ضوء الشعلة المثبتة أعلى الجدار:

- أنا ابن الضو ولكن لا يهم فكلها أنوار ربنا، المهم، لا أعلم غير ما عرفته الآن ولكن في الجنوب سمعت أن الفاشر كلها تستعد لحرب.

- الفاشر؟

- الفاشر موطن علي بن دينار سلطان الفور.

- استرھا ٲارب؁ حرب أوربا بعيدة عنا لكن في الجنوب تبقى جنبنا ويمكن يدخل فيها العساكر المصرية.

- الحرب في أوربا أو في الجنوب غير بعيدة عنا؁ الإنجليز لو دخلوا الحرب يبقى على عساكرنا السلام.

قالها الأومباشي وهو يهز رأسه في تأفف فشعر غلاب من طريقته الجادة باليقين من نشوب حرب؛ فمذ وطأت قدماه بورسعيد والقومندان صادق يسير خلف القائد الإنجليزي وينفذ أوامره؁ تارة أخرى تراوده أحاديث أمه عن هوجة عرابي وخبر مقتل أبيه في التل الكبير فود لو يدق رأس القائد الإنجليزي بالقادوم أو ينشر زوره بالمنشار لا أن يصنع له الصناديق التي عرف من كلام العساكر الذين يعاونونهم أنها صناديق لتخزين الذخيرة وطلقات المدافع الكبيرة؁ أفاق على نهوض الحارسين وكل منهما يرفع السلاح لكن الجلبة التي أحدثها مرور عربة بعيدة يجرها حصانان لم تكن عربة القومندان فعادا للجلوس فاستأذنها غلاب في العودة للبيت.

- ابقى هات ابنك معك يشرب معنا الشاي يا زول.

في مرح علا صوت بلال بعبارته فهز غلاب رأسه وتسارعت خطواته نحو البيت وأفكاره تتعارك في رأسه حتى دلف الباب وأغلقه بإحكام؁ منصوره نائمة على الحصير متدثرة بملاءة خفيفة والبعوض يحوم حول ذبالة الشمعة؁ انهار جوارها وشرب ما في القلة دفعة واحدة؁ بقلق رمق جسمها المنثني؁ عادت أخبار الحرب التي سمعها من الحارسين تتصارع فشعر بغليان رأسه؁ بإصبعه حك ذقنه وفكرّ جدياً أن يسافر بها إلى القاهرة عند ابن عمه الذي يسكن الغورية* ويعمل في تجارة التوابل؁ أو يعود إلى جرجا ولو سنحت الظروف يبتعد إلى جنوب الشلالات ويزوجها بأحد أقارب أمه هناك ويعيش في تلك البلاد الهادئة البعيدة؁ زفر نفساً حائراً؁ على الكنبه اليتيمة تمدد مقابل منصوره وانتظمت أنفاسه؁ غمغم في خفوت قبل أن تتلاقى رموشه.

- يُقتل أرشيدوق النمسا أو يُحرق بالنار، ما لنا وحرب يهدد الإنجليز بدخولها، إلهي تنكسر
رءوسهم كلهم ولا ترتفع أبدًا.

*الغورية: أحد أحياء القاهرة القديمة ينسب إلى السلطان المملوكي قنصوة الغوري.

الأشهر التالية لم يكف غلاب عن مشاركة بقية العمال في شحن السفن وصناعة كل ما يطلب منه من صناديق ومناضد ومقاعد حتى كانت الليلة التي أمر القومندان صادق بتحميل أكبر عدد من الصناديق داخل السفينة فانقضى الوقت وهم يرتبون المهمات، تساءل البعض عن عدم السماح لهم بمغادرة السفينة بعد انتهاء عملهم فلم يُعط لأي منهم جوابًا شافيًا فلبثوا منتظرين وغلاب محشور مع منصوره وسط العمال، وتناقل بعضهم أن السفينة أغلقت أبوابها وتتهيا للتحرك وغلاب مثله مثل أكثر العمال لفته دهشة أعقبها سخط على هذا القرار المفاجئ؛ فلم يرتب نفسه للرحيل والكثير من الأغراض الضرورية كان لا بد أن يأتي بها من مسكنه، مرارًا حاول أن يخرج من المخزن لكن الحرس منعه فعاد إلى منصوره واستخلص لهما ركنًا قصيًّا بعيدًا عن مرافقيه الذين قدّر عددهم بالخمسين، ضرب كفًا بكف لبقية رغيّف لن يكفي عشاءه أو إطعام ابنته المستسلمة لمصيرها وأمست أكثر التزامًا بتجنب الاختلاط أو الحديث مع أحد مهما يكن فضلت طوال الوقت صامتة ومن حين لآخر تعدل وضع الطاوية على رأسها وتعيد لف الشملة، تظل مقرفة حتى انتشرت متعلقة برقبة أبيها لانطلاق صافرة السفينة واهتزازها المفاجئ فأيقن غلاب أنها تغادر المرسى ولا مناص من الرضوخ لقدره والتحايل ليعود سالمًا مرة أخرى.

استصلح كل منهم مكانًا للنوم فاتكأ بعضهم على الأخشاب والآخرين قعدوا في أماكنهم منتظرين ما تفصح عنه الساعات القادمة، الباب الكبير ينفتح ويدلف جنود يحملون ملاءات وأغطية، في سرعة وزعوها على الرجال غير أبيهين بالأسئلة التي يلقيها عليهم العمال عن وجهتهم، صامتين غادروا المخزن وأغلقوا بابه، نفذ غلاب الملاءة الكالحة وفرشها جوار الجدار الخشبي، حرّك صندوقين كبيرين وستر مرقدتهما ومن حين لآخر يتسامع صوت المياه تضرب جنبات السفينة فربت على رأس منصوره التي أغلقت جفنيها ونامت منثنية

الساقين، تمدد غلاب جوارها ولم تكد رموشه تتقارب حتى رفع رأسه للباب المفتوح ونفس الحارسين يدلغان وأحدهما يحمل طاولة كبيرة عليها أرغفة والآخر يوزع لكل واحد منهم رغيفًا وقطعة جبن، تسلّم نصيبه ونصيب منصوره، لم يشأ أن يوقظها فلف الطعام بقطعة قماش وقرر النوم وفي الصباح يتدبر أمر معرفة إلى أين تغادر السفينة.

لغط العمال يتصاعد مطالبين بخروجهم من المخزن الخانق فتصايح بعضهم وهم يدقون الباب ولم يلبث أن انفرج على مصراعيه، نهض غلاب من رقدته على صوت دبدبة الأقدام، وقف قبالة منصوره التي لا تزال تغط في نوم عميق، هزّ كتفها فتلملمت وانفجرت أجفانها المتورمة، أشار إليها أن تنهض فقامت متثاقلة وهي تدعك عينيها، انتعلت الخف الجلدي، سارت خلف أبيها إلى أن خرجا من الباب وسط بقية العمال، السلم الخشبي أوصلهما لأعلى وما إن بزغ رأساهما حتى عبّ غلاب صدره بالهواء الطازج وأغمضت منصوره عينيها وفتحتهما لزرقه البحر الشديدة، ابتلع غلاب ريقه لطابور الواقفين أمام دورات المياه وأدرك أنهم أكثر بكثير من الخمسين الذين سجنوا معه في مخزن الصناديق.

حين جاء دوره أدخل منصوره أولاً وبقي حتى خرجت والمنديل يغطي أنفها من رائحة الصنان المعبقة محل قضاء الحاجة الضيق، جلسا قبالة بقية العمال ومنصورة تسعل وهي تخفي وجهها بالشملة الطويلة، ألقى الجندي في حجر كل منهم رغيفًا وقطعة جبن غريبة فتناولوا إفطارهم وسُمح لهم بالوقوف قليلاً يتبادلون أكواب الشاي نصف المملوءة، انتهز غلاب الفرصة وحادث أحد الجنود:

- إلى أين نساfer يا حضرة؟

التفت إليه الجندي المشغول بصب الشاي في الأكواب ولم يجبه فكرر غلاب عليه السؤال ودون أن يلتفت أجابه في صوت خفيض:

- صدرت أوامر من القومندان أن يُنقل العمال إلى الجزيرة.

- جزيرة؟ أي جزيرة؟!

- جزيرة مودروس* لأن الإنجليز يحتاجون للعمال هناك.

*مودروس: مدينة بجزيرة ليمنوس التابعة لمقاطعة ليفسوس اليونانية، اشتهرت بتوقيع هدنة شهيرة بين الدولة العثمانية والحلفاء في أكتوبر 1918م في نهاية الحرب العالمية الأولى.

- وماذا يفعل العمال في جزيرة مود.. مود؟!

- هناك يوجد كامب كبير وفي حاجة للعمال لإتمام إنشائه.

- ومتى نرجع لبلدنا؟

- علمي علمك يا شيخ، المهم عد مكانك، الدنيا في حالة حرب، ويمكن تظهر لنا سفينة تضر بنا.

- تضر بنا وتغرقنا هنا في عرض البحر؟! يا حفيظ يا رب.

تركه غلاب والغصة تكاد تعصر روحه المغلوبة على أمرها من الفخ الذي وقع فيه هو ومنصورة ولا فكاك منه، لف ذراعه حول كتفيها فأنتهت شرب بقية الكوب ووضعته على المنضدة، سارت جوار أبيها فأخبرها بابتعادهم عن بورسعيد وحرب وشيكة، عقدت حاجبيها وهي تهمس في وجهه بصوتها الأجش:

- ما لنا وحرب الإنجليز؟ نترك بلدنا لنعمل في كامب وفي بلد بعيد؟

- أمر ربنا يا بنتي، نصبر إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، المهم احرصي على نفسك يا منصور ولا تفارقيني أبدًا والاحتياط واجب.

- أمرك يا أبي، كنت مترددة لكن الحين أنا منصور بن غلاب الجرجاوي، الصعيدي القوي.

لأول مرة ترتسم الابتسامة على وجه غلاب، هز رأسه وفي دواخل نفسه قلق على ابنته الوحيدة يتبعه بقية من ندم على مرافقتها إلى تلك البلاد البعيدة، وما زاد نفسه أسفًا أخبار الحرب التي لا حديث لأحد إلا عنها.

على سطح السفينة تزاحم العمال تاركين لصدورهم الفرصة ليتنشق كل منهم الهواء الطازج المضمخ برائحة البحر، تتشابك أصابع يد غلاب ومنصورة وباليدي الأخرى يمسك كيس عدة النجارة تاركًا صرة بقية الطعام لابنته التي راقها المرسي الكبير وأفلتت العنان لعينيها تستطلعان الأرض المنبسطة والجبال البعيدة تحدها من كل جانب، أشارت للطيور المحلقة في قبة السماء الصافية.

دون أن يسأل غلاب عرف من همهمات المجاورين له أن السفينة رست قبالة مرفأ مودروس، الهواء رائق والجو مشمس وزعقات نوارس البحر تصطخب، لم يلبث أن امتدت عوارض خشبية مربوطة بحبال من الليف، الجسر الخشبي المتأرجح يسمح للعمال بالنزول في صفٍ طويل يتقدمهم القومندان صادق الجركسي وجنود إنجليز، استغرق نزولهم قرابة ثلث الساعة ووقفوا متجاورين والقائد الإنجليزي يلقي أوامره وقسماته تفتعل الحزم فيعيد القومندان ما أمر به:

- مرحبا بكم في مودروس وهي تحت سيطرتنا، مطلوب منكم الاستراحة في الهنجر المخصّص لكم ومن الغد سيتم توزيع الأعمال، عاشت مملكة بريطانيا العظمى، والنصر لنا جميعًا.

غمغم غلاب في سره:

- عاش الخديو عباس حلمي عدو الإنجليز.

- عزلوا الخديو وبدله السلطان حسين كامل يا أبي، نسيت؟

التفت غلاب لمنصورة، الوحيدة التي سمعته يهاتف نفسه فهز رأسه أسفًا على وجودهم هنا في بلاد غريبة للعمل مع الإنجليز، بدأ في التحرك وسط جموع العمال خارجين من ميناء مودروس مبتعدين ميلاً عن الشاطئ إلى أن علت صافرة الجندي فوقفوا أمام عنبر كبير بوابته متسعة، دارت نظرات غلاب فمسحت القاعة المستطيلة وقدّر الأسرة المتراصة بأكثر

من مائة سرير واطى جميعها مصنوعة من الحديد عليها ألواح خشبية ومراتب اشتّم منها رائحة الزنخ، أمرهم القومندان بأن ينام كل منهم على سرير ويتركوا بقيتها للقادمين بعد ذلك، رتت عبارة القادمين في أذن منصوره فامتعضت وأمالت رأسها فوسوست في أذن أبيها، فأجابها هامسًا:

- أكيد يحتاجون عمالًا لا عدد لهم، هيا يا ولد، لنسترح هناك.

علا صوته بعبارته الأخيرة، وسط جموع العمال تسارعت خطواته نحو آخر العنبر، في عجلة تأمل اصطفاة الأسرة فاختر الملاصق للجدار الخشبي لنوم منصوره وهو في السرير المجاور، في منتصف الهنجر فتحة تؤدي إلى طرقة على جانبها أبواب لدورات مياه وحمامات متقابلة، ألقى عليها غلاب نظراته مقدرًا عددها بعشرين بابًا يقابلهم عشرون فارتاح لكثرة الحمامات واستحسن مبادرته لاختيار هذا المكان وأيقن أن من سيأتون بعدهم سينامون في الأسرة المواجهة لبوابة العنبر.

فردت منصوره جسمها على السرير مشبكة أصابعها خلف رأسها الملفوف بعمامة خفيفة فالتفت غلاب حوالية وهو يرقب بقية العمال يهيئون مراقدهم للراحة بعد عناء دوار البحر، دون أن يدري فرد بطانية قديمة على جسم الفتاة وكأنه يغار من نومتها أمام الشباب والرجال، ابتلع ريقه وزاغت نظراته لكنه أدرك أن رفاقه المتعبين كل منهم لا تفكير له سوى اقتناص ساعات الراحة، تأرجحت نظراته بين وجوههم ورسخ في نفسه تجنبهم والعمل منفردًا برفقة منصوره؛ لينأى بها عن مخالطتهم، شعر باحتباس مائه فغادر المطرح إلى ممر دورات المياه ومن حين لآخر يلتفت نحو منصوره التي حملقت في السقف الخشبي العالي وشعرت بدوار رأسها فأغمضت عينيها وفكرت فيما يمكن أن تعمله مع أبيها من خدمة للجيش الإنجليزي مغصوبين عليها في تلك الجزيرة المعزولة.

الكثير من الألواح والأخشاب القديمة تكومت على شكل تلٍ كبيرٍ، القومندان صادق الجركسي يراه العمال يقف على تبة عالية وأصابعه تمسك بمقبض كبراج أسودٍ طويل، أمر النجارين والحدادين بصناعة مناضد عالية في حين غاب بقية العمال وهم يحملون المناشير الكبيرة لثلاثة أيام كاملة عادوا بعدها والخيول والبغال تجر عربات محملة بجذوع أشجار الغابة في الجانب الآخر من الجزيرة، أفرغ العمال أحمالهم وأمرهم القومندان بالراحة، بينما قام غيرهم بمواصلة نقلها في براح فسيح جوار الهنجر، وقف غلاب ومنصورة جوار كل النجارين الذين جمعهم القائد الإنجليزي، رفع رأسه وصوته المطعم بكلمات عربية متكسرة يعلو بالأمر:

- عليكم أيها العمال صناعة عدد خمسين سريرًا وخمسمائة صندوقٍ وسنأتي لكم بمزيد من الأخشاب في الأيام القادمة.

ارتفع حاجبا غلاب دهشة والتفت يمينًا ويسارًا لرفاقه، إنهم عشرة نجارين فقط فأيقن أن العمل في الكامب الإنجليزي بتلك الجزيرة لن ينتهي قبل شهور، وخاصة أن سفينة أخرى رست ونزل منها ما يقرب من مائة من الحمالين، انقضى منتصف النهار وهم ينشرون الجذوع ويستصلحون الأغصان الكبيرة، يرصون الألواح العريضة ومنصورة من حين لآخر تستظل بشجرة لا تدري اسمها فيقترب منها كابتن إنجليزي على فرسه ويشير إليها أن تنهض وصوته يعلو:

- "كَمْ إن بوي".

تقف جوار أبيها فيهز رأسه للقائد ويدير عينيه فيرى غيره على صهوات جيادهم يتسابقون حول المعسكر الذي شعر كل من فيه بأنهم مسجونون لا إجراء يعملون بمقابل، بعد ساعة الغذاء استأنفوا العمل حتى الغروب ففوجئوا بالعمال الجدد يقبلون من بعيد، نظم

القومندان سكنهم في الهنجر الأول وبقيتهم وهم الكثرة قادهم نحو الهنجر الثاني، نصيب كل عامل مكّون من رغيف وقطع من الجبن وكوب شاي، رغم وسع المطرح فإن غلاب لم يطق حرارة العنبر المشحون بأنفاس ما يقرب من مائة أعمارهم متفاوتة بين العشرين والخمسين، خرج وقعدت منصوره قبالتة يتناولان طعامهما على مهل، أكل القليل وزهد في الباقي، على مقربة منه تقرفص شابّ ذو وجه أسمر، ابتسم لغلاب وهو يقول:

- كلّ يا أخي، خسارة تلقيه في الزبالة.

حدّق فيه غلاب وأيقن من لهجته أنه من الجنوب، تأمل هيئته فسأله في اهتمام:

- من البلينا؟

- لا، من نجع غباشي بجرجا.

ابتلع ريقه واتسعت عيناه متأملاً الشاب القصير، دق قلبه في فرح؛ فها هو واحد من أبناء بلده يتناول معه الطعام وسيعرف منه أخبار مصر التي فارقوها منذ أسابيع فسأله ثانية:

- نجع الغباشي أولاد عمنا، أنا عمك غلاب من بني عيش وهذا ابني منصور.

- محسوبك صالح يا عم غلاب.

- بالجودة يا ولدي، أخبار البلد؟

- تركتها من سنتين واشتغلت في شحن وتفريغ سفن ترعة السويس، لكن قل لي يا عم

غلاب: ألا يوجد جامع هنا؟

رجع غلاب بظهره إلى الورا؛ فمذ أن وطأت قدماه أرض الجزيرة لم يسمع أذاناً ولم يفكر في الصلاة أو يذكره أحد بها، أدرك صالح من خلال صمت غلاب أنه لا توجد مساجد فنهض من فوره، يُميل صفيحة صغيرة ويتوضأ ثم ينتحي جانباً ويرفع صوته بالأذان فيلتفت

العمال وتتأرجح رغبة بعضهم في الاستعداد للصلاة ولكن الحنق الغالب على أكثرهم أحاطهم بأسوار من اللامبالاة والصبر لحين مغادرتهم ذلك البلد الذي لم يتوقعوا عزلته عن العالم، ولا شيء يفعلونه غير العمل المضني فاجتروا كبراً وهم حكايات أيام السخرة رواها جدودهم الناجون من الهلاك في حفر ترعة السويس.

دقائق وتهيأت ثلة من العمال ومن لم يجد الماء تيمّم في سرعة، عاونتهم منصوره في مد حصير كبير وفردت بطانيتين، تراجع ليقدم غلاب أو أي واحد منهم أكبر منه سنًا لكنهم قدموه هو فرفع يديه بالتكبير والقومندان وبقية عسكر الإنجليز يراقبونهم من بعيد حتى إذا ما أنهى صالح صلاة العصر عادوا إلى العمل ومنصورة شديدة الإعجاب بجرأة الشاب الجرجاوي وقدّرت سنه بالسادسة أو الخامسة والعشرين أي أكبر منها بعدة سنوات، مدّ صالح يده مسلماً على غلاب ومنصورة وهو يقول:

- أنا ساكن في الهنجر الأخير يا منصور، بالليل أبقى تعال.

- إن شاء الله.

فاهت بها منصوره في اقتضاب ممزوج بالحرص على إخفاء طريقة حديثها، واستدارت خلف أبيها مغادرة المطرح نحو خلف الجبل البعيد غطست الشمس رويدًا، تأمل غلاب الصناديق الكثيرة المتراسة مختلفة الأحجام، تسرّبت العتمة على البراح فعلت صافرة نوبة نهاية اليوم فأنهى كل منهم عمله المرهق ولملموا عدتهم تاركين إياها في مكانها جوار تلال الأخشاب التي لا حصر لها، تناولوا العشاء وبقي شرب الشاي الذي يحبه غلاب ولا يأتيه النوم إلا بعد الالتذاز بكوب منه.

- أذهب إلى...

في حدة رفع غلاب سبابته أمام وجه منصوره باتراً عبارتها ومحدراً من الابتعاد عن الهنجر أو السهر، يدرك جرأة منصوره وقوتها لكنها فتاة وقد تخطى في كلمة أو حركة ويكتشف

صالح أو غيره أنها بنت وتتغير معاملتهم لها أو يطمع فيها عسكر الإنجليز باستخدامها في سكنهم الخاص وما يمكن أن يحدث هو الأخطر.

- الحيلة أولى يا منصور، احذري الإفراط يا بنتي في معاملتك مع الأعراب فيكتشف سرك ويكون التفريط والندم.

في أذنهما همس غلاب فهومت برأسها أمارة الفهم وعدم التعجل فأغلقت رموشها وقلبها يخفق كلما لاح لها وجه صالح ووقفتها خلفه في الصلاة، صافحها كما سلم على الآخرين، من حين لآخر يلامس كفها خدها ثم تميل به نحو صدرها الذي حبته الطبيعة بضمور أخفى رجرجته، هاتفتها نفسها المحرومة: أليس من حقي؟!

النهار التالي لم يكن كأى يوم مرّ على الجزيرة؛ قسّم القومندان فيلق العمال إلى فرق، نصفهم شحنوا عربات النقل بالصناديق الخشبية الفارغة وركبوا جوارها فتحرّكت بهم حتى غابت عن الكامب بأكمله، وتناقل البعض أنه اتجهوا نحو الشاطئ الآخر من مودروس لإفراغ السفن الراسية هناك، ومجموعة أخرى أمرهم القائد بمواصلة قطع الأشجار القريبة، أما الفرقة الأخيرة التي بقي معها غلاب ومنصورة فقد استأنفوا عملهم في تشذيب ألواح الخشب وصناعة المزيد من الصناديق، ولكن وتيرة العمل كانت أخف من ذي قبل والفرصة متسعة لأن يتعارف العمال على بعضهم فتقربوا من غلاب الأكبر منهم سنًا؛ فعرف عوض المنفلوطي وعبدالمؤمن ومحروس الأسيوطي ونعيم ومحمود الجهيني وميخائيل وحميد وعبدالصمد الفرشوطي وغيرهم وغيرهم من الراضخين تحت سيطرة القومندان الذي يستعمله الإنجليز كنير ثقيل يرزحون تحت وطأة أوامرهم التي لا تنتهي.

بعين ملؤها القلق بحثت منصوره عن صالح فلم تجده وأيقنت أنه رحل نحو مرفأ السفن، فتمت لأول وهلة لو رافقته لترى مناظر أخرى غير ما اعتادت عليه عيناها أو تتعرّف على

فتيات من أهل الجزيرة غير الرجال الذين تعيش وسطهم حتى لو تفاهمت معهن بالإشارة. تكفي وجوههن التي ستذكرها بأنها بنت مثلهن ولكن هيهات، بقيت مع أبيها وشرذمة قليلة من النجارين يزاولون عملهم المعتاد في صمت ومن حين لآخر يغني المنفلوطي عوض: يا مهوّن هوّن يا مهوّن، مرة رفع غصنًا رفيعًا ورقص فترك العمال ما بأيديهم وشفقوا له حتى لفت نظر القومندان فابتسم وتركهم ينقّسون عن أنفسهم مرارة غربتهم.

ليلاً نام الجميع بعد العشاء وظلت عينا منصوره يناوشها الأرق فإنها لا تشعر بالإرهاق بعد العمل القليل في رص الصناديق، بينما الآخرون يستسلمون للنوم كدواء لقطع الوقت حتى بزوغ نهار آخر يتلمسون فيه أخبار زملائهم. وأبوها ليس أفضل حالاً من رفاقه فلمحتته بطرف عينها يغط في نوم عميق وشخيره يعلو، نهضت نحو الكنيف وحين عادت حزمت أمرها وتلفتت فطالعتها بعض الأسرة خاوية من أصحابها ممن اختارهم القومندان للعمل في تفريغ سفينة، انتعلت القبقاب الخشبي المتين وخطت في هدوء خارج الهنجر فتنسمت هواء الليل البارد، تلفتت يمناً ويسرة، البرج البعيد العالي يظهر منه شبها الحارسين ويشهر كل منهما بندقيته للأمام، ضيق ينتابها والغصّة تطبق على صدرها جراء إحساسها أنها مفصولة عن العالم وإذا أضيف الرجال المزروعة وسطهم ومحاذير أبيها بعدم الاختلاط فقد تحالف هذا كله لاستنبات بذور الجرأة لانتشال نفسها من الوحدة، في حذر مشت نحو الهنجر الآخر، بابه مفتوح فزرت عينيها نحو الطرقة الطويلة بين الأسرة الخالية تماماً من العمال، أول سرير هو سرير صالح كما وصفه لها، جلست عليه وفوق الوسادة جوار الجدار الخشبي مصحف صغير خفق قلبها لمرآه، همّت أن تلامسه لكنها تذكرت عاداتها الشهرية التي زارتها هذا الصباح وما ذهبها إلى الكنيف إلا لتضع القماش المطبق في موضع نزول الدم، ابتلعت ريقها وانتابتها رغبة أن تمدد جسدها على سريرها فتستأنس ببقية من رائحة عرقه الفائح على الوسادة القصيرة، أغمضت عينيها، خفق قلبها ورغبة محمومة لا تدري كنهها تجتاحها، مالت بجذعها وما إن اقترب خدها من ملامسة الوسادة حتى انتشرت واقفة أمام القامة المديدة بالبرنيطة العسكرية، سونكي البندقية يكاد يلامس وسطها، في ارتباك يعلو صوت الجندي:

- "هو آريو؟ أوه"، من أنت وماذا تفعل هنا؟

وقفت منصوره مبهوره أمام الإنجليزي الذي سأله بلغته ثم عدل ليفهم الشاب الواقف أمامه سؤاله فتساءلت أمام طوله الفارع، تماكنت نفسها وردت في ثبات:

- أنا منصور غلاب صديق صالح وأتيت لأخذ الكتاب الذي تركه هناك.

- خذه وإلى مكانك يا ولد.

التقطت أصابعها المصحف وسارت مبتعدة عن الباب والجندي يغلقه، أسرع إلى الهنجر عازمة على أن تروي لأبيها مغامرتها فور استيقاظه.

على جنبها الأيمن تمددت وفردت الملاءة، حرّرت رأسها من الشملة ومسحت بكفها على شعرها الذي نما قليلاً، تبسّمت للمصحف بغلافه الجلدي القديم وهو مكون أمامها على المنضدة الخشبية، صدر أبيها يزفر أنفاسًا ثقيلة كأن حجرًا يجثم عليه، التفتت وهزّت رأسها واعدة إياه أن تخبره بفعاليتها ليلة أمس وإلا سيتساءل عن وجود مصحف صالح معها، لكنها لن تخبره أن مغامرتها الليلية ليست الأولى فتماوجت في ذاكرتها تلك الليلة حين نغزتها أنصال الأرق فنهضت ووجدت نفسها سائرة نحو بوابة الهنجر المواربة، تسحّبت خارجة فصدمتها برودة من الرياح، لم تبال وسارت نحو ألواح الأخشاب، أمسكت بمقبض الشاكوش الخشبي وودت لو تشغل ساعات الليل الطويلة بالعمل، خشيت أن يستيقظ أبوها فقررت العودة وحين استدارت لمحت شبّحًا أمام الهنجر الآخر فميزت قعدته، دق قلبها وهي تسير إليه والحرس من بعيد يروحون ويجيئون على ضوء القمر الشحيح وقد أطفأوا المشاعل في الهزيع الأوسط من الليل كعادتهم بعد الاطمئنان على أمن المعسكر، ألقت عليه التحية فرد دون أن يقف، من ماعون صغير سكب القليل من الشاي وقدمه:

- تفضل يا منصور، أخبار عم غلاب؟

- بخير.

- يظهر أنك قلق، على العموم، بقي على الفجر ساعة أو أكثر ونصليه معًا.

- لا، أقصد، أنا غير طاهر والماء قليل و...

ليلتها هوّم برأسه في الظلام وصمت محددًا في لا شيء، في ارتباك نهضت من أمامه مستأذنة في العودة فرأت ابتسامته وهو يسأل:

- يظهر أنك كنت غاليًا على أمك يا منصور لدرجة أنها خافت عليك من الحسد وأنت صغير وخرمت حلمة أذنك.

- كنت وحيدها وما عاش لي إخوة قبلي وقالوا لي، لما ولدت أشاع أبي وجدتي أنه رزق بنت وأسماي منصور.

تبادلًا الضحكات الخفيفة ولوهلة خشيت من تماديها في الحوار مع صالح فأطبقت شفتيها الغليظتين وندمت على مخالفتها أوامر أبيها الصارمة وذكرها اسمها، لكنها سرّت في نفس الوقت لجرأتها وتمنت أن يعرف صالح حقيقتها، ولأنه من بلدتها البعيدة في قلب الصعيد فسيحفظ سرّها، لكنها خشيت أن تتغير معاملته فقررت أن تبعد عن تفكيره أي شك فبادأته:

- رأيك يا صالح لو نتسابق أنا وأنت أو نتصارع، صدقني سأوقعك على الأرض و...

- لا يا عم منصور، لا أقدر على واحد قوي من فرسان بني عيش وإن هزمتك يصعب عليّ غضب عم غلاب.

هذه المرة علت ضحكاتهما وضربت منصور كفها المخشوشن بكف صالح، جلست أمامه وهي تسأل في قلق حقيقي:

- غرضي أرجع بلدنا.

- قدّم المشيئة يا منصور وادع ربك أن تنتهي غربتنا على خير، سمعت أن الإنجليز نوا الهجوم على تركيا نفسها، غرضهم الاستيلاء على اسطنبول.

- بلد السلطان؟

- عليك نور يا منصور، بلد السلطان محمد الخامس بن عبدالمجيد، والغريب أننا هنا لنعاونهم على ضرب بلد الخليفة لكن الخليفة انتهى وانتهت معه دولته.

لم تع الكثير من عبارات صالح الأخيرة، تلفتت في سرعة للأصوات البعيدة فنهضت ثانية واستأذنت في العودة وآخر ما رنت في أذنها تكراره لعبارة: ادع ربك.

زفرت نفسًا ممطوطًا لاجترار حوارها معه تلك الليلة البعيدة، تمت أن يعود ويروي لها ولهم ما فعله هو ورفاقه في الناحية الأخرى من الجزيرة، التفتت إلى مصحفه وهمت أن تربت عليه لكنها أحجمت في آخر لحظة وغطت رأسها اتقاء البعوض وطنينه حول أذنها، تقاربت رموشها ولا تدري متى نامت.

عَضُّ غلاب شفته غضبًا ومنصورة مائلة أمامه كمتهم اعترف بذنبه، انكتم الحنق بصدرة وهز رأسه في يأس ودار في خاطره ما يمكن أن يحدث لو اشتبكت مع أحد عسكر الإنجليز أو واحد من العمال الغرباء الذين لا يعرفهم ويفتضح سرها فكيف سيكون موقفه وكيف تعيش في الكامب، فوجئت به يرفع يده وتهوي كفه بصفعة على خدها فأطلقت صرخة مكتومة دفعت واحدًا من الإنجليز أن يخطو نحوهم ويسأل بكلمات متكسرة:

- لماذا تضربه؟

- آه، أمرته أن يجمع المسامير المتناثرة حول الأخشاب ولم يفعل.

- "جود"، اسمع كلام "يور فاذر" يا ولد؛ فهو مخلص في هدمتنا.

- مخلص في هدمتنا! اسمها خدمتنا يا شؤم، إلهي تنطبق نار جهنم على هدمتكم..

تمتم بها غلاب بعد أن غادرهما الإنجليزي فأطرقت منصورة رأسها، قعدت وظهرها تسنده الأخشاب وطفقت تمسح دموعها، تلفت وأقعى أمامها ولا يزال حاجباه متقاربين، من بين شفتيها المرتعشتين تناثرت كلمات الاعتذار، أدرك أن ابنته غلبتها عاطفة الأنثى وأنها مالت

بقلبها نحو صالح، لكنهم في أرض غريبة وهو يضمن الشاب ويعرف أنه سيكون أحرص عليها منه إن عرف حقيقتها لكنه لا يضمن أي إنسان آخر سواء من المصريين أو الإنجليز أو غيرهم من جنود غرباء كثرت أعدادهم وسمع أنهم أخلاط من عسكر الفرنسيين وغيرهم من بلاد أخرى، فتنهد في عمق ومد يده مربيًا على كتفها فهزّت رأسها ومالت فقبلت يده في اعتذار أخير ووعد صامت بالأ تفعلها ثانية فباغتها مروحًا عن نفسها:

- على العموم، جميل أنك أحضرت المصحف، فرصة نقرأ فيه.

نهض إلى عمله فمطت شفيتها وفي داخلها أصوات خشيت أن يسمعها حتى لو لم تنطق بها:

- آه، لو عرفت يا أبي أنني ترددت عليه أكثر من مرة.

نهضت ولا تدري حقيقة الأسوار التي تشابكت حول نفسها كخيوط العنكبوت، عصرت مخاوف أبيها روحها وتكسر ودها لصالح بين شقي رحي قساوة الوضع الذي تعيشه، فتداعت أي رغبة لديها وانزرت صخور من جفاء لأي شيء، بزغ وجه الحارس الإنجليزي الذي وقف قبالتها ليلة أمس وعادت تفكر لو أنه ضربها فكيف كانت تفعل، رأت أن أباه له الحق كل الحق في عقابها، فاستحال جفاؤها إلى سكين حادة تبتتر بها أي علاقة برفاق غربتهم لحين العودة.

انشغل العمال بمهام خفيفة حتى حانت ساعة الغداء، ففوجئ الجميع بزملائهم يقبلون أفواجًا تلو أفواج فهض العمال والحرفيون لاستقبالهم مهنيين عودتهم، دارت عينا غلاب بحثًا عن صالح حتى رآه من بعيد أمام الهنجر فاتبعت خطواته نحوه تتبعه منصور، ما إن وقفا أمامه حتى جاهد لينهض لكن غلاب ربت على كتفه وأراحه بنفسه على سريره:

- حمدًا لله على سلامتك يا صالح، غيبتك طالت يا ولدي.

- نحمده يا عم غلاب، أخبارك يا منصور؟

- بخير، أحضر لك الطعام.

- لا، أريد الراحة لكن، أبشر يا عم غلاب، مراكب الإنجليز الحربية غرقت قرب ساحل تركيا، أغرقها جيش السلطان.

بصوت هامس فاه بها صالح وهو يتلفت لئلا يسمعه أحد من عسكر الإنجليز الذين يعرفون العربية فحدّق غلاب فيه وهو يكاد لا يفهم، لكنه لحظ تراكم التعب والإرهاق على قسّمات الشاب ورائحة عرقه الفجة فهز رأسه ونهض قابضًا على معصم منصوره:

- سنأتي لنطمئن عليك بعد أن تستريح.

الأسابيع التالية ازداد الطلب لبناء الغرف الكبيرة، لا يهم كيف يكون شكلها فما إن ينتهي البناء من تشييد الجدران بارتفاع ثلاثة أمتار حتى يهب النجارون في عمل الأسقف الخشبية بفتحات للمدخنة، فعمل غلاب ومنصورة في ذلك اليوم قرابة أربع عشرة ساعة متواصلة حتى وقع غلاب من فرط الإجهاد، وعاون صالح منصوره في نقله إلى الهنجر ولم يكن غيره الذي ينهار من شدة الإرهاق، فأصدر القومندان صادق أوامره بالعمل اثنتي عشرة ساعة فقط لكل فريق من فرق العمال بعد أن قسمهم لمجموعتين يتخلل العمل ساعة للراحة وتناول الطعام، حتى بدا الكامب كغابة من الغرف الكبيرة على امتداد البصر، ولا يدري أحد أهي مخازن للسلاح أم الميرة القادمة من أوروبا وبلاد الشرق لتزويد الجيش الإنجليزي الذي سمعوا جميعًا أنه يحارب في أكثر من جبهة.

أمر القائد العام للكامب بتكديس العمال في الهنجر الكبير، فألصق غلاب سرير صالح جواره وبنام هو بينه وبين منصوره التي ازداد قلقها، مما تسمع من أنباء الحرب ولا يدري أي من بالكامب الكبير لم كل هذه الاستعدادات، حتى كان اليوم الذي رست فيه سفينة في مرفأ الجزيرة البعيد فانقلب القائد صائحًا وهو في عربة صغيرة بأن يسرع الجميع نحو الميناء،

تهيأ كل العمال لحمل صناديق الذخيرة والأسلحة حتى أن غلاب ندم على أنه قضى الشهور
الفائتة في صنعها لكنهم رأوا ما لم يخطر على بالهم، مدت السقالات الخشبية العريضة من
جسر الميناء إلى السفينة الرابضة أمامه وتهيأ العمال لولوجها لكنهم رأوا آخرين يخرجون
من بطن السفينة حاملين نقالات عليها جنود جرحى، اتسعت عينا غلاب وفغر فاه لهول
المفاجأة وأدرك أن كل الهناجر التي قاموا ببنائها ما هي إلا ملاجئ لجرحى الإنجليز
وأحلافهم، أفاقه صوت القائد يحادثهم بالعربية:

- هيا، ليحمل كل اثنين منكم أحد الجرحى إلى الكامب.

-7-

انقضى الأسبوع وغلاب حريص على ألا يفترق عن منصوره وصالح لحظة واحدة أثناء نقل الجرحى الذين يتلاغظون بلغات عدة، ولا سيما بعد أن وفد الكثير من الأطباء الغرباء والجراحين، وكانت المهمة الرئيسة للعمال هي نقل المصابين الذين فاقوا المئات وبعد أن خفت حدة السفن المشحونة بغيرهم تحوّلت فرقة من العمال إلى مسعفين يتلقون أوامر تجهيز الكمادات الباردة ووضعها على رءوس المحمومين وأتقنت منصوره إعداد الحقن المعقمة بعد غليها بالماء وتجفيفها، وغلاب وصالح يستصلحان الأخشاب والعيدان التي يستخدمها الأطباء كجباير ويعاونانهم في تطبيب الجرحى.

في غمرة انشغالها زرت عينيها ودق قلبها حين لمحت بطرف عينها أكثر من عشر ما بين سيدات وفتيات يقمن في الهنجر المقابل بتجهيز الأقطان النظيفة البيضاء والأضمد، وأكبرهن تصدر الأوامر فتحمل كل ممرضة صندوق الإسعافات إلى أحد العنابر.

ما إن أشار قائد الجنود الإنجليز لغلاب المستريح على الأرض من فرط الإجهاد حتى نهضت منصوره بدلاً منه وتسارعت خطوات صالح خلفها وعوض المنفلوطي يتبعهم؛ فتعاونوا على حمل جندي سمين من أسفل إبطيه وهو يرطن بلغة غريبة، أراحه صالح على السرير أمام باب الهنجر، التفتت منصوره في حدة للصوت الأثوي خلفها يخاطبهم بلهجة متكسرة أقرب إلى الشامية:

- اتركوه، جرح غائر يسبب له سخونة.

دق قلب منصوره وأطالت النظر للفتاة المنهمكة في تنظيف الشق المتسع من جراء إصابة شظية كما خفّت، لكن الجندي المصاب يتكلم في سرعة ووجهه ينضح بغضب عارم والممرضة تهز رأسها ثم التفتت إليهم:

- يقول إنه أصيب بضربة سيف من مقاتل تركي.

- من فضلك يا أخت، ممكن تستفسرين عما يحدث.

- دون أن أسأل أعلم ما يحدث هناك قرب جناق قلعة ساواشي*.

لأنها اعتادت سماع أسماء الأماكن الغربية منذ قدومها فهزّت منصوراً رأسها أمانة الفهم، وظلّت تشارك صالح وعوض الصمت مما شجّع الممرضة على استئناف كلامها بصوت خفيض:

- هناك قرب البحر الداخل يتحارب جند الإنجليز ومن معهم من الفرنسيين وجند أستراليا مع جيش السلطان.

فاهت بها الممرضة وهي مشغولة في تنظيف الشق بأعلى كتف الجندي الأيسر وزميلتها تقدّم لها الأضمة فتلف

* معركة جناق قلعة ساواشي: هي معركة جاليبولي أو مضيق الدردنيل، كانت بين الإنجليز وحلفائهم ضد تركيا وانتهت بهزيمة الحلفاء بعد أن خسر الجانبان الآلاف من الجنود.

الشريط حول موطن الإصابة، انتظر صالح أن توضح أكثر فعاونها على إراحة الجندي على ظهره حتى تكمل ففوجئ بمنصورة تقول:

- يفضل أن يستريح على اليمين حتى لا يحتك الجرح بحافة السرير.

- رأي حكيم من عقل راجح، جميل ولد.

عاونهم الشاب على إراحة نفسه فانفصلت الممرضة الأخرى بعيدًا في حين طلبت المتحدثة منهم الماء لتغسل يديها، أسرع عوض بإحضار قصعة كبيرة من الفخار فدعت الممرضة أصابعها ونشفت يديها، جرّت كرسيًا خشبيًا بعيدًا عن تأوهات جرحى الهنجر، رافقها صالح خلفه منصور حتى جلست والتفتت إليهم:

- مصريون؟

- أنا عوض يا حلوة.

- هذا منصور وأنا صالح، مصريون من الجنوب وأنت؟

- اسمي مقبولة بنت سيشكين، أبي تاجر من إزمير لكني ولدت في حلب وأمضيت حياتي كلها هناك إلى أن مات أبي.

- تركية وتخفين آلام جنود الجيش الذي يحارب بلادك؟

باغتها صالح بسؤاله المصبوغ بنبرة لائمة لكن مقبولة ابتسمت في لامبالاة والتفتت إليه وهي تؤكد:

- عملت في مستشفى تابع لإرسالية الرهبان الفرنسيين في حلب، ومنذ أسابيع اصطحبنا الطبيب المباشر لنا إلى اللاذقية وأفهمنا أننا سنقوم بعمل إنساني.

- العمل الإنساني الذي تقومين به أنت ورفيقاتك هو مداواة جنود الدول التي تهاجم وتقتل أهلك.

- مصيب يا صالح لكني سورية حلبية ولا أذكر من إزمير التي منها أبي شيئاً سوى حكاياته عن أيام شبابه هناك.

- جميل أختي مقبولة، أخبرينا عن القتال هناك في قلعة ساو.. ساو..

فاهت بها منصوره وهي تبتلع ريقها في عجاله وعلى أحرّ من الجمر لمعرفة أخبار الحرب التي يقودها السلطان ضد الإنجليز الذين قتلوا جدّها كما كان يُروى لها أكثر من مرة، التفتت مقبولة وهي تقول:

- قلعة ساواشي يا منصور والإنجليز يطلقون عليها الآن معارك المضيق.

- المضيق؟

- المضيق هو ممر من الماء بين أرضين متقاربتين.

هوّمت منصوره برأسها لتؤكد فهمها وأشارت لمقبولة لأن تكمل روايتها عن الحرب هناك:

- منذ شهر أو وقع الجيش التركي سفن الإنجليز الحربية في كمائن وأغرقها في البحر والآن مراكبهم تنزل عساكرهم هناك لكن جنودنا يتصيدونهم من أعلى الجبال وأوقعوا بهم مقتلة عظيمة.

أشرقت قسّمات وجه صالح واتسعت ابتسامه منصوره للأخبار التي أثلجت صدرها وهي متأكدة أنها ستسعد أباه حين ترويها له، أما عوض فلن يرمش له جفن ولا يريد أن يضيّع دقيقة دون أن يحدّق في سيدة لم ير مثلها منذ شهر، انتهز صالح الفرصة وبطريقته الجريئة عاود سؤالها:

- ومن قادة جيش السلطان العظيم؟

- وأنا في حلب سمعت أنهم أكثر من قائد منهم أنور باشا زعيم حزب تركيا الفتاة
ومصطفى كمال باشا ومحمد أسعد باشا وإسماعيل جودت باشا و...

- يا باشا يا باشا..

- ما أحلى رمانك يا باشا.

قاطعتها منصوره بدلال وعوض بمشاكسته المعهودة فالتفت صالح إليهما ورفع سبابته
أمامهما غاضبًا من طريقتهما في المداعبة:

- اسكت يا منصور أنت وعوض، معذرة يا مقبولة فمنصور ولد مهذار ولكن ليس وقته الآن.

- لا عليك يا صالح، فأعلم أنكم تحبون المزاح حتى في أخرج المواقف والأمكنة، لكنك قلت
لي أنكم من مصر؟

- نعم، من قرى بلد اسمها جرجا في الجنوب.

- وأنا من منفلوط بأسيوط، آه لو أهديك الرمان المنفلوطي.

- قرب النيل؟

- غرب النيل يا مقبولة، آه لو ترين النيل وتشربين ماءه، يا رب نعود سالمين لبلدنا.

- إن شاء الله يا صالح أنت وكل من معك ولكن قل لي: لماذا أنتم هنا؟

لأول مرة يحملق صالح في وجه مقبولة ببشرته المشربة بحمرة والنمش ينتثر على
وجنتيها، انعقد لسانه فعجز عن الرد فوجدتها منصوره فرصة لتبادل الكلام مع فتاة مثلها

حتى لو كانت تتخفى في ملابس الشباب وتقلد أفعالهم، فانتصبت قامتها وفردت كفها أمام
المرضة:

- كما قالوا لك يا مقبولة أنك ستمارسين مهمة مقدسة وهي إسعاف جرحى الحرب
اصطحبنا القومندان والقائد الإنجليزي من بورسعيد إلى هنا للعمل في بناء الكامب وكل
البنائيات.

- وماذا تفعل يا منصور، بناء؟

- لا، أعمل نجارًا مع أبي النائم هناك في الخيمة المقابلة لورشة الأخشاب، ومنذ قدوم
جرحى معارك المضيق كما قلتِ فإننا نعمل أي شيء في أي شيء، ننفذ كل ما يُطلب منا
ولأوفر عليكِ العجب، نساعد الإنجليز المحتلين بلدنا مصر ولكن ما باليد حيلة ولا نقدر
على الاعتراض في جزيرة بعيدة عن الوطن، وكل ما أرجوه من الله أن نعود لبلدنا.

تراجع صالح قليلًا واتسعت عيناه دهشة حين رأى منصوره تفرد كفها على كتف الممرضة
التركية وتهزها برفق، فأدركت منصوره أنها نسيت نفسها وتعاملت مع الممرضة على أنها
فتاة مثلها فخفضت ذراعها في سرعة وقبل أن تهم بالاعتذار علا صوت القائد من بعيد:

- "نيرس".

انتشرت مقبولة واقفة، ركنت كوب الشاي وأسرعت نحو باب العنبر البعيد، تناول عوض
الكوب الدافئ وطفق يشرب بصوت مسموع، يرفع حاجبه وهو يضحك:

- حتى أجري وراءها، آه لو تقبل مهري لها، ألفا، ألفي قفص من الرمان.

ابتسمت منصوره وهز صالح رأسه لجرأة الشباب، استدارت منصوره عائدة لأبيها وصالح
يجاورها ودون أن يلتفت إليها قال معاتبًا:

- معقول تحط كفك على كتف الممرضة الغربية يا منصور، ممكن تقع في مشكلة كبيرة بسبب تهورك وهذارك يا ولد.

- آسف يا صالح، نسيت نفسي وانفعلت.

هزّ صالح رأسه في أسى ومط شفتيه، ومن حين لآخر تلتفت إليه منصور وداخلها خوف من أن يخبر أباها غلطتها مع الممرضة ودهشت في قرارة نفسها أنها تخلت عن حذرها ونسيت نفسها من طول تقمصها دور ولد كما أراد أبوها حتى تنكشف الغمة، حين دلفت الخيمة وراء صالح كان غلاب مفترشًا البطانية السوداء المفرودة على الأرض والحنق بادٍ على قسماات وجهه الجهمة:

- الكلاب، يطردوننا من الهنجر ونبيت هنا في الخيمة.

- وفروا العنابر لجنودهم الجرحى يا عم غلاب.

- نبني لهم عنابر تلم رممهم ويطردونا منها!

ما كاد يتم غلاب كلمته حتى علا صوت أحد الجنود من بعيد بأن أحد المصابين مات فأيقنوا أن عملاً آخر سيقومون به غير مهتهم التي يعملون بها، وهو البدء في حفر قبور للموتى في تلك الجزيرة.

استيقظت منصوره فدارت بعينيها تمسح البراح الفسيح من ناحية الغرب، أسفت لغابة الصلبان المنتصبه وأسنة المقابر تبدو موحشة، أمام كل صليب خشبي لوح حجري كتب عليه اسم الجندي القابع في قبره وتاريخ موته وجنسيته، العنابر أخلاها المصابون إصابات خفيفة بعد أن تماثلوا للشفاء، وعادوا أدراجهم يقاتلون في معركة جالبيولي التي استطال أمدها والأخبار لا تتوقف عن هزائم منيت بها أجناد فرنسا وبريطانيا وحلفائهم، جالت بنظراتها حول مراقد بقية الجرحى، هدأ تدمرهم واستسلم بقيتهم لحالته إلى أن يشفى فيُصرّح له بترك العنبر إلى مواقع أخرى، لا تدري لِمَ توقفت نظراتها على الجندي المتكئ بكوعه على الوسادة، منذ أن جيء به وهو صامت ولا عمل له بعد أن أفاق غير الإمساك بقلم وورقة يكتب فيها، لم تهتم منصوره بحالته التي رأتها أفضل من غيرها وانصرفت.

حين دخلت الخيمة وجدت أباهما يصلي الصبح برغم ارتفاع الشمس قصبتيين، صالح يجفف عرقه الناز ويزفر أنفاسه، يقعد جوار غلاب ويفتح المصحف ويقرأ بصوت هامس، ينهي غلاب صلاته ويرفع كفيه ويدعو بصوت مسموع:

- يا رب، في أول يوم من رمضان تنعم علينا بالعودة لبلدنا سالمين غانمين وتجنّبنا شر الحرب، اللهم انصر جيش السلطان.

تنبهت منصوره أنهم في غرة رمضان وهو يوافق أيام الثلث الأول من يوليو على حساب حسبته الممرضة مقبولة التي اتصفت بالجرأة من طول اختلاطها بالجرحى والعمال المصريين، توجهت منصوره إلى الحمام وتوضأت هي الأخرى للصلاة لكنها شعرت بألم بطنها والدماء ترعف بين فخذيهما في بطء فعادت مرة أخرى إلى الكنيف واغتسلت ثم ثبتت في لباسها قطعة قماش ورفعته في سرعة، تصنّعت الوقوف جوار أبيها في الصف وصالح يؤم العمال، عقب صلاة الظهر أرادت اتقاء الشمس بالمكوث في الخيمة وتتحين

خلو المطرح وتشرب في سرعة دون أن يلحظ أحد، لكن مقبولة التي لم تكف عن مزاوله تمريرها للجرحى الذين قلت أعدادهم تدريجيًا لحظت شحوب وجه منصوره ولمحتها من طرف خفي وهي ترفع قعب الماء، لم تبال بالشاب المفطر في نهار رمضان، وأرجعت ذلك إلى القيظ المفعم بصهد الشمس والعمل المضني الذي يقومون به.

ثلاثة أيام مرت ومنصورة تؤدي دور الصائم دون أن يشك فيها أبوها حتى انقطع الدم وقررت أن تتطهر وتصلي معهم وتصوم إن أمكنها، تسللت نحو الحمام ويدها ماعون مملوء بالماء البارد، أغلقت على نفسها الباب وتخلصت من جلبابها البلدي المعبق برائحة العرق، خلعت السروال الطويل، تأملت جسمها العاري ونهديها المحتسبين اللذين اشتاقا إلى النفور، أهالت على جسمها الماء مستمتعة ببرودته المهدئة لحرارة الجو، لا تدري لِمَ شعرت أن عينين تراقبانها فدارت بنظراتها بين ألواح الحمام الخشبية، ولم تلبث أن نشفت جسمها ومسحت ثدييها في حميمية المشتاقه لهما من طول ضمهما واختبائهما المقصود، لفت عليهما نطاق القماش وربطته جيدًا، ارتدت القميص الداخلي والسروال النظيف، انزرق عودها الرفيع بالجلباب الآخر الذي غسلته في الصباح وتولت شمس يوليو الحارقة تجفيفه بسرعة.

كوتد انغرز في الأرض وقفت أمام مقبولة محمقة في وجهها المبهوت من المفاجأة التي لم تكن تخطر على بالها، انفرجت شفتا الممرضة عن ابتسامة مملوءة بالتساؤل، فابتلعت منصوره ريقها في صعوبة وتحركت بجنبها من أمام الحمام ومقبولة جوارها فتخطيتا أسرة الجرحى الممددين في خضوع حتى خرجتا من العنبر بأكمله، لكونها واحدة من الممرضات فلم يتنبه أحد من الحرس لحرية تنقلها بين العنابر أو محادثة أي عامل، أوقفها مقبولة ونظراتها تقرأ الكثير من ملامح منصوره وتفسر تغير قسماها بعد أن علمت حقيقتها، همّت منصوره أن تقول شيئًا لكن رفيقتها بادأتها:

- إذا لم تكن لديك رغبة في الكلام فلا تشقي على نفسك.

هزّت رأسها في استحياء شعرت به لأول مرة منذ أن وطأت قدمها تلك الجزيرة النائية،
حزمت أمرها وقررت مصارحة الممرضة ما دامت قد كشفت سرها، فانتحت بها جانبًا
وروت لها موقف أبيها غلاب النجار من العمل معه واقتراحه إخفاء كونها بنتًا وورطتهما
حين تحركت بهم السفينة من بورسعيد على غير رغبتهما وخشيته عليها من أولاد الحرام،
ومقبولة تهز رأسها وتتسع ابتسامتها ثم تنكمش حين ذرفت عينا منصوره بالدموع فدارت
الممرضة برأسها وهزتها مرات وهي تقول في نبرة مؤكدة بلهجتها الشامية العذبة:

- أختي منصوره، سرك في بئر ما لها قرار، والله لولا أنك ترتدين جلباب الرجال لضممتك
إلى صدري، اعتبريني أختك.

هدأت نفس منصوره وبكفها مسحت دموعها وأومات مؤكدة موافقتها على طلب مقبولة
التي أردفت:

- يعوزك قطن من أجل الـ...

- لا، الحمد لله، انتهت وأصبحت أصلي.

لم تتبادلا كلمة بعد أن نادى أحد الجنود على مقبولة فافترقتا دون وعد بلقاء آخر، دلفت
منصورة الخيمة فلم تجد أباها أو صالحًا فانتظرتهما لكنها أغفت فلم تشعر بأبيها وهو
يدخل ويسحب على جسمها الغطاء، قبل أن يأتي صالح ويمضون جميعًا وقت الضحى
مسترخين في محاولة لتجنب حرارة الشمس.

في بطاء انقضت أيام الشهر الكريم حتى أقبل الأسبوع الأول من أغسطس متزامنًا مع
العشر الأواخر من رمضان، فازدادت أعداد السفن المقلدة للمصابين وجرحى هجمات
الإنجليز والفرنسيين وانشغلت مقبولة ورفيقاتها في مداواتهم، رافقت منصوره صاحبته

الشامية للعنبر الكبير وتهيأت لأن ترى الجندي الكاتب الذي عرفت أنه فرنسي، لكنها فوجئت بسريره فارغًا ومعطفه ملقى على الحافة، تسارعت خطواتها وأشارت إلى السرير وعيناها تبكان استنفهاً فأخبرتها إحدى الممرضات أنه مات ودفنه زملاؤه بالليل، أسفت منصوراً لموت الفرنسي الصامت وتمنت لو أتيح لها الوقت وحادثته عن طريق مقبولة وعرفت حكايته، طلبت من مقبولة أن تسأل أحد الجنود عنه لكن أحدًا لم يجيبها، لم تبال بالأمر وعادت إلى معاونة الممرضات في إسعاف الجرحى، لاحظ كل العمال علامات الرضا والسرور من خلال أحاديث الإنجليز الزاعقة ومهاتراتهم الكثيرة، ما كادت شمس الخامس والعشرين من رمضان تعلو حتى علت صافرة الكامب فتجمع الجند والعمال في فضول مفرط جاورهم لفيف من الجرحى القادرين على السير، علا صوت القائد بعبارات قصيرة متلاحقة وابتسامة مشرقة ترتسم على وجهه، مقبولة الواقفة جوار منصوره تترجم في سرعة:

- أيا جنود بريطانيا العظمى، إصاباتكم لم تذهب هباء، وإخوانكم الراقدون أسفل الصلبان لم تذهب تضحياتهم بلا مقابل، فقد حقق زملاؤكم الشجعان تحت إمرة القائد هاملتون والجنرال جورو انتصارات عظيمة على الأتراك، وما هو إلا وقت قليل ويصبح مضيق الدردنيل في قبضتنا وستجول جميعًا في شوارع اسطنبول، أنتم من مهّد لهذا النصر، تحية لكم والمجد لبريطانيا وحلفائها.

ما كاد ينهي كلمته حتى علا صخب صياح الجنود وارتفعت أسلحتهم وانطلقت الأعيرة النارية في الهواء، عاد العمال إلى خيامهم وقضوا بقية النهار واجمين، وخصوصًا صالح الذي كان يمني نفسه بانتصار جيوش السلطان على الإنجليز، في قرارة نفسه انبسط غلاب لقرب انتهاء مهمتهم في مودروس وما هي إلا أيام قلائل ويركبون وتبحر بهم إلى بورسعيد أو الإسكندرية، انقضى النهار ومع غروب الشمس أحضر صالح طعام الإفطار، فأزبد الماء بين شذقيه بعد ساعات حارة وأخبار تحالفت مع صهد الشمس فكتمت نفسه وأطبقت على روحه، خرج من الخيمة وفرش البطاطين القديمة كعادته كل يوم، أدن وصلى بلفيف من العمال ثم جلس منتظرًا صلاة العشاء التي لا يحضرها سوى القليل، فكر أن ينشئ مسجدًا

قبل مغادرتهم الجزيرة لكن الإنجليز لن يسمحوا له أن يهدر الأخشاب ومواد البناء في شيء لا يستفيدون منه، وخاصة بعد أن صدرت الأوامر بإنشاء مخزن كبير للأقوات والملابس والمواد التموينية الأخرى فتمت تعبئة جميع العمال والنجارين والبنائين لإنجاز المخزن فانطوت بقية أيام رمضان حتى كانت ذروة العمل يوم العيد لأنه بداية إنشاء سقف المخزن بالخشب فلم يشعر أحد بالعيد وظلوا يتبادلون التهئات وهم في غمرة شقائهم والقائد يتعجلهم للانتهاة بحجة أن سفينة كبيرة تقترب من شاطئ الجزيرة ويجب نقل حمولتها في المخزن.

تم الانتهاة من الهنجر وغلاب مشغول في تثبيت الباب، فقسّم القومندان العمال إلى مجموعتين ورافق الجنود إحداها لحمل المؤن بالعربات إلى المخزن الجديد، لم تكن تلك المهمات بالكثرة التي هوّلها القائد فحين اكتمل نقلها لم تشغل أكثر من نصف المخزن وتسامعوا أن المؤن الأخرى أفرغتها السفن للجنود المقاتلين في جاليبولي.

توالت الأيام وأنباء الحرب جعلت قلب صالح يرقص فرحًا حين أتتهم مقبولة تخبرهم أن جيش السلطان بقيادة باشواته وقواده ردوا العدوان واستبسلوا في الدفاع عن بلدهم وآلاف مؤلفة من القتلى سقطوا من الجانبين، أما الجرحى فينقلون تباعًا إلى مناطق متفرقة فاغتم غلاب وأيقن أن أسابيع بل شهرًا أخرى سيمضونها هنا وفقد العودة في القريب العاجل، أما صالح فقد جعلته هذه الأخبار وغيرها في سعادة لا توصف وأيقن أن اندحار جيش انجلترا وحلفائها وشيك وفيلق العمال المصريين سيعود سالمًا، أما هم فسيرجع المتبقي من جنودهم يجرون أذيال الهزيمة.

خلصة تناولت منصوره بيدها الخشنة من كثرة العمل من مقبولة قطنًا نظيفًا؛ لتستخدمه في ستر حياضها بدلًا من القماش، تخبئ منصوره القطن بين طيات جلبابها البلدي الفضفاض وظلتا تتحاوران في حذر ومقبولة وفيه بوعداها، لكن منصوره أخبرت أباها أن

الممرضة الشامية عرفت سرها ووعدها بالأ تفشييه فكان يرقبهما في توجس ويتعجل يوم مغادرتهم تلك الأرض، التي أمست وأصبحت أيامها مملولة من تكرار العمل.

أحد الصباحات ظلّ العامل حميد يشكو ألم أحشائه وقاء كل ما بجوفه، ناولته مقبولة عقارًا ذا رائحة نفاذة فهدأت حالته لكنه عاد يقاسي الألم الذي وصفه أنه يقطع مصارينه، عوض المنفلوطي غلى له بقية من قشر الرمان، برّده قليلًا وأرغم حميد على احتسائه فشعر العامل النحيل بتحسّن حالته، ساعات واشتد ألم أمعائه أكثر من ذي قبل، مرّ يومان وفاضت روحه فجزع الجميع لرحيله فلم يكن يتخيّل غلاب أو صالح أن واحدًا منهم يمكن أن يدفن في أرض غريبة.

- كفنه ببطانية وادفنه يا غلاب.

قالها القومندان صادق وهو يتصنّع التأثر على العامل الميت، انتظر أن ينفذ غلاب ومن معه الأمر ثم يعودون إلى أعمالهم، فرجع صالح وجهه وقطب حاجبيه وهو يقول في غيظ:

- نغسله وندفنه يا حضرة القومندان.

- لا وقت لحموم الميتين، ادفنه وانه الموقف.

- لا تشغل بالك جناب القومندان، اترك الأمر لي.

استدار القومندان مبتعدًا عن حلقة العمال المحيطين بجثمان حميد، بمعاونة عوض المنفلوطي والحداد عبدالمعين الأزهري وعبدالصمد الفرشوطي وغيرهم من العمال جهزه صالح وصلّى عليه صلاة الجنازة، حملوه إلى الجهة اليمنى من الكامب والقائد الإنجليزي يرقبهم عن بُعد، حين وقفوا حول قبره علا بكاء عوض والكثيرين من رفاق الغربية، انتحبت منصوره في حرقه على الشاب حميد الذي كانت تراه يحمل الكثير من الأحجار ويصلحها لبناء الجدران، بعد ابتعاد العمال قليلًا بقيت منصوره بين صالح وأبيها، دارت بعينيها حتى وجدت حجرًا مسطحًا فثبنته وسط أحجار القبر وبقطعة من حجر أبيض كتبت:

حميد المصري

شوال 1333 من الهجرة - سبتمبر 1915 من الميلاد.

هبت رياح باردة تنذر بحلول الشتاء، فلّف غلاب البطانية حول جسمه كالعباءة التي أهداها له الشيخ محسون إمام مسجد بني عيش بعد أن عاد من الحج، ناول بطانية أخرى لمنصورة وما إن تدثرت بها وأحكمت تغطية كتفيها حتى دخل صالح العنبر الذي انتقلوا إليه هذا الصباح يحمل حزمة من الأخشاب وينشغل في رصها، أشعل النيران، ظلّ ينفخ فارتفع أوار النار، فرد كفيه فطاردت ألسنة اللهب بقايا برودة اليدين، تحدّث وعيناه تلتمعان ببريق الظفر:

- سمعت آخر الأخبار يا عم غلاب؟

ولأنه لم يعتد إلا على سماع أنباء المعارك الدائرة في الناحية الأخرى من البحر المحصورين في إحدى جزره الباردة فلم يلتفت ورفع سلك التنكة المفحومة واضعًا إياها على جانب الأخشاب التي هدأت نيرانها قليلًا فتحوّلت إلى جمار وومضت في ذاكرته أحداث الشهور الفائتة. فقد أشيع أن جيش الأتراك ثبت بعد هزيمته السريعة في جاليبولي وبمرور الأسابيع حوّل هزيمته إلى نصر، وأقبلت المراكب بمزيد من المصابين فنصبوا لهم خيامًا أخرى جوار العنابر القديمة وهناجر المؤن، وبمرور الوقت أيقن كل من بمودروس أن الهزيمة وقعت في صفوف الإنجليز وأحلافهم من الفرنسيين وغيرهم وأنهم يتأهبون إلى الانسحاب، وما لحظه هو ازدياد حدة انفعال القائد ويليام المسئول عن الكامب وسوء معاملته للعمال المصريين ورشقهم بالسباب أينما وجدهم في وجهه وأمر بعدم صرف وجبة الإفطار والعشاء والاكتفاء بالغداء فقط، ولم يستمر هذا سوى يومين وأضرب العمال عن العمل فنصحه أحد قادته أنهم في حال لا يسمح لهم بأي تمرد فتراجع عن قراره ومكث في مقر قيادته لا يراه أحد إلا نادرًا وأصبح تعاملهم مع القومندان صادق الجركسي وقائد آخر للإنجليز.

أسابيع تمر والسفن ترسو أمام السواحل فتحمل الجرحى إلى بلادهم، مما جعل قلب غلاب يستريح لقرب عودتهم إلى بورسعيد وطفق يسأل القومندان وهو يسوّف له حتى خفت حدة العمل بعد إخلاء الهناجر والعنابر من المواد التموينية وأفراد الجيش مع بقاء عدد لا يزيد على الخمسين.

- انسحب جيش الغزاة ياعم غلاب.

استفاق غلاب من دوامة سرحانه المنطبقة على روحه القلقة فهز رأسه في تأفف وهو يقول:

- أشد ما يؤسفني يا صالح أن يمر عيد الأضحى وعجزنا كلنا عن التضحية.

- وها نحن في الأسبوع الثاني من صفر من السنة الجديدة ونفرح بهزيمة الأعداء.

- الأعداء الذين نخدمهم من شهور، وضحينا بعمالنا ودفناهم في بلاد غريبة.

قالتها منصوره وهي تصب الشاي المغلي في الأكواب وتقدّم أحدها لأبيها ويتناول صالح وعض كوبيين آخرين.

- والله يا منصور، ظروفنا أحسن من غيرنا وربنا يهيئ ما فيه الخير ونعود سالمين غانمين إن شاء الله.

- غانمين القلق والغربة.

- خبر آخر يمكن أن يطمئنك يا منصور ويريح بالك يا عم غلاب، الأطباء والمرضات والمسعفون الشاميون وغيرهم جهزوا أنفسهم للمغادرة، يعني الدور علينا إن شاء الله.

- آه يا عم غلاب، كان غرضي أخطب الممرضة مقبولة وأرجع بها إلى مصر وتفرح بالرمان المنفلوطي وأغني لها: "تدحرج واجري يا رمان.. وتعال على حجري يا رمان".

تبادل صالح وغلاب الضحكات لظرف عوض، من أسفل الشملة الكالحة انتصبت أذنا منصور للخبير المباغت الذي ألقاه صالح على مسامعهم وارتسمت علامات القلق على قسما وجهها، انفلت كوب الشاي من بين أصابعها، ها هي الممرضة الوحيدة التي تعرف سرها وتساعدنا سترحل فدارت عينها وعجزت عن منع الدموع التي تفجرت منهما، تخلصت من البطانية ونهضت من فورها خارجة من العنبر، فالتفت صالح إلى غلاب الصامت طوال الوقت واصطبغت لهجته بالمزاح:

- يظهر يا عم غلاب أن منصور مال للممرضة مقبولة، منصور خطفها منك يا تاجر الرمان.

أوماً غلاب برأسه ومط شفتيه، رشف الشاي وهو يمد نظراته نحو ظهر منصور المبتعد قيد خطوات من باب الهنجر، فوقفت هنيهة ثم أفسحت الطريق لمحمود الجهيني وميخائيل السيوطي وعبدالمعين الأزهري فتراهم يقرفصون حول أبيها ورفيقه فيمدون إليهم أكواب الشاي، استدارت مخلفة وراءها تغلاطهم، ظلت تحدق إلى أن ظهر شبح يقترب منها فتبيئت قامة مقبولة الرشيقة وهي تحمل بين يديها كيسًا متوسطًا، في تعثر خطت نحوها وانتترت كلماتها الملهوفة:

- صحيح ما سمعت يا أختي؟

أمسكت مقبولة بمعصم منصور وقادتها خلف العنبر في زاوية متوارية بعيدًا عن أنظار الجنود واطمأنت أنها اختفت عن عيون عساكر برج المراقبة الخشبي البعيد، وقفت قبالة منصور التي تريد أن تتكلم فتذوب الحروف بين شفتيها المرتعشتين:

- تسافرين يا مقبولة؟

- خير لا بد منه يا منصور وربنا يهبيء لكم العودة لبلادكم، المهم، هذا الكيس به قطن ومطهرات وعقاقير للصداع ولفائف نظيفة يمكن تحتاجونها في الأيام المتبقية لكم هنا، هو لك، حافظي عليه واستخدميه كما علمتك عند اللزوم.

تناولت منصورة الكيس المربوط بخيط رفيع فشعرت بثقله وهزّت رأسها في أسف، تارة أخرى لم تستطع منع دموعها من الانهمار فاقتربت منها مقبولة وتلفتت في ارتياب، أحاطتها بذراعيها وضمتهما في قوة، بكفها مسحت خدها المرتعش فقبلتها منصورة في حب لا مثيل له، برفق أبعدتها مقبولة وهي تقول:

- لا وقت لدي يا أجمل مصرية قابلتها، أستودعك.

- أستودعك الله يا أطيب قلب، والله أتمنى لو رحلت معك وبقيت جوارك في أي مكان لكن أبي...

قاطعتها مقبولة وهي تتراجع خطوات وترفع يدها في رشاقة:

- حافظي عليه يا منصورة واحفظي سرك.

قالتها وهي تغمز بعينها، استدارت تاركة منصورة بمفردها خلف العنبر فبقيت قليلاً يحوطها الأسف على رحيل الممرضة التي داوت جرح غربتها الطويلة بعد أن طلبت من القومندان أن تلازمها في عملها قائلة له أمامها:

- الفتى منصور ماهر في تجهيز الأدوات والأضمة، ليعمل معي.

منذ تلك الشهور وهي ترافق الممرضة أينما تكون وتجهز لها أدواتها وتعقمها بالماء المغلي حتى اشتهرت بين العمال المصريين بـ "منصور صبي الممرضة"، ولم يبال غلاب بالنكات التي يطلقها ميخائيل وعض ورفقاء غربته بل ظلّ يجاريهم ويعلل ذلك بأن العمل في التمريض أفضل من قطع الأشجار وصناعة الأسرّة والصناديق وبناء عنابر الجرحى وحفر القبور لمن يموت منهم.

أصوات متفرقة تعيدها إلى واقع ثقيل تجابهه كل يوم برفقة أبيها الذي حذرها أكثر من مرة أن يكتشف أحد أنها فتاة ولا حتى صالح أقرب الأقربين لهم ويكفي الممرضة الغربية،

ها هي تغادر الليلة فيبقى سرها مخفيًا، اعتراها خوف لا تدري سببه فخطت نحو العنبر، دخلت وأغلقت خلفها الباب اتقاء البرد، لحظت مغادرة ميخائيل والجهيني والأزهري جلسة أبيها، برفق ركنت الكيس القماشي السميك على إحدى المناضد فالتفت أبوها الجالس بمفرده أمام الجمار الصافية:

- صحيح أن فرقة المسعفين ترحل؟

- مقبولة ودعتني وأعطتني كيسا به أدوية و... أين صالح؟

لم تكذ تكمل كلمتها حتى دخل صالح وبدوره أغلق الباب وهو ينشف شعر رأسه من الماء البارد:

- كنت سخنت الماء يا ولدي.

- لا وقت لتسخين الماء يا عم غلاب والحمد لله ما في عساكر تزاحمنا في الحمامات والماء وفير.

لحظت منصوره ابتسامة عوض وغمز بعينه لها، استغل انشغال غلاب بالحوار مع صالح ومال نحوها:

- آه عليك يا منصور يا شقي، قدرت تعمل ما عجزت عنه، شفتك مع الممرضة يا ابن المحظوظة.

- عيب يا عوض، واحذر أن...

- ماشي يا عم منصور، سرّك محفوظ يا حبيب وكله بثوابه.

تبسّمت منصوره لعوض المراقب لها ورضيت لعدم كشفه حقيقتها للآن، صالح يسعل وهو يلف البطانية حول جسمه ويتمدّد على السرير ويضع ساعده على عينيه، أحاط غلاب

النيران بأحجار كبيرة ونهض، استلقى على سريره وتغطى مستدفئاً وبقيت منصورة أمام الجمار المتوهجة تفرد كفيها وتتأرجح نظراتها بين باب العنبر وكيس مقبولة وتود لو تنهض من فورها وتفتح الباب وتطير نحو السفينة التي أعلنت صافرتها مغادرة مودروس إلى غير عودة وبقي فيلق العمال المصريين ينتظر دوره في الرحيل.

أتت رياح الشتاء القارسة البرودة بما لا تشتهيهِ آمال وتوقعات العمال المنتظرين عودتهم؛ رست السفن ونزل منها الجنود المنسحبون من معركة الدردنيل كما يطلقون عليها، تزاحموا في المطرح وسحناتهم موسومة بآثار الموت الذي واجهوه فكبسوا على الهناجر الكبيرة يبغون الراحة، والشاطر الغالب من يحصل على سرير، وحين اقترب قائدهم حوله لفيق الجنود من أحد عنابر المصريين اعترضه القومندان صادق فزعق القائد سميث في وجهه وأمره بإخلاء العنبر لعساكرهم فعجز القومندان عن منعه، مع هياج العمال خرج غلاب يتبعه صالح ومنصورة ليحولوا دون مصادمات بين العمال العزل والإنجليز الذي شهروا أسلحتهم واستعدوا لإطلاق الرصاص.

- البرودة شديدة ويستحيل عودة العمال للخيام يا سيادة القومندان، اترك لنا فرصة ندبر لنا عنبرين للنوم.

صاح غلاب فترجم القومندان جملته، زاغت عينا القائد الإنجليزي بين العمال الذين هدأوا قليلاً وعرف أنهم سيخلون العنابر ويتكدسون في غيرها.

- هيا، لنخلي العنبرين الضيقين هناك من الأسرة ونفرش الأرض فيمكننا التجمع فيهما.

- لكن الأرض الرطبة تأكل أجسامنا.

- لن ننام على الأرض، نضع ألواح الخشب وعليها المراتب والبساطين.

برقت عينا القومندان للفكرة التي لم تخطر على باله ونقل رأي غلاب للقائد فهز رأسه وهو يتعجلهم في ضجر بصوته الجهوري:

- "كويكلي".

- بسرعة يا غلاب.

قالها القومندان فحدجه غلاب بعين مغرورقة بالعتاب لقلة حيلته وانصياعه لأوامر الإنجليز، فلم يكلف نفسه بمحاولة إقناع ويليام أو قائده الكبير سميث بظروف العمال المهينة فأصدر أمره بإخلاء العنابر الكبيرة وكأنه واحد من قواد الإنجليز بالجزيرة، علت همّة العمال ففكوا أسرتهم ورسوا الأخشاب والألواح على الأرض، فرشوا عليها المراتب الزهمة والبطاطين المرقعة وتكدسوا داخل عنبرين وتركوا بقية الهناجر والعنابر الكبيرة لجند الإنجليز والفرنسيين وغيرهم من الأستراليين والنيوزلنديين.

- إلى متى يا حضرة القومندان؟

ألقى صالح سؤاله على مسامع القومندان صادق الواقف على مسافة بين عنبري العمال وثكنات الإنجليز فالتفت إليه وهو يقرن حاجبيه في غضب ولا تزال قبضته ممسكة بالكرباج ويضرب به ساقه في هدوء:

- إلى أن يُعاد توزيعهم في جبهاتٍ ومواقعٍ أخرى.

- لكن حربهم مع الأتراك انتهت بهزيمتهم وانتصار جيش السلطان محمد بن عبدالمجيد.

- وحربهم مع الألمان وامبراطورية النمسا لم تنته، ثم إنك تردد من يوم وصولنا هنا: جيش السلطان، جيش السلطان، والسلطان لا حول له ولا قوة، يكون في علمك يا أخ صالح معركتهم هذه المرة لم تكن مع السلطان محمد.

- مع من إذن؟

- مع قواد الجيش الكبار: الباشوات، أنور باشا ومصطفى كمال ومحمد أسعد وإسماعيل جودت و...

- أعرف، وعلى حد علمي كلهم قواد السلطان.

- انتهى السلطان يا صالح والباشوات هم حكام تركيا الحقيقيون.

- ونحن وبقية الشعو....

- لنا الله، علينا أن نحرر أنفسنا بأنفسنا.

بكلماته الأخيرة بتر القومندان عبارة صالح الذي بلغ الحنق ذروته واستحال إلى غصة تكاد تخنق روحه فلحق بالقومندان وهو يبتعد قيد خطوات فيحادثه:

- كلنا هنا نبني لهم السكن ونحفر لهم الآبار وسمعت أن غيرنا في بلاد أخرى يمد لهم خطوط السكك الحديدية ويمهد لهم الجسور و...

- ونخدمهم في كل صغيرة وكبيرة، أليس كذلك؟ حتى نطالب برحيلهم بعد النصر.

- اللهم اجعل كيدهم في نحركم يا رب.

ابتسم القومندان وهز رأسه، خطأ نحو مخزن التعيينات ليحادث القائد في أمر جراية العمال اليومية وهو يهين نفسه لمشادة كلامية بعد أن عرف أنهم سيوفرون المؤن للجند وما يتبقى سيوزع على العمال المصريين.

منذ أيام لم تصرف جراية الإفطار حتى اعتاد العمال على ذلك فلفتهم غمامة من كسل جعلتهم يتأخرون في الاستيقاظ، وزاد بعضهم على ذلك بأن ينهضوا من نومهم عندما يطلق بوق الغداء صوته فيتأخر العمال حتى ينتهي الجنود من تناول أنصبتهم وبعدها يقف غلاب بجوار القومندان لتقدير ما تبقى من طعام ويوزعونه على العمال بالقدر غير الكافي لإشباع أحدهم إشباعاً كاملاً، ويمضون بقية النهار حالمين بركوبهم البحر وأوبتتهم التي وعدهم بها القائد.

ليلة حادث القومندان غلاب في سرية فعاد إلى العنبر كسير الفؤاد، على ضوء المشاعل
وقف هازأ رأسه ثم رفعها وتبعثرت كلماته في أسى:

- لا نخرج الليلة للعشاء.

- ننام على لحم بطننا يا عم غلاب.

- أخبرني القومندان أنها أوامر القائد.

- يا عالم، رغيغ الغداء لا يكفيني، نُحرم من العشاء.

زعق بها الشاب ميخائيل وخطا خارجاً من العنبر فمنعه غلاب وهو يحيطه بذراعيه مهدأً
من ثورته.

- اهدأ يا ميخا، مراكب التموين لم تأتِ وسمع القومندان أن الألمان أغرقوا سفينة كبيرة في
البحر.

- لا يخلصنا في شيء يا عم غلاب، المهم نأكل، نتعشى يا خلق، نخرج ونحصل على أكلنا
ولو منعنا أحد والعذراء مريم أجرش رأسه بين المطرقة والسندان.

- لا تطحن ولا تجرش يا ميخا و...

- غلاب الجرجاوي، يا غلاب.

قطع نداء القومندان حوار غلاب مع العمال الحانقين فاستدار خارجاً من العنبر لكن
ميخائيل وصالح وغيرهما فتحوا الباب على مصراعيه والتفوا حول القومندان:

- وزعت على عمال العنبر الأول نصف رغيغ لكل واحد وقطعة جبن، تعال أنت وأربعة أو
خمسة لاستلام حصتكم ووزعها بمعرفتك.

سار غلاب خلفه ميخا ومنصورة وصالح وعوض، آخر المخزن تتراص أكياس متوسطة فسأل رحيم النوبي عنها، أخبره القومندان أنها مخزون الدقيق، على بطانية عفنة بقية أنصاف وكسرات من الخبز فمسحت عينا منصوره البطانية المفروشة.

- بقية أكلهم.

- احمل يا منصور الخبز وأنت أمسك صندوق الجبن.

- يعني يا رب، كنت صاحب محل حدادة في بلدي أسيوط وهنا أقتات من "رابش" *
الإنجليز.

- ليست زبالة يا ولد، خبز وجبن وما دام قلتها يبقى

* رابش: قمامة.

تحضر معي لتفرغ أكياس القمامة خارج الكامب.

عاد غلاب يرفع بينه وبين صالح الصامت طوال الوقت بطانية الخبز الشحيح، ومنصورة
تركن صندوق الإدام على كتفها، فتناوله رحيم بين يديه، دخلوا العنبر وعيون العمال
الجائعة تتلهف، هزّ غلاب رأسه في أسى فالخبز يكاد لا يكفي ثلاثة أرباع البطون الضامرة
من قلة الزاد، لكنه قرر أن يوزعها عليهم حتى لو لم ينل هو كسرة منها، فدار بين العمال
المستلقين على الأرض يعطي كلا منهم نصيبه القليل حتى وصل لنعيم النائم جوار الجدار
فرفع غلاب الكسرة المتبقية ليعطيها له لصالح، هز نعيم ففتح الشاب عينيه وفاحت من
فمه رائحة الصيام المجبور عليه، ناوله صالح ثلث الرغيف وفتافيت الجبن المتبقية فأكل
وعاد إلى الاستلقاء.

- شيخ غلاب، ممكن أعرض عليك فكرة تووّر لنا الدوكة*؟

- الدوكة؟!

- أقصد الخبز يا عم غلاب.

- قل يا رحيم.

- نقنع القومندان صادق أن يصرف لنا الدقيق وأنا وهزّاع نعجنه ونصنع لكم الدوكة وهو
خبز يمكن إنضاجه على صاج من الحديد.

* الدوكة: خبز يصنع على صاج من الصلب.

- ربنا يجازيك بالخير يا رحيم، تعال معي.

رافقه غلاب إلى القومندان وعرض عليه رأي الشاب النوبي الطيب فصفعه صادق الجركسي برده المخزي أن الميجور ويليام قد لا يوافق، تركه غلاب وهو يأسف للقومندان المصري المفترض أنهم ملزمون منه.

- نعرض الفكرة على الميجور نفسه أو لنقل نعرضها على القائد سميث؛ لأنه أطيع من الملعون ويليام.

فوجئ غلاب بعبدالمعين الأزهري يقف جوار هزّاع النوبي، هزّ غلاب رأسه يائسًا وقد قرر ألا يطلب من أحد شيئًا وينتظر ما تفصح عنه ظروفهم القاسية، لكن تلك الساعة لم تخل من المفاجآت فاعترض طريقهم القائد سميث بوجهه الأحمر المنتفخ:

- كيف حالك يا قلاب؟

- غلاب حضرة القائد ونحن بخير ونتمنى رجوعنا لبلادنا.

- فيه واحد سفينة تحضر عن قريب ونرحل كلنا.

- بشرك الله بالخير حضرة القائد سميث وعم غلاب كان غرضه يعرض على جنابك فكرة؛ تنقذنا من قلة الخبز.

غامر عبدالمعين بعبارته فالتفت القائد سميث وعيناه تستفهمان عن الفكرة فتشجع غلاب وعرضها:

- تعرف حضرة القومندان...

- أنا ما قومندان شيخ قلاب، أنا الكولونيل سميث.

- تعرف حضرة الكولونيل سميث أن الخبز قليل فعرض رحيم وهزاع أن يُصرف لنا أكياس من الدقيق ونتكفل بعمل أرغفة للعمال.

- يصرف لكم يا كبير العمال والآن وعلى الفور.

لم يصدّق غلاب نفسه حين وافق قائد الإنجليز في سرعة على أن يعطيهم الدقيق، فخطا نحو المخزن البعيد وأمر الحرس بفتحه، أشار إلى الأكياس المرصوفة على ألواح من الخشب والأرض الرطبة قد بللت أسفلها، حمل النوبيان وعبدالمعين الأكياس الثقيلة وغادروا المخزن وغلاب يبتسم في فرح فهز القائد سميث رأسه وهو يشعل غليونه ويشير إليه أن يتبع رفاقه، في سرعة أتى ميخائيل بصاجة من الصلب الرقيق وغسلها جيدًا، عجن هزاع الدقيق وأشعل عوض النيران، ظل رحيم يكوّر العجين اللدن ويضغطه بين يديه، برفق يضع الأقراص على الصاج الساخن ويتركه لينضج، خبز النوبيان كمية الدقيق كلها، وما بقي في قعر الماعون صنع منه عوض المنفلوطي عروسة صغيرة تفرد يديها ورجليها ووضعها على الحديد الساخن فانتفخت قليلاً ومنصورة تبتسم من عوض الذي رفع عروسته أمامه وهو يعرض شفتيه، قبلها في شوق والتفت إلى عبدالصمد الفرشوطي:

- تشبه أمك يا عبدالصمد.

قهقه عبدالصمد ملء فكيه وبرزت أسنانه المتباعدة، تبادل المحيطون بهما الضحكات والتعليقات، ربّت غلاب على كتف الشاب الفرشوطي الطيب الذي يعمل طوال الوقت صامتًا ولا يغضب لهذار عوض وحين يتبادل معه العبارات يثأئى عبدالصمد ويسيل اللعاب من فمه فيقلد عوض لعثمته وهو يغني ويدور حول جلابه الفضفاض:

“نفسى أزورك يا نبي*“

في بلادك البعيدة

فيها أحمد وحميدة

حميدة ولدت ولد

كان اسمه عبدالصمد".

يبتهج رفاق الغربة لهذار عوض، وعبدالصمد يخرج علبة التبغ من الصدر الداخلي ويلف
سيجارته ويدخن في هدوء، وزّع غلاب وعبدالمعين خبز الدوكة على العمال فذاقت
بطونهم الشبع بعد طول الجوع، دخل عليهم القومندان صادق فوقف العمال أمامه وهو
يمسحهم بنظرات حانقة، قدم له غلاب رغيفًا فرفضه:

- تسببتم في مشادة بين الميجور ويليام والكولونيل سميث.

لم يعلق غلاب أو أي من العمال الملتفين حوله تاركين القومندان يفصح عما جاء من أجله
ويلقي عليهم أوامر قاداته الإنجليز فاستكمل:

- اختلف سميث مع ويليام على موضوع الدقيق، وقرر القائد عدم تكرارها فالدقيق يصنع
منه خبز للجنود.

- وخدم الجنود يا حضرة القومندان، ما لهم نصيب في القوت أم يهلكون من الجوع؟

* من الأغاني الشعبية الشائعة بمصر.

باغته عبدالمعِين بالسؤال فالتفت إليه صادق ونظر إليه شزراً:

- أنا قلت قرارهم الأخير ونصبر حتى تركبوا السفينة.

- وقرارك أنت حضرة القومندان؟

لم يجبه صادق وتركهم مسرعاً، ضاق صدر غلاب من موقف القومندان لكنه ابتسم لرفاق العنبر ودعاهم للتحلق حول أوار النار الهادئة، دارت الصفيحة الكبيرة بالشاي المغلي وصبته منصوره بالأكواب، طفق العمال يدفئون صدورهم بالشاي قليل السكر منتظرين أن يبدأ أحدهم حوار سمرهم:

- الله يلعنك يا كلب أسيادك، يشد الميجور مع الكولونيل أو لا يشد، كلاب في بعضهم.

قالها عبدالمعِين ونظراته تدور بين رفاق جلسته فبادره صالح بالاستفسار عن القومندان:

- غريب أمر قومندان بورسعيد؛ مع إنه مصري إلا أنه...

- ومن قال لك أنه مصري، صادق شوكت الجركسي أنا أعرفه وسمعت حكايته من جدي رحمة الله عليه، أبوه كان ضابطاً في جيش عرابي وأول من خانه في حربه مع الإنجليز غير أن أصله جركسي من حثالة المماليك.

- ما قلته صحيح يا عبدالمعِين؟

- بكل تأكيد يا عم غلاب ولا يهمه غير نفسه، ومَرَدَ هو وأمثاله على الانصياع لأوامر أسيادهم مهما كانوا، المفروض يكون اسمه كاذب وهو شوكة في ظهورنا.

تبادل صالح وعوض وعبدالمعِين الحوار فغامت الرؤية أمام عيني غلاب وبقية النيران تهتز أسفل ماعون الشاي، عض شفته لوثوقه بواحد منشأ على الخيانة، فجريمة أبيه وغيره من

الخونة هي ما ضيّعت عرابي وأودت بحياة جنوده المصريين ومن بينهم أبوه وألقيت
جثثهم حتى جافت، ركن كوب الشاي وفي تناقل نهض ولسانه ملجوم عن أي تعقيب،
تركهم يتحاورون وجرّ قدميه نحو مرتبته تتبعه منصوره التي اختار لها كعادته موضعًا
بينه وبين الجدار.

ما أخبرهم به القومندان نُفذ وظل العمال يقتاتون من بقية طعام الجنود، فعاد غلاب ينتظر
كسرات الخبز والزاد ليوزعه على العمال، ليلةً تمّدّد وهو يقوَس ذراعه حول جوفه ومعدته
تقرقر من فرط الجوع، صالح عاد من الكنيف وهو يمسك بطنه، منصوره جافاها النوم وشل
عقلها عن التفكير في شيء، تلاقى رموشها وباعدتهما فجأة لليد التي استقرت على صدرها
وتهزها في رفق، تدفقت الدماء في عروقها وخفق قلبها في شدة، همّت أن تكسر الأصابع
التي تضغط على ثديها لكنها نهضت وهي تحملق في وجه ميخا:

- اصح يا منصور وهات معك عم غلاب وصالح.

- أين يا ميخا؟

- خارج العنبر، لا تتأخروا.

أيقظت منصوره أباهما أما صالح فقد نهض من رقدته وسار ثلاثتهم متحاشين الدوس
بأقدامهم الحافية على العمال المستدفئين بأجساد بعضهم حتى خرجوا من الباب فبادر
ميخا وأغلقه، بخطوات حذرة قادهم نحو زاوية معتمة جوار العنبر يكاد ضوء القمر
الأحذب ينيبرها.

- اجلسوا وتناولوا عشاءكم.

أمعن غلاب النظر في تل الخبز الصغير تجاوره شذرات من طعام متنوع، بقايا بيض مسلوق وصنوف من جبن غريب الشكل.

- حملت أربعة صناديق من مطعم القواد إلى خارج الكامب وأفرغتها، لكن صعب عليّ أن أترك كل هذا الطعام الزائد للكلاب التي هلت علينا.

- هلت عليكم؟

- نعم أنا ومحمود بعنبر (ون)، محمود الجهيني حمل كيسًا مكبوسًا ببقية الأرغفة لإفطار رفاق عنبره وأنا نقلت لكم هذا للعشاء وما يتبقى نفطر به.

- تطعمنا "رابش" الإنجليزي يا ميخا.

بصوت أجش قالتها منصوره وهي تمط شفيتها في أسف فران الصمت على أربعتهم، قدّر غلاب كوم كسرات الخبز وأيقن أنه يكفي لإفطار كل من بعنبرهم عنبر (تو) واستحسن فعلة ميخا.

- نقتات من بقية طعام الإنجليزي أفضل من الموت جوعًا يا منصور، وللضرورة أحكام.

ألقي صالح بعبارته وقطع ترددهم بتناول كسرة رغيف طرية لفها حول قطعة جبن وألقاها بفمه فزامت معدة غلاب الخاوية، مد يده لبيضة فُضم نصفها، أما ميخا فهزّ رأسه مؤكدًا على حكمة صالح فطفق يأكل في نهم، فلم تجد منصوره بدءًا من أن تمد يدها وتتناول بأناملها اللقيمات وتلوكها ببطء، أنهموا طعامهم وقدم لهم ميخا ماعون الماء فشربوا، وما تبقى من أنصاف وأرباع الأرغفة وهي الكثير جمعه ميخا وصالح في لفة كبيرة وحمله إلى العنبر، عاد غلاب إلى مرقدده وسحب البطانية على جسمه وتمتم في خفوت:

- حسبي الله ونعم الوكيل، أهجر بلدي بني عيش بخيرها وجوها وخضرتها وأملأ بطني بـ"رابش" الإنجليزي.

تنهض منصوره من جواره وتعوض شفقتها في أسي، طفر وجه جدتها كرمه أم الشيخ
محسون إمام مسجد بني عيش ومعلمها في الكتاب وهي تقبل يوم الخبز وبين يديها
البتا والطري والجبن الغارق في المش فيتحلّق الجميع للعشاء فإذا بقبق الشاي في التنكة
المفحومة صبته في الأكواب، في تلك الليالي البعيدة تروي لها الجدة كرمه حكاية ورأسها
يتوسد فخذها وتربت على شعرها الخشن، تيار الهواء أفاقها من سرحانها فاصطدمت
روحها بواقع غربتهم المألوم، خفضت رأسها وخرجت كلماتها من بين دموعها منكسرة:
- أرجوك يا أبي، بمجرد وصولنا لبورسعيد نرجع بلدنا بني عيش.

دأب ميخائيل على إحضار العشاء من بقية طعام جنود الكامب وعاونه صالح في مغامرته الليلية واعتاد جنود مراقبة البرج تسليط الضوء على تلك البقعة النائبة وهم يظنون أن نفرًا من أهالي البلاد القاطنين بعيدًا عن الكامب ينبشون زبالتهم، يعود ميخا وصالح ومحمود من العنبر الأول من خلف الكامب بعد أن مكروا مكر الثعالب وحفروا ممرًا أسفل الأسلاك الشائكة يتسللون منه خفية كل ليلة.

نهارًا استيقظ صالح على مغص بطنه، بعد عودته من الكنيف يحسب أن ألمه سيزول، زادت انقباضات أمعائه فالتفت حوله ميخا وغلاب ومنصورة التي ارتجف قلبها هلعًا.

- مصارينى تنقطع يا عم غلاب.

العرق يتفصد من جبين صالح وهو يعرض شفته ولم يلبث أن نهض من فوره إلى الكنيف وعاونه عوض على وصوله، في ضيق غادرت منصورة العنبر المكتوم هواؤه وهي تتوقع أن يشفى صالح بعد قليل، ملأت رئتيها بأنسام الهواء الطازج، دارت بعينيها فراقبت العمال الذين سيقوا لجمع مهمات فرقة الجيش الإنجليزي المزمع رحيلهم عصر اليوم، ظل العمال يدورون دائخين لكن علت هممتهم لينهوا الأمر ويستريحوا من خدمتهم إلى جانب توفير الطعام والأمل بعد ذلك معقود على عودتهم إلى بلادهم ما دام بقاؤهم مرهونًا بوجود فلول الجيش الإنجليزي المهزوم من الأتراك.

- "كمون بوي، هيلب يور فرندس"، ساعد أصدقاءك يا ولد.

فاجأها القائد ويليام بالأمر وهو يشهر بندقيته فحملت في وجهه الغريب والنمش يتناثر على جلده مما يشوّهه وعينه أضيّق من الأخرى فهزّت منصورة رأسها رافضة، اتسعت ابتسامته فكشفت عن أسنان صفراء ورفع بندقيته موجهاً السونكي الحاد نحوها:

- أنا أعرف العربية، تبارزني بجلابك الطويل؟ هاهاها.

تراجع خطوة ثم باغت منصوره بدفع البندقية فجأة إلى بطنها حتى كاد السونكي ينغزها فتفادته في آخر لحظة، قهقهه في تمايل وأعاد الكرة ومنصورة تتقاذف أمامه وهي تشيح بذراعيها، انفلتت الشملة من رأسها فالتقطتها في سرعة لكن ويليام الذي راقه التلهي بالعامل الممصوص ظل يراودها رافعًا صوته الأجهش:

- "كمون بببي".

تعثرت منصوره ووقعت على الأرض، جحظت عينها عندما خطا القائد الإنجليزي السفيه في سرعة نحوها وساقاه منفرجتان على جسدها، خفض السونكي نحو خدها المرتعش ورفع حاجبيه الكثيفين قائلاً في عربية سليمة:

- تحب أرسم على خدك علامة تفتكرني بها.

قبضة أمسكت ماسورة البندقية ورفعته لأعلى، وقف ميخائيل قبالة القائد والشرر يتطاير من عينيه، فنهضت منصوره من فورها وهي تلملم جلابها والخوف يتملكها:

- اترك البندقية!

فاه بها ويليام وهو يصفع ميخا على وجهه، بقبضته المضمومة وكزه ميخائيل ودفعه بعيداً عنه، فغر فاه ألماً من أثر الضربة التي لم يكن يتوقعها، تمالك نفسه وسحب جرار البندقية وصوبها:

- "نو ويليام"!!!

انطلق العيار في اللحظة التي رفع الكولونيل سميث البندقية لأعلى فطاش في الهواء مما جعل لفيماً من الجنود المشغولين في لملة أغراضهم يلتفتون نحو ويليام الذي جاهد ليرد

الضربة لميخا لكن سميث دفعه بعيداً، التفت ويليام ورمقهما بنظرة ملأتها كل صنوف الحقد المشوب بالتوعد والانتقام، سار وعروق رقبتة منتفخة من فرط الغيظ.

- منصور، عم غلاب يطلبك لتحضر في الحال.

التفتت منصوره لميخا وربتت على كتفه تشكره على دفاعه من تلاعب إنجليزي مستهتر، في قرارة نفسها ودت لو تشكر سميث الذي أنقذهما من رصاصة كانت ستصيب أحدهما على الأقل فلا يزال يحفظ جميلها؛ لأنها نقلته من سقالة السفينة إلى عنبر الجرحى وعاونت مقبولة في تضييد جرحه البسيط فيما قبل وها هو يرد صنيعها بإنقاذها وإنقاذ ميخا من القتل، استدارت عائدة وهي تلف الشملة حول رأسها، دلفت العنبر الخالي من العمال نحو صالح الملقى على الأرض يتلوى:

- سكاكين تقطع بطني.

- افتح كيس الإسعافات يا ولدي وهات منه دواء.

في سرعة التقطت أصابع منصوره الكيس القماشي السميك وفكت رباطه، أفرغت القطن والشاش وقنينة المطهر وأنايب المراهم المتنوعة، رفعت زجاجة صغيرة فتناولها ميخا، وقرأ:

- إنها للصداع أو الدوار.

- لا يهم، قد تسكن ألم بطنه.

أيقنت منصوره أنه يقاسي مغصاً شديداً يصل إلى حد التسمم وتأكدت أن دواء الصداع لن يجدي معه:

- يحتاج إلى دواء للمغص، ولحين حصولنا عليه يجب أن يشرب ويعوض ما يفقده جسمه.

- للأسف، نفذ قشر الرمان.

في جزع حقيقي فاه بها عوض، ابتلع غلاب ريقه، اكتسى وجهه بالقلق ومضت في ذاكرته ما اجتاح القرية قديماً من وباء عرف بعدها أنها الكوليرا وأنها معدية وقد تقضي على العنبر كله، خشي أن يتناقل شبح تخمينه إلى العمال فيلقون الشاب المسكين في العراء ويشعلون النيران في العنبر من شدة خوفهم من انتقال المرض إليهم ولن يمنعهم أحد، رفع سبابته ففهم ميخا ومنصورة ما يريد دون أن يبوح به:

- والعمل؟

- يوجد في هنجر القائد صندوق إسعافات كامل به أدوية.

أجابت منصوره على سؤال ميخا فنهض، فاستوقفه غلاب وهو يبتلع ريقه ويمسح العرق الناز من جبين صالح:

- اصبر يا ميخائيل يا ولدي، الليلة سيرحل الجند وبعدها يمكن أن نحصل على ما نريد وعلى كل صالح نام، هيا، ابتعد أنت ومنصور من هنا.

هزّ ميخا رأسه ورافقته منصوره إلى أول العنبر، جلسا متقابلين فقدم لها كوب الماء.

- ما الذي جعل الجندي سميث يمنع الغبي ويليام؟

- سميث ليس جندياً بل قائداً كبيراً وأنا ساعدته منذ شهور على تضييد جرحه.

- فيك الخير يا منصور، أخيراً إنجليزي يصون العشرة.

- ربنا يسهل ويحفظون جميلنا ونعود لبلادنا بعد كل الشقاء هنا.

- والمسيح لما نعود يا منصور لأزور الدير المعلق بجبل المعابدة ودير العذراء مريم وأضحى بعجل سمين وأوزعه هناك.

جلبة انبعثت من خارج العنبر فنهض ميخائيل ليستطلع الأمر تبعته منصوره، رأيا العمال الكثيرين وهم يجرون العربات ويحملون صناديق الأسلحة ومهمات الجيش والجنود يسيرون مصطفىين نحو بوابة الكامب الرئيسة في طريقهم إلى مرسى السفن البعيد.

- الحمد لله، لم ينتظروا الليل وها هم يرحلون بعد العصر.

- ننتظر حتى يتم خروجهم وبعدها نطلب من القائد الدواء لصالح.

تركها ميخا وعاد إلى العنبر، رويدًا أفل النهار فتسيج الأفق بالشفق الأحمر الشفيف، لم تشعر منصوره بالشمس وهي تتوارى حتى أقبل عليها ميخا:

- هيا يا منصور، إلى القائد.

نهضت من فورها وسارا متوازيين، بوجوم استقبلهما القائد سميث وهو يمسح جبينه بمنديل قماشى كبير:

- أولًا، أعتذر يا حضرة الكولونيل عن صدامنا مع القائد ويليام ولكن و...

- "نو" اعتذار "ويليام فولش"، أنا لا أنسى ما فعلته يا ولد يا منصور لما أصبت.

في سرعة قاطع القائد سميث تمهيد ميخا وأجابهما بعبارات مختلطة بكلمات إنجليزية وأخرى عربية متكسرة، لم تضيّع منصوره مزيدًا من الوقت فبادرته قائلة في نبرة مفعمة بالرجاء:

- يوجد في الهنجر عامل مريض جدًا ويحتاج إلى دواء لمصاريه المقلوبة.

رفع سميث حاجبيه في إشارة لعدم فهمه لطلب منصوره التي ألقته بعبارتها في سرعة ولهجتها الصعيدية تخفي مخارج حروفها المتعطشة فأعاد ميخا العبارة:

- معنا مريض في "الأستمك" ونريد دواء له.

كررها ميخا وهو يشير إلى بطنه فهز سميث رأسه وقد اعتاد أن يسمع من العمال عبارات مطعمة بالقليل من الكلمات الإنجليزية، أدرك ما يريدان فنهض من خلف مكتبه نحو صندوق خشبي، ظل يعبث به إلى أن رفع زجاجة كبيرة أمام عينيه، قدمها لميخا فضيق عينيه وهو يحاول قراءة الورقة الملصوقة بزجاجة المحلول، هرولا نحو الهنجر، دلفاه في سرعة وما إن انهار ميخا قبالة صالح حتى أنهضه غلاب وقرب منه فم الزجاجة، شرب

القليل من الدواء وتارة أخرى أراحه غلاب وعيناه تلقيان على منصوره وميخائيل نظرات العتاب لتأخرهما، هدا صالح فغادرهم ميخا لإحضار العشاء، ابتسمت منصوره لوجه صالح الذي استعاد صفاءه فتركهما غلاب وسار نحو الحمام، ابتلع ريقه وعادت قسماته تنقبض، مدّ يده فتشابكت أصابعه بأصابع منصوره، ارتعشت شفثاه فطمأنته وهي تقرب وجهها من وجهه:

- إن شاء الله تصبح في أحسن حال.

- يفعل الله ما يشاء.

- ربنا يبعد عنك الشر يا صالح، الدواء يخفف معدتك.

- وقدر ربنا يشفي ألمي أحسن من الدواء، المهم، لا وقت يا.. يا، يا منصوره.

في تردد فاه بها صالح فاتسعت عينها منصوره ودارتا في محجريهما دهشة من صالح الذي يخبرها باسمها صراحة، أغمض عينيه في قوة ثم انفرجت رموشه بهدوء فباغتته منصوره بالسؤال:

- يا خبر، عرفت يا صالح؟

- المهم أن تحفظي عم غلاب يا منصوره وتكتمي سرك لحين عودتكم.

- لحين عودتنا كلنا وأنت معنا يا صالح.

- وما تدري نفس بأي أرض تموت.

- الدواء، اشرب المزيد.

- ما عليك من الدواء وخلافه، المهم يا منصوره، لي أخت هي كل ما بقي لي في الدنيا، قبل وصولي لبورسعيد أحضرتها عند عمي وهو تاجر كبير ومشهور ساكن جوار الأزهر، إن مت ووصلت لها أخبريها سلامي ودعواتها لي بالرحمة.

- إن شاء الله ترجع لها يا صالح.

قالتها منصوره بصوت متهدج وعجزت عن منع دموعها، ودت لو يأتي أبوها في الحال فنهضت من فورها متلفته ولم تهتم بما تمتت به شفتا صالح فلمحت رموشه تتشابك فنادت بصوت مفزوع:

- أبيييي!!!

في سرعة خطأ غلاب نحو منصوره الصارخة في زعر، ركع جوار رأس صالح وهزه في قوة، رفع يده فسقطت، ارتعشت شفتاه وهو يحوقل ويضرب كفاً بكف، بساقين مرتعشتين تراجعت منصوره ويدها مفرودتان على وجهها ولا تدري من أين هطلت دموعها في غزارة ومن حين لآخر تلقي نظرة خاطفة على وجه صالح الساكن، تمالك غلاب نفسه وسحب الملاء ليغطيه في رفق، ميخائيل يقبل بين يديه طاولة خشبية مرصوص عليها طعام العشاء، اختطف عيناها صورة غلاب المحني أمام صالح والملاء مسدلة على كل جسمه ومنصوره تنخرط في بكاء حارق فأعلنت الطاولة التي انفلتت من بين يديه عن انهياره، قفز عوض نحو صاحبه وطفق يهزه وهو يضرب الأرض بقبضته ويهذي بكلمات غير مفهومة، تراجع منصوره خطوة وخطوتين ولم تلبث أن خرجت فرآها محمود الجهيني باكية، اقتحم الهنجر هو وعبدالمعين الأزهري، جريا يتبعهما لفيف من العمال دخلوا على غلاب وأحاطوه من كل جانب، جثا عبدالمعين ورفع الملاء، امتعض وجهه ومحمود الجهيني ينخرط في بكاء حار، أعاد عبدالمعين الغطاء على وجه صالح وهو يقول:

- ما منه فائدة يا عم غلاب، وإكرام الميت دفنه.

"صالح المصري"، على الحجر الكبير البارز أعلى القبر كتبته منصوره، من بين أصابعها انفلتت قطعة الجير الأبيض فلم تبال باستعادتها وتدوين تاريخ رحيله، برفق ربت غلاب على كتف ابنته، دون أن تلتفت إليه هزت رأسها واستدارت، رمقت ظهور بقية العمال المغادرين بقعة القبور التي أمست كأحد أحواش مقابر القرية، غلاب يحاذر أن تتعثر قدمه بحجر والشمس تتردد بين المقاومة والاستسلام لأفولها السرمدي، حاول أن يقنع محمود وعبدالمعين وبقية العمال بتأجيل دفن صالح قليلاً لكنهم أتموا غسله وفضلوا مواراته دون إبطاء، على كتفه حمله عبدالصمد الفرشوطي وقد حضر القومندان صادق والقائد سميث، قبالة القبر أراحوه ولم يطق غلاب الصلاة عليه فتقدمهم محمود الجهيني ولم يلبث أن أنهى الدعاء له وقد أتمّ الشباب حفر القبر فتشجع غلاب وأراحه بيديه ومنصورة ينفطر قلبها قهراً على صالح الذي لم يتمن شيئاً في حياته غير العودة لأخته.

ترددت كلمة أخته في ذاكرتها فاستعادت وصيته الأخيرة كلمة كلمة وقررت تنفيذها فور عودتهم لكنها عادت تسأل نفسها عن أخت صالح وعمه فالقدر لم يمهلها كي يفصح لها عن اسم أخته أو عمه فكل ما قاله أنه يسكن جوار الأزهر، حتى في هذه لم تتعجل يا صالح وتذكر اسم أختك واسم عمك، حادثت منصوره نفسها وهي تميل بظهرها نحو الجدار خارج الهنجر، راقبت بقية العمال العائدين إلى عنابهم في صمت ووجوم، ابتلعت ريقها وهمت أن تخبر أباهما بأن صالح في أنفاسه الأخيرة عرف حقيقتها لكنها أحجمت مفضلة اعتقاد أبيها أن الشاب الشهم راح وسرها مستور، نعم سأستر سيرته ولتبق قديرة عند أبي.

تارة أخرى حادثت نفسها ومنحتها فرصة تخمين الوقت الذي عرف فيه صالح أنها بنت، قد يكون عندما حاولت رفع فرع شجرة فلم تقدر فحمله عنها، وحين تأخرت مع مقبولة في عنابر الجرحى قلق عليها وانتظر حتى تنهي أعمالها وصاحبها أثناء العودة وقد يكون أدرك ذلك من كثرة كلامه معها أو في إحدى الليالي التي كانت تذهب إليه خلسة ويظلان

يتحاوران، لامت نفسها أنها لم تخبره بنفسها وعاشت معه أحلى الأوقات وعاتبته في قرارة نفسها أنه كتم عنها طوال الشهور الطويلة معرفته أنها منصوره وليست منصور؛ فلم يبد منه أي حركة أو فعل ينوه عن معرفته حقيقتها، أدركت أن الشاب العفيف لم يقبل على نفسه إحراج أبيها فكيف كان سيبيت معهم لو أعلمهم أنه عرف الحقيقة، أنت عظيم يا صالح، وكنت تحبني، كنت تحيط كتفي بذراعك وتخاطبني بمنصور وأنت تبتسم، كيف لم ألاحظ ذلك طوال الأيام الفائتة؟

عادت تهاتف نفسها ولسانها معقود عن الإفصاح لأبيها بما عرفه صالح قبيل رحيله، لكنها ستخبره بأمر أخت صالح وعمه الساكن جوار الأزهر فيما بعد، القومندان يقف قبالة غلاب فاقتربت منصوره منهما وعيناها مغرورقتان بالدموع، همت أن تسأله عن عودتهم إلى بورسعيد فأحجمت حين رأت تغير قسمات وجه أبيها الصامت والقومندان يسأل ويحقق:

- كيف ترضى يا غلاب أن تأكل أنت والعمال من قمامة الإنجليز؟

- وأنت يا حضرة القومندان المفترض أنك المصري المسئول عن عمال بلدك، لِمَ لم توفر لنا الجراية، كدنا نهلك من الجوع لولا "رابش" الإنجليز.

- لكن "الرابش" فاسد ويسبب التسمم؟

- سببه يا حضرة القومندان وما كان كان، خسرنا واحدًا من أحسن شبابنا.

فاهت بها منصوره وأجهشت بالبكاء وهي تخفي وجهها بالشال العتيق فارتبك القومندان لجرأة ابن غلاب وهم أن يداري تقصيره بمزيد من اللوم لكن غلاب رفع حاجز الخوف وكسر أسوار الطاعة فرفع صوته فيما يشبه الزعاق:

- المهم يا حضرة القومندان، رحل الإنجليز من كامب مودروس وانتهت خدمتنا لهم، متى نعود لبلدنا؟

سؤال غلاب دفع لفيقًا من العمال إلى السير نحوه وخرج العديد منهم من العنبر والتفوا حول القومندان فتراجع خطوتين حتى وقف قبالتهم والعيون تنتظر الإجابة الصريحة لحيرتهم المتدفقة في عروقهم التي أجدها الغربية وأملهم في العودة يتنشقونه مع كل نفس بصدورهم، تمالك القومندان الجركسي أعصابه وابتلع ريقه، برقت عيناه وهو يرفع وجهه ويحيب في نبرة حرص أن يجعلها متماسكة:

- في غضون أسبوع ستغادر بكم السفينة.

- بنا؟ وأنت يا حضرة القومندان؟

في استنكار باغته عبدالمعين الأزهري الواقف جوار ميخائيل بالسؤال وفي نفسه شيء من عدم الثقة في مقولة القومندان؛ فلم يعتادوا منه غير اللوم والتقريع والعقاب على أتفه الأشياء وأقل تقصير إن بدر من أي واحد منهم أثناء خدمتهم للإنجليز ولم يلقوا منه أي استحسان ويشعرهم دائمًا أنهم يستطيعون عمل المزيد، التفت إليه القومندان ورد في حزم:

- أنا عائد الليلة في مأمورية، سأسبقكم إلى.. إلى بورسعيد، سأكون في استقبالكم هناك، هيا إلى عنابرکم وعليکم السمع والطاعة لحين عودتکم.

استدار وخطا مبتعدًا عن ثلة العمال الواقفين وفي دواخل نفوسهم تخمينات متخبطة وثقة مهزوزة في وعد القومندان، الأسئلة تتصادم في نفس غلاب المهزومة، لماذا لا يرافقون القومندان ما دام سيعود وما سبب عودته بمفرده؟ ألقى بنفسه على المرتبة المتآكلة مغطيًا عينيه بساعده ومنصورة تطيل النظر إلى مرتبة صالح وبكفها تمسح المخدة، ترفعها وتبرق عينها للمصحف الصغير.

لا يدري غلاب لِمَ استطالت الساعات فلا تكاد تمر وحين يقابل رفقاء غربته يتبادلون الابتسام والتهنئة لقرب عودتهم، فالأسبوع لم يتبق منه سوى ثلاثة أيام والكثير من العمال جمعوا أغراضهم الشحيحة استعدادًا للهروب من وحش عزلتهم فترك لهم القائد سميث حرية تدبير أمورهم، وحين عرض عليه محمود الجهيني أن يتولّى أمر المطبخ لم يعترض وصرف لهم المزيد من الدقيق ليصنع منه النوبيون خبز الدوكة بأنفسهم فعاش العمال ما تبقى من أيام في رغد مقيد بعض الشيء، وفتح لهم القائد سميث مخزن الملابس وصرف لهم السراويل والقمصان والمعاطف التي تركها الجنود ففرح بها العمال وتولّى غلاب والجهيني وِعوض توزيع الهدوم المستعملة على جميع عمال كامب مودروس فقررت نفوسهم الموجولة بشيء من الأمن وانتظروا على أحرّ من الجمر انقضاء اليومين المتبقيين حتى كان الهزيع الأوسط من تلك الليلة، منصورّة ترتدي جلبابها البلدي وبمفلاة تمشط شعرها القصير المجعد فتناثر عدد من القمل على الوسادة، بإظفر إصبعها طفقت تقصع القملة تلو الأخرى، أعادت لف الشال على شعرها بعد أن وجدت صعوبة في تهذيب حوافه بالمقص المثلم، رتبت السراويل وعدداً من القمصان وحين شرعت في تطبيق المعطف الأزرق الغامق الثقيل، دست كفها في جيبيه فلامست أناملها شيئاً، سحبتة فرفعت حاجبها للورقة المطوية ففردتها، الورقة صفراء طويلة وغير مسطرة، مملوءة بأكملها بكلمات وعبارات فهمت أنها مكتوبة بأحرف إنجليزية، لم تهتم وهمّت بتمزيقها لكنها تريثت قليلاً وطوتها كما كانت وأعادتها في جيب المعطف الداخلي.

ما إن لفته ووضعته وسط الصرّة الكبيرة حتى لوت عنقها في حدة وهب غلاب من نومه للعيار المنطلق أعقبه صوت رصاصات فنفض عن جسمه البطانية وهرول حافياً تلاحقه منصورّة، ولم يكن وحده الذي جرى فالكثير من العمال تزاحموا خارجين من العنبر الآخر فركض غلاب ليلحق ببعده المعين وِعوض نحو مخزن السلاح، التف العمال حول الشاب المنكفى على وجهه وآخر ممدد على جنبه الأيمن، مال غلاب نحوهما، رفع كتف أحدهما فجحظت عيناه وشهق العمال حين طالعهم وجه ميخائيل والدماء تبك من حلقه، أما الآخر محمود الجهيني فقد انقطعت أنفاسه وهمد جسمه، في عنف اقتحم اثنان من الحرس اللمة

وانتزع أولهما المسدس ذا الساقية الدوارة من يد الجهيني ورفعته أمام العمال الذين تراجع بعضهم للوراء:

- هذا جزاء من يحاول أن يحصل على سلاح، أنتم هنا عمال، وستظلون عمالاً، زميلكم أراد أن يسرق السلاح فلا عقاب له سوى القتل.

زعق بها القائد ويليام وهو يرفع المسدس ويعيده إلى الحارس الذي دلف المخزن وعاد ليقف أمام الباب، لحظ غلاب أن قفل المخزن مكسور فأيقن ما أراد ميخا والجهيني فعله، بعين منكسرة طرح تساؤله لكن صوت القائد سميت أتى من خلفه:

- كان من الممكن يا ويليام أن توقفهما دون أن تطلق الرصاص.

- استولوا على سلاح.

- متهور.

في غضب هزّ سميت رأسه فأشاح ويليام بذراعه وانصرف يتبعه الحارسان، تكاتف العمال الصامتون في حمل ميخا ومحمود إلى العنبر يتبعهم سميت:

- "سوري" غلاب، "ثييري ثييري سوري"، أعتذر لكم أيها العمال عن إصابة رجلين منكم فرحيلكم وشيك والسفينة رست الآن في الميناء.

لم يتلق سميت حرقاً ممن يتحلقون في وجوم حول الشابين المصابين فضرب كفاً بكف وخرج من العنبر، في وهن فتح ميخا عينيه فمسح غلاب الدماء من على خده، أطال النظر في وجه الشاب والدموع تملأ عينيه.

- لماذا يا ميخا وكدنا نترك الجزيرة؟

- الجهيني مات يا عم غلاب.

قالها عبدالمعِين بعد أن أبعد وجهه عن صدر محمود والدماء تخضّب جلبابه، زاغت نظراتهم الحيرى وغلاب لا يدري سببًا لفعلة محمود وميخائيل حتى بادأه ميخا بطلبه:

- لو مت، ادفني جنب صالح ومحمود.

قالها بصوت متهدّج فهزّ غلاب رأسه في أسى ممزوج بالحسرة، عبثت أصابعه بملابس الجهيني فأخرج من جيب جلبابه قروشًا قليلة، بالملاءة لف الجثمان وأشار لهم أن يحملوه فرفعه أربعة بين أيديهم يتقدمهم عوض والباقون جرجروا أقدامهم خارجين من العنبر يتبعهم غلاب وبقيت منصوره جوار ميخا، بيديها مزقت القميص فظهر الثقب ينزف الدماء، وضعت خرقة عليه، أخرجت من كيس مقبولة قنينة صغيرة وسكبت السائل المطهر، أدار ميخا رأسه ليقابل وجه منصوره وفي صوت هامس خرجت اعترافاته:

- تلقيت أول رصاصة وبعدها محمود الجهيني وقف قدامي، كان غرضي أقتلهم يا منصور.

- كنا ماشيين يا ميخا.

- خونة، كلهم خونة حتى القومندان صادق الكاذب، كان غرضي أفرغ الرصاص في قلبه الأسود.

- القومندان؟!!

- ليلة أمس، كنت أتمشى أنا ومحمود جوار حجرة القائد وسمعت سميث يحادث ويليام بأن يزيد في الإحسان للعمال المصريين حتى يركبوا السفينة.

- ونرجع لبلدنا؟

- لا، السفينة تبحر إلى أوروبا.

- أوروبا! القومندان وعدنا بانتظارنا في بورسعيد.

- كاذب يا منصور، القومندان خائن، كذب علينا، رجع هو لمصر وتركنا هنا لتحكم الإنجليز.
- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- قررت أنا ومحمود أن نكسر قفل مخزن السلاح وحصلت على مسدسين وكنا سنجبرهم على عودتنا لولا ويليام أطلق عليّ الرصاص وأصابني والحرس كملوا على محمود.

- لِمَ لم تخبرني أو تخبر أبي؟

- خفت عليكم يا منصور لأن سميث سأل ويليام: إن تمرد فيلق العمال وهو في السفينة بعد أن يعرفوا أنهم غير راجعين لبلدهم ماذا تفعل فأخبره على الفور بقتل من يتمرد.

- وضحيت بحياتك، يمكن لو قلت لنا كان لأبي تصرف أفضل.

همّ ميخا أن يتفوه لكن الكلمات ذابت بين قسّمات وجهه المألومة ومنصورة تتناثر دموعها فالتفت إليها وجفونه المنقبضة تعتصر الألم:

- لا تبك يا منصور، في سروالي المسدس الثاني ومعمر بالرصاص، اسحبه واخفه.

ابتلعت منصوره ريقها واستحت أن تدخل يدها في سروال ميخا، صدرها يعلو ويهبط وأغمضت عينها وهي تدس يدها داخل السروال فاصطدمت أصابعها بمقبض المسدس، سحبته في سرعة وخبأته بين طيات ملابسها.

- احتفظ به أو سلمه لعم غلاب، والعذراء الطاهرة ما عرفت أفضل منكما.

رفعت منصوره قطعة القماش الصغيرة، النزيف توقف لكن يجب انتزاع الرصاصه، بالكيس بعض الآلات ستغليهم وما إن يعود أبوها من دفن الجهيني حتى يعاونها في إخراج الرصاصه من صدر ميخا كما تعلمت من طول مرافقتها لمقبولة.

أسفل الصليب الخشبي الكبير الذي غرزه غلاب بيده وسط كومة من الصخور، استقرّ حجر استصلحته منصوره وكتبت عليه، ميخائيل الأسيوطي المصري، استسلمت ليد أبيها القابضة على معصمها واستدارت مولية أسنمة المقابر ظهرها وهي تمسح دموعها، تترجرج في ذاكرتها الأحداث القليلة عقب عليها لأدوات الجراحة لتعقيمها وانتظرت برهة لكن شهقة ميخا الممطوطة أفرعتها واقشعرّ بدنها لانتفاضته المفاجئة ثم همود جسمه، جحظت عينها لغمه المفتوح، بأصابع مرتعشة رفعت ذراعه شبرين فانفلتت، خبات وجهها بيديها ولم تدر كم انقضى من لحظات حين شعرت بخطوات أبيها المهرولة نحوها، أوقفها فدارت نظراتها بين الوجوه الجزعة، في أسى يرفع عوض يد ميخائيل ويباعد بين جفنيه، يهز رأسه وهو يخبرهم في أسف:

- ميخا مات.

دفنوه كما أوصى وعادوا إلى العنبر، لم يطق الكثير منهم تناول الطعام، حتى غلاب لف نصيبه في كيس وبقي ساهماً إلى أن أتى له عبدالمعين بصرتين بهما ملابس محمود الجهيني وميخائيل الأسيوطي، برفق وضعهما أمام غلاب فأشار إلى إحدهما بأن يأخذها عبدالصمد الفرشوطي فحملها وانصرف، فكت منصوره رباط الصرة الأخرى، فردت الجلباب فعرفت أنه لميخا، كيس جلدي سقط، الثقطته وفكت رباطه الرفيع، أخرجت أيقونة خشبية لا تزيد على كف اليد مرسوم عليها بألوان باهتة صورة العذراء مريم، الشيء الآخر كتّيب صغير قرأ غلاب عنوانه - أجبية - فتحه وتمتم بصوت خافت ثم التفت إلى منصوره وهو يخبرها:

- صلوات وأدعية.

هزّت رأسها إشارة الفهم وأعدت الأيقونة وكتاب الأدعية بالكيس ووضعتهم بالمخلاة التي بها مصحف صالح، لا تدري لِمَ ترددت كلمات ميخا بين طيات ذاكرتها وقررت أن تخبر أباهما بكل ما قاله لها وهو ينازع وأنها تمتلك مسدسًا يمكنهم قتل الإنجليز وأنهم لن يعودوا إلى بورسعيد:

- أبي!

لم يلتفت إليها واستكمل رص الهدوم بصندوق خفيف صنعه بنفسه فوقفت قبالة ويدها على المسدس المخفي بين ثدييها الضامرين:

- أبي، الإنجليز خدعونا، لن نعود إلى بورسعيد، عليك أن تخبر العمال ومعني مسدس يمكننا قتل الإنجليز أو إجبارهم على أن يوجهوا السفينة إلى مصر أو...

انتظرت رد أبيها لكنه لم يلتفت إليها وانشغل أكثر في لف البطاطين ولم يرقم ظهره المحني، همّت أن تهز كتفه، اعتدل إليها وأغمض عينيه وفتحهما فأدركت أنها لم تنبس شفاتها بكلمة وأن ما تريد أن تفصح به دار في صدرها وألجم لسانها عن قوله فتشجعت وهمّت أن تتكلم لكن البوق انطلق بصفارة طويلة واقتحم العنبر الكثير من العمال فحملوا أمتعتهم التي جهزوها من قبل وخرجوا الواحد تلو الآخر فرفعت منصوره الصندوق الخشبي على كتفها ومشيت وراء خطوات أبيها الثابتة إلى أن اصطفوا جميعًا أمام القائد سميث الواقف على عربة يجرها حصان والحرس من حوله، بلكنته العربية المتكسرة أصدر أوامره وهو يمويه الحقيقة:

- الآن، تركبون، أرجو التزام الهدوء إلى أن تصلوا وستوزع عليكم أجوركم كاملة فور تحرك السفينة.

بامتعاض حدقت منصوره في وجه سميث وضحكته الماكرة ترتسم على وجهه وحين أقبل ويليام القاتل ودت لو تسحب المسدس وتفرغه في صدره، دارت نظراتها بين العمال، أرادت

أن تصرخ بأعلى صوتها وتحذرهم من السير نحو المرسى لكن لسانها انعقد فالحرس كثيرون وويليام لن يتورّع عن قتل أي واحد منهم حتى لو استدعى الأمر قتلهم جميعًا إن أظهروا التمرد، خافت على أبيها وسكتت، في همّة بدأ العمال في التحرك يرافقهم الجند، انفتح باب الكامب على مصراعيه فقادهم الحرس نحو المرفأ، تسارعت خطوات العمال والسفينة الكبيرة تقترب رويدًا رويدًا، قبالتها يمتدّ جسر خشبي عريض ويضيق كلما اقترب من باب السفينة، تلاقى حاجبا منصوره وهي تتأبط ذراع أبيها، شفتاها أمام أذنه فهمت بإخباره لكنها أحجمت في انكسار فقد يأمر أبوها العمال بعدم ركوب السفينة وهم يحبونه ويستمعون لكلامه وعندها لن تتوقع مغبة عملها فقد يقبض عليه الجند ويقيّدونه ويعتبرونه متمرّدًا أو يطلق عليه ويليام الرصاص أو يوجهون بنادقهم نحو العمال الذين تنشّى نفوسهم هجر مودروس وتهفو أرواحهم للعودة فيصطدمون بخيبة الأمل فصمتت مقنعة نفسها بالتماس أخف الضررين وهو بقاؤهم أحياء على ظهر السفينة إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وأدت بها ظنون الرجاء أن يكون ميخا ومحمود الجهيني مخطئين والسفينة ستبحر بهم سريعًا يومًا أو بعض يوم ويجدون أنفسهم ببورسعيد يستقبلهم تمثال ديليسبس العملاق، قررت ألا تبوح لأي إنسان بتوجههم تاركة الأيام القلائل المقبلة تفصح عن قدرهم المحتوم.

النهار انقضى ولم تتحرك السفينة حتى اكتمل شحنها، أغلقت الأبواب الخلفية فزعقت الصافرة بصوتها كأنها وحش أعلن عن بدء سيره فاهتزت في عنف وبعد ساعة انتظمت حركتها والعمال مرصوصون في قاعها الكبير، تم توزيع الطعام عليهم بانتظام أكثر من ذي قبل فتناولوا عشاءهم وغلاب في قرارة نفسه يتوعد القومندان صادق باللوم حين يقابله في بورسعيد، لاحظوا حين صعدوا ظهر السفينة كثرة الجنود فأدركت منصوره أنهم يحتاطون للأمر فمحت من نفسها تمامًا فكرة إخبار أبيها بأنهم قد تطول أيامهم في البحر

وترسو بهم السفينة في أوروبا كما أخبرها ميخا قبيل موته، ولكن أي ميناء في أوروبا وهل سيكون قريبًا من مصر أم أنهم سيهلكون هناك وأخبار الحرب تتزايد كل يوم؟!

ليلاً بدا القلق على وجه غلاب وتحدوه همهمات العمال، تساءل في صوت مسموع مع جيران قعدته الذين نهشتهم الحيرة بأنيابها من انقضاء يومين كاملين وهم في البحر رغم أن السفينة لم تتوقف وأيضا لم يصلوا إلى بورسعيد أو حتى الإسكندرية كما اعتقد البعض.

- لم نصل يا جماعة؟

- ولم يتحدّث معنا أحد؟

- مع أنهم لم ييخلوا علينا بالطعام.

قالها محروس وهو يهز رأسه وتكاد الدموع تطفّر من عينيه، انضم إليهم عوض وعبدالمعين والكثير من العمال حتى تحوّلت لمتهم إلى دائرة كبيرة يتجادبون فيها الرأي واتفقوا على أن ينتدبوا ثلاثة منهم يخرجون الليلة من إيوائهم ويقابلون الكولونيل سميث ويسألونه عن وجهتهم ويعرفون رءوسهم من أرجلهم، اختاروا اثنين والثالث أكبرهم سنا وهو غلاب النجار فنهضوا من فورهم وتشجعوا على الخروج من بطن السفينة صاعدين إلى أعلى فصدمت أنوفهم روائح البحر المعبقة بطعم الملح، سألوا عن القائد سميث فأخبرهم المجند أنه يستريح في كابينته وسيخرج بعد ساعة، ظلوا منتظرين ورذاذ البحر يتطاير على وجوههم والدقائق تمر ثقيلة حتى ظهر القائد سميث بوجهه الأحمر اللحيم، غليونه يمتد من أسفل شاربه الكث وينفث منه الدخان في التذاذ، قبالتة وقف غلاب خلفه العاملان وبصوت مصبوغ بالرجاء سأله:

- طال سفرنا حضرة القائد سميث، فكان يجب أن نكون ببورسعيد صباح أمس.

لأن القائد العام لفيلق العمال بمودروس يعرف طبيعة المصريين وهي الاستسلام للأمر الواقع فقرر أن يطرق الحديد وهو ساخن وبما أنهم في عرض البحر فلا مجال للاعتراض

ولديه ما يكفي لرد أي تمرد وإن رأى الأمر يستدعي المواجهة والعنف سيطلق عليهم ويлияم المتعطش للدماء والمستهين بأي إنسان غير إنجليزي، ترك لصدره الفرصة لاحتباس شهيق الغليون ثم زفره دفعة واحدة وخرجت كلماته من بين أسنانه كفحيح الأفعوان:

- لن نعود إلى بورسعيد مستر غلاب.

احتبس سؤال غلاب في حلقه وامتقع وجهه حتى كاد الدم يرعف من أنفه، ابتلع ريقه والغصة تتصاعد لتخنق روحه المهزومة:

- ماذا تقول يا سميث؟

- أنا كولونيل يا رجل ولست عاملاً يعمل بالقروش.

- يا حضرة الكولونيل، وعدنا القومندان صادق بأننا نعود إلى بلدنا بعد انتهاء خدمتنا في مودروس.

- "نيقر"، لم تنته خدمتكم بعد، على العكس، ستجدون عندما نصل رفقاء آخرين ستتعاونون معهم في إنجاز الأعمال.

- عندما نصل أين يا كولونيل؟

- الزموا أماكنكم، وأخبر زملاءك أن أي عصيان سيقابل بالقسوة ولا نتمنى أن يحدث فالميجور ويлияم لن يتهاون معكم.

أنهى الكولونيل سميث تحذيره في الوقت الذي ظهر فيه ويлияم في كامل بزته العسكرية حوله لفيف من الجنود شاهرين السلاح فهز غلاب رأسه في استسلام ولزم رفيقاه الصمت التام واستداروا عائدين إلى بطن السفينة، حين دلفوا منكسرين نهض العديد من العمال وعيونهم تفيض بأسئلتهم التي أجاب عليها غلاب في كلمات مبتورة:

- لن نعود إلى مصر الآن ولا أدري إلى أين تسير بنا السفينة؟

همهم العمال وضربوا كفاً بكف وندت عنهم كلمات عبثية بأنهم سيخربون الدنيا ويفرقون السفينة ويقتلون الإنجليز الخونة، تساءل بعضهم عن القومندان الذي وعدهم أنه سيستقبلهم في بورسعيد وغلاب يقف وسطهم واجماً:

- السفينة مبحرة إلى أوروبا.

علا صوت منصور على أصواتهم جميعاً فقلّ لفظهم واتجهت عيونهم إلى الشاب الأسمر الواقف في ركن قصي فسأله محروس:

- كيف عرفت يا منصور؟

ارتبكت منصور لكنها تماكنت نفسها وسارت نحو أبيها مستحصنة به من عيون العمال التي أكلتها غيظاً من الخبر القاطع:

- ما دامت السفينة لن تعود إلى بورسعيد وتظل تسير في البحر فستقف في مرسى بمدينة أوربية متحالفة مع الإنجليز.

جاء رد منصور على أنه تخمين لا خبر عرفته منذ أن كانوا بمودروس ومتأكدة من تحقيقه الآن فربط العمال بين طول مدة الباخرة بالبحر واستنتاج ابن غلاب النجار وكل منهم أدرك الفخ الذي انطبق بمشفره على نفوسهم الضعيفة وتأكدوا من الابتعاد عن البلد لشهور أخرى وقد يمتد الأمر لسنين إن استطال أمد الحرب، أبدى بعضهم الاعتراض وتهيأوا لمغادرة بطن السفينة فوقف غلاب قبالتهم ليسد عليهم الخروج:

- أرجوكم يا رفاق، بالله عليكم لا تتهوروا ويكون مصيركم الموت ولنا في محمود الجهيني وميخائيل عبدة واللبيب من يتعظ بغيره، سميث وويليام ومن معهما من الحرس

مستعدون لقتل أي إنسان يعترض على خدمتهم ولا نجاة لنا من الموت برصاصهم أو رمينا في المالح.

أنهى غلاب تحذيره الطويل وهو يهز رأسه لوعة ووجهه ينضح بكل آيات الانكسار والخنوع لمصيرهم المجهول، أطرق رأسه وأنهى كلامه بنصيحة أخيرة وهو يقاسي آلام إجهاض أمل العودة:

- احرصوا على حياتكم لحين عودتنا إن شاء الله.

- يا جماعة الخير، المعلم غلاب يريد مصلحتنا ولا مفر.

قالها عوض فتفرّق العمال إلى مضاجعهم أسفين على أملهم المجروش بين حجري رحي مكر الإنجليز وطغيان الغربية، انحاز كل اثنين أو ثلاثة مع بعضهم يتهامسون بما سيواجهونه في المستقبل، ظلوا يتحدثون إلى أن انفتح باب الخُن الكبير ودلف منه الجنود يوزعون عليهم طعام العشاء فعافته نفوسهم وانقضى الليل وهم يضربون أخماسًا في أسداس ومنصورة تتحسّس المسدس المثبّت بنطاق حول صدرها وتخفيه أسفل الجلباب الفضفاض، لأول وهلة استحسنت صنيعها فلو أنها أفصحت عن نوايا الإنجليز وهم بالجزيرة وثار العمال قبل ركوبهم السفينة لكان مصير معظمهم الموت رميًا بالرصاص ولن يجدوا وقتًا لدفنهم وتتعفن جثثهم وتنهشها كلاب مودروس، فحمدت ربها أنها تماسكت ولم تفعل فهم في مأمّن الآن لحين وصولهم لبر السلامة وبعدها يتدبرون أمرهم ويكون ما يكون.

حين خرج العمال من حُن السفينة الواسع؛ لينفسوا عن ضيقهم المكبوت بفعل أوجاع النأي، لحظ غلاب وجوهاً غريبة بزغت من الجانب الآخر، اقترب أحدهم وكان يرتدي سروالاً أزرق متصللاً بالقميص وكأنهما قطعة واحدة ويرفع الكم ليظهر ساعديه المفتولين، ارتبك غلاب لزيادة أعداد الغرباء وأيقن أنهم كانوا محتجزين مثلهم في جانب آخر من السفينة، وجه الرجل الأربعيني مألوف بشاربه الكث وشعر ذقنه غير المحلوق منذ أيام، رسخ في نفسه أن يبتعد هو ومنصورة بل قرّر العودة إلى مأواهما ويؤثر السلامة، همّ بالتراجع فسمع العامل يضرب بيده الزيار الخشبي العريض ويقول في تأفف:

- الصبر من عندك يا رب.

أجفل والتفت إلى الرجل بجسمانه القوي وعيناه تبرقان في قوة، لم يلبث أن شدّ النفس الأخير من سيجارته وألقى العقب في الماء، ابتسامته لغلاب شجعتة أن يقترب منه ويسأله:

- مصري؟

- من هرية رزنة بالشرقية.

- هرية رزنة بلد عرابي؟

- عليه رحمة الله، ومن أسرة عرابي نفسها، اسمي غنيم، وبلدينا؟

- غلاب النجار من بني عيش بمديرية جرجا.

- مرحباً، الصعايدة أولاد عم الشراقة.

- لم أرك في كامب الإنجليز بمودروس.

- كنت في سلانيك، اشتغلت مع غيري في السكك الحديدية، وبعدها أمرونا بركوب البحر وكنا طامعين نرجع بلدنا لكن ما باليد حيلة، أخبرنا القائد أنه توجد سكك حديد تحتاج لعملنا في فرنسا.

- فرنسا يا عم غنيم، بعيدة خالص ويمكن نبقي هناك لشهور طويلة.

- ابني منصور النجار يا غنيم.

- كلنا في قبضتهم ولا حيلة لنا غير تنفيذ الأوامر وإلا...

- الكرباج.

- الرصاص يا غلاب، وقبرك هو البحر.

أطال غلاب التحديق في المياه الرائقة والسفينة تشقها بلا توانٍ وكأنها في سباق مع الزمن للوصول إلى مرساها، مطّ شفتيه والتفت إلى غنيم:

- آه، هجرت بلدي والقدر جعلني أخدم الإنجليز في بورسعيد ومودروس، القومندان المخادع تركنا ورجع وقائدهم يحتال علينا ونهاجر إلى بعيد وأقابل واحدًا من أقارب عرابي، آه على عرابي، أمي لا تكف عن سيرته.

- تقصد تقول: واحد من أسرة الزعيم يخدم الإنجليز، انتهى زمن الزعيم يا غلاب ونجتر في وقتنا سيرته كنيابك مصابة بالجرب.

- قدرنا، على العموم تشرفت بك يا غنيم وأخوك غلاب في خدمتك على الأقل أنت أولى.

- أنا وبقية زملائي في الخُن الكبير.

- بقية أصحابك؟

- مات منا من مات ونحن نحمل الأخشاب وحديد القضبان والزلط لمد السكة الحديد وأعمدة الاتصالات.

سكت غنيم وهوّم برأسه مستأذناً في الانصراف، كدوامات البحر شرد غلاب بتفكيره وطفق يهاتف نفسه ومنصورة جواره صامته تتأمل زعانف الأسماك الكبيرة التي تلاعب الماء فتطفو وتغوص، لماذا أتعجب من موت العمال الشراقة وغيرهم، مات منا الكثير في مودروس، رحمكم الله يا أولادي: حميد وصالح ومحمود الجهيني وميخائيل وغيرهم من شباب البلد، التفتت منصوراً لأبيها عندما نطق بالاسم فسألته:

- من فكرك بميخا يا أبي؟

لاحت منه نظرة لمنصورة أودع فيها كل معاني الشفقة على مصير ابنته وهم في طريقهم لبلاد كبيرة وعلى ما وصلهم من أنباء، فإن المعارك تدور في تلك الأرض بين الإنجليز والفرنسيين وعدوهم الألمان، احتار في قرارة نفسه عن عملهم هناك ففي مودروس كانوا يخدمون الإنجليز وينفذون كل ما يأمر به قائدهم سميث أو غيره ولكنهم منعزلون وبعيدون عن مواطن الخطر، أما بلاد أوربا هذه الأيام فالحرب تحوطها وبخاصة فرنسا التي تأكد أن سفينتهم سترسو بهم هناك.

منصورة تعيش حياة الصمت بعد أن ألزمها أبوها بوجوب عدم الاختلاط بغرباء آخرين غير من يعرفهم من أهل جرجا والصعيد وبقية عمال مودروس من أهل الجنوب، من حين لآخر تختلي بنفسها داخل الكنيف لتستحم بماء البحر الذي يغترفونه بالجرادل الخشبية، راققتها برودة الماء ولذعته الخفيفة وطعمه المر حين تبتلع قطراته، في لحظات كثيرة تنسى أنها بنت وحين طمشت في الأيام الأخيرة وقرب وصولهم للمرسى استخدمت ما تبقى من قطن وقماش نظيف مما تركته مقبولة لها وحرصت أيضاً على لف الزنار القماشي حول صدرها ليبقى ثدياها ملتصقين فصارا أضال من ذي قبل ومسدس ميخا الذي اقتنصه من مخزن سلاح كامب مودروس يستقر بين الأخدود الصغير والزنار المشدود يثبتته.

الأرق ينهشها بمخالبه فلا عمل لها ولغيرها من العمال غير البقاء في بطن السفينة ولا يحسنون سوى الصبر والدعاء بتفريج الكرب وإزالة الهم الذي أظلم بسحبه الدكنا وطالهم بمكر الإنجليز واستدراجهم للرحيل إلى البلاد البعيدة التي تغطيها الثلوج على ما سمعت، الأيام تمر ومعها تنتهي حصّة الخبز الجاف فيقوم رحيم وهزّاع وغيرهما من أهل ما بعد الشلال بصنع خبز الدوكة وتمتلى المواعين بالعصيدة من الدقيق الذي صرفه الكولونيل بلا حساب بعد أن نفذ مخزون الخبز فعليًا، يراقبهم سميث وهم ينخلونه بالغربال ويعجنونه ويقطّعونه أقراصًا والصاج الحديد الساخن يستقبلها فتفوح منها رائحة جعلت معداتهم تزغرد؛ ينبسط لإطعام العمال وجنوده الكثيرين أرغفة لدنة وفي أحاديث نفسه يعجب بمهادنة شدة اقتلاعهم من بلادهم وتحاييلهم للإمساك بتلابيب الحياة.

كنعيب الغربان تنطلق صافرة السفينة وتهدأ اهتزازاتها لرسوها في تودة، الحارس يدلف إلى العنبر ويصدر أوامره بصوت عالٍ سريع، من فورها تنهض منصوره وتلملم أغراضها، استحال العمال إلى طابور مصطفى ينتظر الخروج، غلاب جعل منصوره أمامه فطالعتهم شمس النهار المشرقة، رفعت عينيها لطيور البحر المحلقة، وحين خفضت رأسها حملقت في المرفأ الكبير وازدحام الناس.

- على كل العمال الاتجاه لهذا الجانب، عليكم إفراغ الصناديق من هذا المخزن.

علا صوت ويليام الأجنش بالأمر فنظرت منصوره بحنق بالغ إلى وجهه القميء وودت لو تسحب المسدس وتفرغ رصاصاته في صدره المنتفخ كما فعل بمحمود الجهيني وميخا، تمت بصوت منخفض: لنا عندك ثأريا ويليام المجرم أنت والمحتال سميث، لن أعود لبلدنا دون أخذه.

- اسكت يا منصور وهيا.

أطبق أمر أبيها شفتيها ومشيا نحو المخزن، تراص العمال جوار بعضهم، ومن بالداخل يحمل الصندوق الواحد تلو الآخر ويسلمه للواقف جواره، وهكذا إلى أن اصطف الحمّالون

تجاه السقالات الممتدة نحو الرصيف، الصناديق متفاوتة في الوزن لكنها كثيرة مما جعلهم يمضون قرابة الساعتين حتى أفرغوا حوصلة السفينة تمامًا وبعدها غادر العمال والحرس يطوقونهم من كل ناحية، ساروا في الممر الرئيس إلى أن غادروا المرفأ، منصوره تشاهد بنايات المدينة الجميلة وحدائقها المرتبة مملوءة بالورود الزاهية، صليب كبير يعلو هامة كنيسة وتمائيل منتصبه أمام البيوت القديمة العالية، يصددها الشباب بملابسهم العسكرية يروحون ويجيئون في كل شارع وسحناتهم منحوت عليها القلق، حملت في الحريم بوجوهن المكشوفة وشعر كل واحدة منهن تخفيه بُرنيطة كبيرة وبقيته مرسل على الظهر الفارع، صوت هادر جعلها ترفع عينها لأعلى ولم تلبث أن صرخت وهي تلتصق بأبيها عندما حلقت خمس طائرات على ارتفاع منخفض، أحاطها غلاب بذراعيه وطمأنها، دار بعينه فرأى الكثير من العمال بركوا على الأرض خوفًا لكنهم نهضوا تارة أخرى لابتعاد الطائرات التي رآها غلاب بأجنحتها المزدوجة والمدافع الرشاشة تطل من أحد جوانبها - لولا حرام يا عم غلاب كنت رميتها الطوب.

- ترمي طائرة بها مدفع رشاش بالطوب يا مخبول، اسكت يا عوض وإلا تقتلنا كلنا.
في شدة خفق قلب منصوره وابتلعت ريقها ولم تلبث أن رفعت الزمزية وجرعت الماء، أيقنت أنها مقبلة على بلاد كبيرة وأشياء لم تكن تعرفها، راودها الخوف من تلك الأسلحة التي سمعت أنها تقتل الإنسان من أعلى فلا يستطيع الفكك من الرصاص، ظلوا سائرين إلى أن فارقوا الميناء، طافت بعينها فوجدت العمال كثيرين بعد أن انضم بقيتهم من الخن الآخر بالسفينة والغبار يتطاير من أسفل أقدامهم، ساعة تالية من السير فصمم غلاب على أن يحمل عن ابنته صندوق الملابس، لاحت لهم بنايات خشبية كبيرة تبينت معالمها كلما اقتربوا منها، هناجر أخرى لكنها خشبية وسقوفها مثلثة ففهم غلاب أنها منشأة بهذه الطريقة حتى لا تتراكم عليها الثلوج عندما تتساقط، هناجر المقدمة يقطنها جنود فرنسيون وإنجليز والحقير منها معد لسكن العمال، كل هناجر ملحق به دورات مياه في آخره، كالعادة اقتحم غلاب أول العنابر واختار اثنين من الأسرة الحديدية المجاورة للطريقة

المفضية إلى الحمامات، خطت نحو السرير الملاصق للجدار وألقت الصرة عليه حتى لا يطمع أحد فيه والثاني ركن غلاب الصندوق الخشبي على مرتبته المتربة وكان أحدًا لم يستخدمها منذ شهور، دخل سميت خلفه ويليام، حدّثهم بكلمات عربية متكسرة:

- مرحبًا بكم، معظمكم يعرفني، ستجدون هنا الكثير من العمال الذين سبقوكم وجميعهم مصريون والتعاون سيكون بينكم في إتمام أعمال ستكلفون بها، هيئوا مكانكم للراحة ثم بعدها تكون أوامر أخرى.

كبقية العمال نفضت منصوره المرتبة من التراب، لحظت بقعًا من دماء متناثرة فأدركت أنها فرش لمصابين، قلبت المرتبة على ناحيتها الأخرى وفرشت الملاءة عليها، أراح غلاب جسمه المكدود من قلة النوم، من بقجتها الصغيرة أخرجت عددًا من الأرغفة الناشفة، بللتها بالماء فلانت، قدمت واحدًا لأبيها وفردت ورقة بها القليل من الملح:

- ليكون بيننا عيش ملح.

ابتسم غلاب لتعليق منصوره وهو يقضم اللقمة اللينة، في مرارة فاه كلماته وهو يكرز أسنانه:

- كان الشيخ محسون يضحك عندما يسمع خبرًا لمصيبة أو يروي له أحد وقعة سيئة ويقول: شر البلية ما يضحك.

للطعام صالة كبيرة منظمة، الكثير من المناضد متراصة والكراسي الخشبية أمامها، يدلف غلاب وراءه منصوره، جلسا وقبالتهما غنيم وخطا عوض في سرعة وجلس أمامهم، الأطباق فارغة، اقتحم لفيف من الرجال يحملون مواعين كبيرة ويغترفون من العدس في الصحن وغيرهم يضع الأرغفة، ازداد لغط العمال وهم يتناولون الطعام، ابتسم غنيم

الشرقاوي لمنصورة التي التقطت من الكيس القماشي بصلتين يابستين، قدّمت واحدة له والأخرى الكبيرة شرختها نصفين فتناول منها غلاب وقضم في اشتها.

- الصعيدي صعيدي، بصل هنا في فرنسا، لو أعرف كنت أحضرت فحلين بصل من منفلوط.

- كلّ يا عوض، الأكل هنا له وقت محدد.

ظلوا يأكلون وسط أحاديثهم التي لا تنقطع حتى إذا ما انتهى بعضهم غادروا القاعة الكبيرة فيلتقط كل منهم كوبًا فارغًا يمدّه لرجل عجوز وبالمغرفة يصب له السائل الغامق، تقرص غلاب جوار منصوره يشربان الشاي الساخن فجلس أمامهما غنيم وهو يشفط بصوت مسموع، دون أن يسأله غلاب قطب حاجبيه وهز رأسه والكلمات تتناثر كالهذيان من بين شفّتيه:

- ساقونا للعمل في مد السكة الحديد من الزقازيق إلى الإسماعيلية ورفضنا طريقا طويلا في الصحراء على الجانب الشرقي من ترعة السويس، تحملنا ما لا يُطاق.

- كنت رفضت الشغل ورجعت لبلدك هرية رزنة.

- وإذا كان كل رجال البلد في خدمة الإنجليز، وكيف أرجع وبنادقهم مصوبة لصدورنا، حتى من مات منا احترنا نعيده لأهله أو ندفنه في مقابر بعيدة عن بلده.

- من مات اسمه اندفن في مصر.

- في يوم رفعنا كتلة خشبية كبيرة وسط حفرة لمد خطوط البرق والتليفون، الكتلة وقعت وفرّ كل من حولها لكنها طالت عوَاد، نزلت على دماغه والشاب يا عيني انهرس تحتها والدم عمل بركة حول رقبتة.

- عوَاد دفن في بلده، صالح وميخا ومحمود الجهيني، قبورهم في مودروس.

- آه على عوآء، باع ما ورثه من قراريط قليلة وتاجر مع خواجه إنجليزي وخسر، بعدها مد يده وأخرتها عمل عند الإنجليز ومات وهو يخدمهم.

- عواد هجر أرضه، هو السابق وأنا اللاحق، الفرق بيني وبينه أنه كان صاحب أرض أما أنا كنت أشتغل فيها وأزرع الرمان.

- عن قريب ترجع للزراعة يا عوض.

- يسمع منك ربنا يا شيخ غنيم.

- المهم، قسمونا لفرق وساقونا من الدار للنار وبدل رجوعنا لبلدنا ركبنا السفينة لسلانيك والواحد منا كان يعمل ساعات النهار والليل ولا يرتاح إلا بعد إتمام العمل.

- لكني قابلتك في سفينة مودروس.

- حملتنا سفينة صغيرة وظننت أنا ومن معي أننا نعود لبلدنا لكن يا قلبي لا تحزن، في عرض البحر ركبنا سفينتك.

- فرجه قريب يا عم غنيم، يمكن نشتغل هنا أسابيع أو شهرًا وبعدها نرجع لبلدنا.

- قدّم المشيئة يا منصور يا ولدي، ربنا يسترها ونرجع سالمين، غانمين حياتنا، سمعت أن الألمان نيتهم سحق الإنجليز المتحالفين مع الفرنسيين هنا في فرنسا.

- إذا كانت أوروبا قسمة بين أهلها، ما لنا وحربهم؟

- كلنا حطب الحرب، يهلكوننا في الشغل ونموت وندفن في بلاد غريبة وإذا انتصروا لا ذكر لنا ولا اسم.

- إلهي تحط عليهم الهزيمة ولا يفرح الإنجليز بنصر أبدًا.

قالتها منصوره بضراعة أنثوية خالصة مما لفت نظر أبيها فتجهم وجهه مخافة أن تسترعي نبرتها انتباه غنيم، التفت إليه فرآه يضيّق عينيه الملونتين ويحملق في أشباح قادمة من بعيد ورغاء ممطوط يتناهى لمسامعهم من آن لآخر، نهض عوض وعبدالمعين الصامت طوال الوقت، جوارهما غلاب وفرد كفه أعلى حاجبيه، ثلاثة جمال قادمة في بطاء يعقبها مثلهم، يمتطيها هجانة كالذين رأهم أكثر من مرة في بني عيش أو جرجا نفسها، تهلل للوجوه السوداء القادمة نحوهم، حوّمت حوله سحب من الدهشة لوجود الهجانة هنا قرب مرسيليا، ابتسم له غنيم وسار نحو السرية التي ازداد عددها كلما تقدموا إليهم، أمام المقر الخشبي للقائد الإنجليزي سميث والقائد الفرنسي الآخر جوستاف أناخ قائد الهجانة فحله وسارع آخر للإمساك بالحبل الليفي الغليظ، دخل باب الغرفة الكبير ولم يتوان العمال في الالتفاف حول العساكر وهزاع ورحيم وغيرهما يسلمون عليهم ويتجادبون معهم عبارات الترحيب القصيرة، قفز أحدهم من فوق جملة دون أن يبرك، قدّم إليه غنيم سيجارة فأخذها الرجل مبتسمًا، تجرأ غلاب وسأله في لهفة متمنيًا أن يفهمه ذلك السوداني ذو العود الفارع ويتبادل معه الحديث لأنه يعرفهم جيدًا فهم يلتزمون الصمت وجادون ولا يستمعون لأحد:

- أنتم هنا من زمن يا زول.

- زول! تظنني سودانيا يا رجل؟ أنا من كوم أمبو.

في خليط من السرور والدهشة اتسعت عينا غلاب للجنوبي بلهجته المميزة لأهل أسوان فمدّ يده مصافحًا:

- أخوك غلاب من جرجا.

- أهلا وسهلا، أنا حسن أما القائد سعيد فمن دنقلا وهو أومباشي وأنا أعمل معه.

- تقصد؟

- عامل مثلي مثلك.

- هدومك وهيئتك كالعساكر.

- عما قريب تستلم مثلها و...

بتر كلمته خروج الأومباشي من غرفة القائد، ألقى بأوامره لحسن وبقية قواد الجمال
فالتفوا عائدين إلى نهاية المعسكر الكبير فانتاب غلاب الضيق لابتعادهم لكن غنيم ربت
على كتفه وهو يطمئنه:

- سيبقون هنا لأيام، عملت مع غيرهم في مصر وأعرف مهمتهم، بالليل نزورهم ونتكلم
معهم.

صدق رأي غنيم الشرقاوي فشاركتهم فرقة الهجانة صالة الطعام وانبسط غلاب من جلوسهم أمام المنضدة الكبيرة المقابلة لهم حتى إذا ما فرغوا من تناول العشاء احتسوا معًا الشاي، الأومباشي سعيد يجلس أمامهم في المقدمة، يرفع كوبه في هدوء:

- مرحبًا حضرة الشاويش سعيد، يجعل أيامك كلها سعيدة.

- مرحبًا يا كبير العمال.

- كبير العمال، أنا؟

- ألم تكن كبيرهم في مودروس على ما بلغني؟

- لكننا هنا كلنا في غربة ونصبر حتى نرجع لبلدنا.

قالها غلاب في تضرع شعر به سعيد فركن كوبه وحدّق بعينيه الواسعتين في وجه غلاب وتهيأ ليفصح له عن مهمتهم والأوامر التي تلقاها من القواد الإنجليز بشأن فرق العمال، أشعل سيجارة وخرج صوته رفيعًا حادًا كأنه ينفثه من جوف زلعمه:

- اسمع يا شيخ غلاب، ما دمت فتحت السيرة يبقى وفرت عليّ الاجتماع بكل العمال وإخبارهم بالأوامر.

- أسمعك يا أومباشي.

- مهمتكم هنا قد تطول لعام أو عامين في مواجهة الألمان.

- وما لنا والألمان وغيرهم؟!

قالتها منصوره المقرفصة جوار أبيها وهي منتبهة لما سيفضي به قائد فرقة الجمّالة،
فالتفت إليها سعيد متفرّسًا وجهها المائل للسمره فارتبك غلاب من تدخل ابنته في الحوار:

- ابني منصور النجار.

- اسمع يا غلاب أنت وابنك، عليك مهمة إخبار فرقة العمال أنهم سيقومون بكل ما يُطلب
منهم من أعمال.

- كنت في مودروس أصنع الصناديق.

- هنا الأمر مختلف، قبل حضوركم نقل عمال مصريون وجزائريون وهنود ثلاثة آلاف طن
من باخرة المهمات، وفي يومين اثنين أفرغوا سفينة كبيرة تحمل ستة آلاف طن من
الشوفان، بمعاونة الهجانة ستشقون الطرق وتمهدونها وتنشئون الدفاعات وتحفرون الآبار
والخنادق.

- ونقيم أعمدة الاتصالات ونعمل في السكك الحديدية كما فعلنا في سلانيك.

- وتمدون الفرق المقاتلة بالمعدات والذخائر والأقوات.

قالها سعيد وهو يرمق غنيم الذي دخل في الحوار ويدخن سيجارته بشراهة وصوت
رشقاته للشاي يسترعي انتباه المحيطين بهم.

- ما لنا وهذا كله؟!

- أمر ملزم يا منصور، اتفقت الحكومة الإنجليزية مع حكومة صاحب الجلالة السلطان
حسين كامل على ذلك.

- لكن يا شاويش سعيد، سمعنا ونحن في مودروس أنهم انكسروا أمام جيوش السلطان
محمد الخامس وأصابتهم مقتلة عظيمة.

- اسكت يا غلاب ولا تكرر ما قلت، هنا يخفون هزيمتهم في جاليبولي؛ حتى لا يُصاب جندهم باليأس وفي حال القضاء على عدونا الأكبر الألمان وحلفائهم سنتقاسم مع الإنجليز فرحة النصر ويرحلون من بلادنا.

- يا فرحتنا، الله أعلم من سيبقى منا حيًا ليشاركهم فرحة النصر.

في لهجة مفعمة بالسخرية عقب عوض على كلمات سعيد الأخيرة فرمقه الأومباشي بلا مبالاة ثم ثبت عينيه في وجه غلاب:

- نحن هنا في بلادهم يا شيخ غلاب، لا مفر من تنفيذ أوامرهم، من كتبت له السلامة يرجع.

- ومن يموت؟

- عليه رحمة الله.

أنهى الأومباشي سعيد حوارهِ ونهض من فورهِ فتأملت منصوره قامته المتوسطة وجسمه الممتلىء بعض الشيء، على رأسه طربوش والوحيد هو من يعلق بندقية قصيرة على كتفه، أما بقية من يقبضون على ألجمة فحولهم فإنهم غير مسلحين ففهمت أنه الحارس وغيره عمال.

نهض غلاب ودوامات من حيرة تتقاذفه، ودّ لو يطبق بكتتا يديه على رقبة سميث الملعون، واتسعت دائرة تفكيره أن يحاكم القومندان صادق الجركسي الكاذب على خداعه لهم وفراره بجلده وعودته إلى مصر وتركهم في مودروس لسميث وويليام وغيرهم يتحكمون في أقدارهم، وها هم في فخ وأي فخ بعد أن انقطعت بهم سبل العودة إلى مصر وابتعدوا عن ميناء مرسيليا نفسه واحتجزوا في ذلك الكامب الكبير للعمال، وعليه أن يقنعهم بالتزام الطاعة حتى يواجهوا الموت بين رحي حرب الإنجليز مع الألمان بصدور راضية، التفت إلى غنيم وهو يغالب انكساره، تلاقى رموشه ولم يلبث أن انفرجت فظلته غيمة من الكآبة، خرج صوته متشنجًا وهو يطلب في رجاء:

- اجمع العمال يا غنيم في البراح قدام صالة الطعام.

تمدد غلاب على سريره، أدار رأسه نحو منصوره فوجدها مستلقية على جنبها الأيمن ووجهها للجدار، تغطي جسمها كله بالبطانية، من بعيد الشعلة الوحيدة الموقدة جوار باب العنبر تصارع من أجل البقاء فتأملها غلاب وضوؤها يتراقص، طفق يفكر في كل كلمة قالها أمام العمال ولام نفسه أنه دفع دفعًا للاشتراك مع الإنجليز في إقناع رفاقه بوجوب الطاعة في كل الأعمال التي وكلوا بإنجازها، لكنه مدح رأيه الذي أفرده عليهم بوجوب المحافظة على حياتهم حتى يكتب الله لهم العودة بعد إتمام مهمتهم التي لا يدري أحد متى تنتهي، غمغم في خفوت: من جعلنا نغادر مودروس في سلام قادر على أن ينجينا من الهلاك في فرنسا، هم أن يربّت على كتف منصوره ولكنه خشي أن يوقظها فسحب البطانية وغطى رأسه.

شعرت منصوره بقلق أبيها فلم ترد أن تشق عليه في عتابه لأنه استغل محبة العمال له وأسرف في إقناعهم بمعاونة الإنجليز ودعت ربها أن يلهمهم الصبر والتحمل حتى العودة، وعزاؤها أن سرية الهجانة بالقرب منهم، عرفت من حسن الأسواني أن الكثير منهم ينقلون المهمات إلى بلد تذكرت اسمها الغريب بعد أن كررت: جرونوبل وأن الجميع سيلحق بهم عند مدينة كبيرة اسمها ليون، وعرفت أن الكثير من العمال والهجانة سيصلون تباغًا فقوي الأمل في نفسها أن تستقبل الوافدين ويحدثونهم عن مصر ويستأنسون بهم لحين رجوعهم، لساعتين ظلت مؤرقة فعبثت أصابعها بما في الكيس الجلدي السميك، أخرجت مصحف صالح وأجبية ميخائيل، زمّت الكتابين إلى صدرها فشعرت بالاطمئنان يحوط قلبها، ترجرجت ذاكرتها إلى الماضي البعيد حين كانت تذهب إلى كتاب الشيخ محسون

ببني عيش وحفظت على يديه الكثير من السور فتعلمت القراءة والكتابة وحساب الأعداد، لكنها لظمت البيت بعدما كبرت وغاب الكثير مما وعته في غياهب النسيان وارتحال أبيها إلى الإسماعيلية بعد موت أمها، لا تزال تتذكر كيف تنطق الحروف والكلمات وحين تفتح المصحف تقرأ فيه، انبسطت من نفسها حين طفر وجه مقبولة الشامية في ذاكرتها فقد علمتها بعض الكلمات والجمل الإنجليزية، لكنهم الآن في فرنسا ولا تجيد الرطن بالفرنسية فستحاول من حين لآخر التقاط أي عبارات للتفاهم حتى تدرك ما هم مقبلون عليه، رضاء كبير راودها حين توصلت إلى هذا التفكير فتلاقي جفناها ولم تدر متى أطبقتها وقطع النوم البقية الباقية من الليل.

اعتادت لفظ العمال الكثيرين أثناء تناول الطعام، الجمال حسن ينهي إفطاره ويميل على أذن غلاب فيوسوس له، خرج دون أن يحدث منصوره، لا تدري لِم صوّبت نظراتها إلى الباب الكبير المفتوح آخر صالة الطعام ففغرت فاها للفتاة التي لا تتوقف عن غرف الفول في الأطباق وتسليم الأربعة للعمال والجنود على السواء، والعجوز السبعيني جوارها يستحلب عمود الخشب القصير في فمه ومن حين لآخر يتلوّى الدخان من منخاره الرفيع وينشغل طوال الوقت في إعداد المزيد من الأطباق، أنهت طعامها ونهضت في جراحة متعمدة تحمل الطبق وتذهب إلى المطبخ الكبير، قلبها يخفق وهي تقترب من بنت لم تر مثلها منذ شهور، اتسعت خطواتها حتى وقفت قبالتها وبينهما منضدة عريضة، قررت أن تتفاهم معها بلغة الإشارات إن أمكن لعل الفتاة تفهمها، ما إن مثلت أمام العجوز القصير بلحيته الرفيعة الصهباء حتى رنت في أذنها كلمات لم تتخيل أن تسمعها من الفتاة:

- تريد المزيد؟

توالت ضربات قلبها وهي تحمق في البنت ذات الشعر المنسدل وتعصب رأسها بشال أسود خفيف، أوشت أن تتخلى عن حذرها وتفصح عن نفسها فتسلم على الفتاة أو تحادثها

حديث البنت للبنت لكنها أحجمت في سرعة، زاغت نظراتها واتسعت ابتسامتها وهي تقول
في صوت يكسوه الجدية:

- تتكلمين العربية؟

- ما طلبك يا ولد؟

هذه المرة سألها العجوز وهو يحسب الشاب الأسمر بوجهه المائل للدمامة يتودّد إلى ابنته
فأراد رده كما فعل مع أمثاله الغرباء، التفتت إليه منصوره وانفراج شفيتها يبرز أسنانها
النافرة:

- الشاي.

- في الخارج.

بحزم قالها العجوز وهو يشير نحو باب المطعم وجليونه لا يفارق فمه المعوج، أمسكت
منصورة بكوبها واستدارت خارجة من الصالة الكبيرة، دارت بعينيها تبحث عن أبيها
فأجابها غنيم الشرقاوي دون أن تسأل:

- أبوك في مقر القيادة يا منصور.

هزّت رأسها وتعمدت أن تتأخر عن شرب الشاي لحين انفضاض العمال من حول الإناء
الكبير، والفتاة وأبوها يصبان في الأكواب بمغرفة كبيرة فتتحيّن فرصة للحديث معهما وقد
داخلها اندهاش من فرنسيين يتكلمان العربية، ظلت جالسة أسفل مظلة خشبية حتى رأت
العمال جميعهم تفرقوا لشرب الشاي وبعضهم عاد إلى عنبر النوم، نهضت من فورها وخطت
نحو المنضدة الكبيرة، بصت في الماعون فابتسمت الفتاة الفرنسية وهي تجيب:

- فرغ، انتظر وسأغلي المزيد.

وجدتها منصورة فرصة لأن تتحاور مع البنت وبخاصة أن أباه تركها وعاد إلى مواعين المطبخ، دون أن تقترب قالت:

- تتكلمين العربية؟

- أنا مولودة في الجزائر.

- جزائرية؟

- فرنسية لكن أبي كان يعمل طباً في فندق بمدينة وهران، تعرفها؟

- الحقيقة لا، واسمك؟

- جوليانا وأبي الطباخ ليان.

- وأنا اسمي منصور.

استدارت جوليانا في اللحظة التي نطقت منصوراً باسمها صراحة فعضت شفتها وخفق قلبها في شدة خشية أن تكون الفتاة سمعتها، لكن جوليانا المنشغلة في تنظيف المواعين والأكواب عادت ووقفت قبالتها ساكته، فأردفت منصوراً في محاولة لتصحيح اسمها:

- أنا منصور النجار.

لم تعلق جوليانا فافترت شفتها منصوراً عن ابتسامه كشفت قبح أسنانها، فطفر في ذاكرتها أن كلمة ليان تعني السجن فكان إذا ما اغتاض أبوها من أحد وهم في بني عيش كان يردد: أقتله وأدخل فيه اللومان، وكان الشيخ محسون يصح له الكلمة بأنها ليان وليست لومان، لم تبال جوليانا بانبساط وجه الشاب الأسمر ذي العمامة الملفوفة على رأسه، ولزمت الصمت وهي تصب له الشاي المغلي برائحته الفجة، رغبت منصوراً في إطالة الحوار فأردفت قائلة:

- ولماذا جئتم من الجزائر؟

- أقولها بصراحة لك يا مكسور؟

- منصور، منصور ابن غلاب النجار.

- مع أن أبي طباح إلا أنه قرأ الكثير من الكتب وكان يعارض في شبابه شدة الجنود الفرنسيين مع أهل الجزائر وخصوصًا القبائل في جبال الأوراس.

لم تفهم منصوره الكثير مما قالته جوليانا لكنها أدركت أن ليمان الطباح العجوز لم يرض عن معاملة جنود فرنسا لأهل الجزائر، أكملت جوليانا وفي دواخل نفسها شعور جارف ورغبة في تبادل الحوار مع العامل الأسمر الصغير وأحسّت أنه مختلف عن بقية الغرباء الذين تعاملت معهم في الشهور السابقة منذ تكليف أبيها بمسئولية مطبخ الكامب، التفتت يمينًا وشمالًا وقربت وجهها من منصوره:

- أنا أصغر إخوتي والباقية التي لم أتزوج للآن وأساعد أبي كما ترى.

- وأمك؟

- ماتت ودفنت في الجزائر، آخر مرة زرت قبرها من عامين وبعدها قرر أبي عدم الذهاب مرة أخرى لوهران مع أنه عاش أربعين سنة بها، ولنا بيت في ليون.

- وإخوتك؟

- بنتان أكبر مني، واحدة هاجرت مع زوجها إلى أمريكا، والوسطى هاجرت مع زوجها إلى إفريقيا وماتت هناك.

ابتلعت منصوره ريقها، رفعت ذراعها الممصوص ورشفت الشاي بصوت مسموع فمطت جوليانا شفيتها مستاءة من الشاب الجنوبي لكنها تعجز عن منع نفسها من الثرثرة، بعينها

الضيقتين رمقتها منصوره وباغتتها:

- وحربكم مع الألمان على ما نسمع؟

- أتوقع حرباً شديدة مع الألمان لأنهم توغلوا في أرض بلجيكا، من شهور والجيش كله يحاربهم في الشمال عند نهر السوم، سمعنا عن أشياء يشيب لها الشعر، لكن الجيوش المشاركة مع جنودنا والإنجليز وأستراليا وكندا وغيرهم حاربوا بقوة وضحو بآلاف وآلاف من الجنود لوقف تقدم جيش القيصر، لكن المعركة ستكون بعيدة عن باريس.

- باريز؟

- باريس، ويمكن العمال والجنود يرحلون إلى هناك.

- نرحل ثانية، اعتقدت أن عملنا هنا وبعدها نرجع لبلادنا.

أطبقت جوليانا شفيتها وهزت رأسها ونظراتها سارحة في لا شيء، فردت سبابتها أمام وجه منصوره وهي تقول مؤكدة:

- لا عودة لأحد من العمال أو الذين يركبون الجمال إلا إذا انتهت الحرب، القائد يحتاج لكل قادر على العمل والجيش رحل نحو الشمال وسيحتاج بكل تأكيد إليكم.

- تقصدين أننا سنسافر إلى أبعد من جرونوبل.

- وعرفت جرونوبل؟! نعم يا مكسور ابن قلاب سنرحل أبعد من ليون نفسها.

التمعت الدموع في عين منصوره ولم تفكر في تصحيح الاسم لجوليانا فهزت رأسها واستدارت مبتعدة في الوقت الذي رأت فيه العجوز ليان مقبلاً نحو منصّة الشاي، عادت تكرر اسمها بلسان جوليانا: مكسور بن قلاب، نعم أنا مكسور أو مكسورة الخاطر وأبي الآن يقلب الحقائق حتى لا يُعرض العمال لخطر السجن أو القتل إن لم يطيعوا الأوامر.

في لهفة دارت بعينيها تبحث عن أبيها لتخبره بما عرفت من مصيبة رحيلهم بعيداً جداً عن
مرسيليا فرأته يخطو بمفرده يتلفت حوله، اتجه إليها ومال عليها بوجهه الممتقع وهو
يخبرها في أسي:

- سنرحل إلى الشمال يا منصوره فاستعدي.

لم تر منصوره كامب العمال أكثر انتظامًا مثل ذلك الصباح، فقد انشغل أبوها عنها بالإتمام على خروج رفاقه جميعهم بعد أن لملموا كل ما يحتاجونه ونصحهم بحمل البطاطين والمعاطف تحسبًا للبرد المقبلين عليه وهطول الأمطار، تفننت في رص أشياءها بزكينة كبيرة وربطتها جيدًا ثم أطالت الحبل المفتول من الليف ولفته حول صدرها فشعرت بثقل الزكينة على ظهرها، لكن أصبحت حركتها متيسرة بدلًا من حمل الكيس على الكتف أو جرجرته على الأرض، لم تبتزغ الشمس بعد حين علا البوق وبدأ الكامب كله في المسير، مشت منصوره جوار غنيم الشرقاوي أمامها عوض يدندن كعادته، من بعيد رأت في المقدمة الجمال وقائدهم سعيد يتقدمهم على سنام فحله القوي، القواد سميث وويليام وموريس وجوستاف وغيرهم من الفرنسيين يمتطون سهوات الخيول، الغبار يتطاير من حولهم فالتفت للخلف، رأت في المؤخرة العجوز ليمان وجوليانا يعتليان عربة تحمل مواعين إعداد الطعام يجرها بغلان قصيران، أيقنت أن أباهما في الصفوف الأمامية مع العمال، غادروا المعسكر فالتفت إلى مهاجهم المهجورة لتلقي عليها نظرة أخيرة، تارة أخرى اصطدمت نظراتها بجوليانا فتمتت أن ترافقها وتستأنس بكلامها عن وهران وألقت نظرة احترام للعجوز ليمان ورفضه للظلم الواقع على أهل الجزائر التي عاش فيها كما أخبرتها ابنته.

الزكينة ثقيلة فعرض عليها عبدالصمد الفرشوطي أن يحملها على كتفه فامتنعت لما رأت من حمله الثقيل على ظهره، تمتت أن تبطئ كي تجاور عربة جوليانا فتركب معها، بثت عندما تحولت أمنيتها لحقيقة، أسرع عربة الطباخ وبقي أن تنتقل لناحية اليمين فتكون جوارهما مباشرة، دقائق وسارت بمحاذاة البغلين القويين، الطريق متعرج والأحجار متناثرة، داست العجلة على صخرة فارتفعت العربة وهبطت في قوة فانخلع سورها الخشبي ولولا إمساك ليمان بالأواني لتبعثرت على الأرض، شدت جوليانا لجام البغلين

فجفلت سيقانها وتوقفت، لم تضيّع منصوره الفرصه وأنزلت الكيس الكبير، في سرعه فتحته وأخرجت القدوم وعدة مسامير، نطت جوليانا ورفعت الألواح المنكسره فأشارت منصوره لها أن تعيدها وشرعت تدق المسمار تلو الآخر مثبتة سور العربه لمكانه بأقوى من ذي قبل، عادت جوليانا لقيادة العربه ولحظت ثقل الزكيبه على ظهر منصوره السائره جوارها في تمهل، أشارت بيدها فخلعتها منصوره وألقت بها جوار الموعين النظيفه وارتقت العربه في سرعه وليمان القاعد في الوسط يدقق النظر في هيئه الشاب الشهم وهو يعب من دخان غليونه الطويل:

- مرحبًا منصور، أنطقت اسمك بشكل صحيح؟

خفق قلب منصوره وودت لو تميل على أذن جوليانا وتخبرها أن الراكب جوارها بنت مثلها وأصغر منها بسنوات قليله فلا تتحفظ أو تخشى الاقتراب، في صمت رافقت اهتزاز العربه بعجلاتها الخشبيه، ولمحت بطرف عينها عيون رفقاء العمل القدامى الذين كانوا معهم بمودروس وهم يحدقون بنظرات الطمع في مجلسها المريح فرأت اثنين منهما يتهاامسان فأدركت أنه يقول لرفيق سيره: صبي الممرضه الشاميه في مودروس سيكون صبي الطباخ وابنته.

الحداد عبدالمعين الأزهرى نظراته تستنكر قعود ابن النجار جوار فتاة فرنسيه، اشتاقت لتعليق عوض المنفلوطي وتلاعب قسمات وجهه التي تثير ضحكها فرأته يسير بعيدًا، لم تبال بمن حولها وودت لو تجد أباه وتركبه معها في العربه بدل السير المضني، أرادت أن تفتح كلامًا مع جوليانا فوجدت نفسها تسألها:

- سيجاره العم لومان لا تنتهي؟

- اسمه ليमान وما يدخنه ليست سيجاره إنها "بايب" والعرب يسمونها غليوننا، وأبي دائمًا يضع القليل من أعشاب الدخان في فتحته ويشعلها ويسحب أنفاسه وعلى كلٍ هو ضار بصحته فإنه يسعل بشده.

أجابتها جوليانا، وكالبرق مضت بين تلافيف ذاكرة منصوره هيئة الباشا التركي عندما كان يرتقي عربة تجرها الخيول تسرع به في الطريق الزراعي خارج بني عيش، بعد انتهاء يوم كتاب الشيخ محسون كانت تلعب مع أندادها حول شجرة سنط عجفاء تميل ناحية الترعة قبل عودتهم فمرقت تلك العربة بالرجل السمين الذي لا تتذكر وجهه لكنها رأت ذلك "البايب" الذي لفظت به جوليانا يمتد من فمه ويلمع في شمس عصر ذلك اليوم البعيد:

- ما يستعمله أبي غليون بلوطي أصلي.

- بلوطي؟

- مصنوع من خشب البلوط في مصانع سان كلود الجبلية بجبل جورا.

لم تع منصوره الكثير مما قالته جوليانا وأدركت أن ما أخبرتها به في سرعة هو تفسير لمكان صناعة تلك السيجارة الخشبية الكبيرة، أرادت أن تدير دفة الحوار بمعرفة هذه العائلة فسألت:

- والعم ليمان عمل كثيرًا في الجزائر؟

- أربعين سنة، أنا نفسي ولدت هناك كما قلت لك، عمل طبأًا في فندق قرب جبل مرجاجو بوهران وبعدها استقر في العمل بفندق آخر مجاور لباب وحصن المرسي، عشت معه بعد زواج ماجي وهجرتها إلى أمريكا وانقطعت أخبارها، أما أختي مهرة فسافرت مع زوجها التاجر إلى وسط إفريقيا وسمعنا من أحد العائدين من هناك أنها أصيبت بحمى شديدة وماتت، بقيت مع أبي في وهران إلى أن وقعت حادثة جعلته يهجر وهران والجزائر كلها ويعود إلى بلدنا ليون.

- حادثة؟

- في يوم خرج جنود من الفندق سكارى يتخبطون وأراد أحدهم أن يختطف فتاة من أبيها ولما دافع عنها أطلقوا عليه الرصاص وهاج أهل الضاحية عليهم وهربوا، أبي خرج من الفندق على أصوات الصياح وعندما استدعوه في المحكمة وقبل أن يدخل طلب منه القائد أن يكذب ويقول أن لصوصًا هم من أطلقوا الرصاص وليس الجنود.

- أرادوا أن يشهد زورًا!

- وحق العذراء مريم لم يقبل أبي ولم يأت علينا الليل إلا وكنا في السفينة المسافرة إلى مرسيليا.

صمتت جوليانا فالتفتت منصوره للخلف، ابتسم لها الطباخ العجوز وانكشف قرب فراغ فمه من الأسنان، زفر نفسًا ممطوطًا ولم يلبث أن رفع غطاء الإناء وأخرج منه رغيًا وقطعة لحم مقدد وقدم الطعام إلى منصوره، مديده برغيف آخر إلى جوليانا فتناولته وبدأت تأكل في نهم، لفت نظرها تردد منصوره في تناول قطعة اللحم فمالت نحوها وهي تقول مؤكدة:

- اقضم وأنت مطمئن يا منصور، اللحم بقري لا لحم خنزير.

ابتسمت منصوره وطفقت تأكل حتى أنهت الرغيف وهبرة اللحم المتبلة التي تشهتها معدتها بعد انقطاع دام شهورًا.

ظلت قافلة العمال تنتقل حتى اقتربت من أجمة أشجار فتباطأت المقدمة وتقدم عدة رجال يشهرون البلط الحادة ويقطعون بها أفرع الأشجار والشجيرات الصغيرة، وانضم إليهم الكثير حتى هياوا طريقًا اخترقته الأرجل السائرة بلا توان، ما إن تخطت مؤخرة الفيلق حتى التفتت منصوره في قوة وزاغت نظرات جوليانا، نهض الطباخ العجوز يستطلع الأمر، طلقات سريعة ومدوية رشقت الجمال السائرة في الأمام فانتفضت وحدثت جلبة، تفرق الرجال وجثوا على ركبهم محتمين من دفقات الرصاص المنهمرة فوق رؤوسهم، التصقت منصوره بظهر جوليانا فوقفتا وسط العربة وليمان يزعق فيهما أن يخفضا

رأسيهما، من بعيد تعلو صافرة سميث ويلقي ويليام وجوستاف الأوامر للحرس أن يطلقوا النيران فوجّه الجنود مدافعهم الرشاشة تجاه المهاجمين، ظلوا يطلقون أسرطة الرصاص ويخطون في توجس إلى أن تعقبوا العدو المجهول داخل الغابة فنهض العمال ووجههم مرتعبة ولا يزال الرصاص يطلقه الجنود في كل مكان، التفتت جوليانا إلى منصوره فوجدت الدموع تغرق خدها المرتعش وتحاول أن تقفز من فوق العربة وليمان يمنعها:

- أتريد أن تموت يا ولد، اصبر.

لم تلتفت منصوره إليه ونزلت في سرعة وكل تفكيرها منحصر في الاطمئنان على أبيها، تعقبته جوليانا وهي تجري متحاشية الاصطدام بالعمال الهائجين وتنادي عليها: منصور انتظر، قف وإلا ستصاب.. لكن منصوره لم تستمع إلا لنداء الجزع على أبيها ولامت نفسها أنها لم ترافقه طوال الساعات الفائتة، اقتربت من موقع المعركة والعمال تناثروا في دائرة كبيرة وصيحاتهم لم تتوقف، صرخت منصوره حين أبصرت أباه يميل بظهره على صدر غنيم الشرقاوي والدماء تنزف من كتفه، أقعت قبالة والدموع تغرق وجهها الملتاع، ارتفع صوت سميث عاليًا:

- هدوء، التزموا الهدوء يا عمال، المجرمون هربوا وجارٍ مطاردتهم.

زعق بها الكولونيل في عربية واضحة حتى يسمعه الجميع، ظهر الميجور ويليام والعرق يتصبّب على جبينه والمسدس في يده، حاور قائده بالإنجليزية فأشار إليه سميث أن يتكلم بالعربية:

- مجموعة من قطاع الطرق سيادة الكولونيل وتم قتل أربعة منهم وفر الباقون وجنودنا يلاحقونهم.

- احصر لي الخسائر يا ميجور أنت والقائد جوستاف.

نهض غلاب والدماء تخضب جلبابه وكفه على كتفه، جواره منصوره تقوس ذراعها حول وسطه وبمنديل قماشي تمسح عرقه، دار غلاب بعينيه فعدّ ثلاثة مصابين غيره أحدهم يتأوه في شدة لكن العيون كلها صوّبت نحو الفحل الراقد على الأرض ورقبته ممدّة والدماء ترعف من عدة ثقوب بجسده ولا يزال خفه ينتفض ويضرب الأرض، انفجر الأومباشي سعيد في المحيطين به وركع على ركبتيه نحو جسد حسن الملاصق لرقبة جملة ووجهه منكفى، أبعده قليلاً فرأى عينيه تجحطان نحو الفضاء، تداخلت أصوات العمال بين محسبن ومحوقل وقارئ للفواتح والصمدية.

- إنا لله وإنا إليه راجعون، مات حسن جوار جملة.

- قلت أحص الخسائر يا ميحور.

- ثلاثة جرحى وقتيلان حضرة الكولونيل.

بعينيه مسح الكولونيل البراح وابتلع ريقه وهو يحادث القائد موريس بلغة فرنسية سريعة ثم التفت يستكمل أوامره للميجور ويليام، التفت إلى غنيم وغلاب وغيرهما من مقدمة العمال ورفع صوته وهو يأمر:

- سنبيت هنا أيها العمال لمعالجة الجرحى، وتأمين الطريق وللاستراحة وأيضا كي ندفن الميتين من فرقة الهجانة.

- أصبحوا ثلاثة حضرة القائد.

بحزن مطبق قالها الأومباشي سعيد وهو يهؤم برأسه ويشير إلى أحد المصابين من فيلق عمال مودروس القدامى فهز الكولونيل رأسه، في أسى خطأ نحو غلاب، فحص جرحه وابتلع ريقه وابتسامة صفراء تفتربها شفتاه:

- جرحك سطحي يا كبير العمال وسيشفى سريعًا، هيا أيها القائد أريد حراسة على فرقة العمال وأعدوا المعسكر للمبيت.

- نبيت هنا يا كولونيل في الطلّ؟

ألقي غنيم بسؤاله فرفع سميث حاجبه أمارة عدم فهمه للفضة الأخيرة، تأوه غلاب وهو يفسر للقائد:

- يقصد أننا هل ننام هنا في الطريق دون أغطية أو...

- الجو معتدل يا غلاب وسنقضي الليل فقط، وستحضر فرقة كاملة من الجيش الفرنسي لحراستكم، اجعل العمال يفرشون بطاينهم للراحة وقبل شروق الشمس سواصل.

استدار القائد سميث وانصرف في الحال، في سرعة فرد الجنود أقمشة سميكة كي ينصبوا خيمة القائد، التفت غلاب إلى الجمل البارك ولسانه خرج من بين مشفرية الكبيرين..

- من يعرف الذبح؟

تقدّم إليه اثنان، واحد يعرفه فهو مصطفى العامل معهم منذ أيام مودروس والآخر من فرقة عمال سلانيك، أحضر الطباخ ليमान من عربته الساطور الكبير وعدة سكاكين.

- لا ننتظر حتى يموت ونتركه يتعفن وتنهشه كلاب السكك، اذبحوه، العمال أولى به، هذا بعد إذن الأومباشي سعيد.

هوّم سعيد برأسه وبيده مسح دمعة فرت من عينه، تفرّق العمال وشرع كل منهم في فرش بطانية في مكانه للراحة، جرّ غنيم غلاب من يده إلى ظل شجرة بعيدة وأشعل شمعة كبيرة لتضيء المطرح، لحظ غياب منصوره ولكنها عادت في سرعة خلفها عوض وبيدها كيس الإسعافات، فتحتته وأحضرت جوليانا الماء، كشف غلاب كتفه مثل المصابين الآخرين، جوليانا تنظف جراهم بالماء وعينها لم تفارق وجه منصوره وفي دواخلها أسئلة

لا حصر لها، أخرجت منصوره قنينة المطهر، عوض العابس طوال الوقت يمد يده بخرقة قماش، بللتها بالمطهر ونظفت جرح أبيها فأمرها بمداواة غيره، لم تفتر همّتها حتى لفت إصابتهم بالأضمة النظيفة وحمدت ربها أن أحدهم لم تخترق الرصاصات جسمه.

- يا عبدالمعين، يا عبدالمؤمن، ولد يا عبدالمؤمن.

- نعم يا عم غلاب.

- أحضر الماء لتغسل الميتين وكفنهم بملاءات نظيفة واختر من يحفر قبورهم هناك أسفل الشجرة الكبيرة.

- أمرك يا عم غلاب، لا تحمل همًا، معي يا عوض.

في نشاط انصرف الشاب لينفذ كل ما أمره به غلاب، لملت منصوره عدة التمريض في الكيس ووقفت جوار جوليانا تتأملان الجزارين وقد فصلا رقبة الجمل وشرعا بمعاونة غيرهم في سلخ جلده السميك، لم تطق المنظر فجذبتها جوليانا من ذراعها نحو العربة التي أحضرها ليمان بالقرب من موقع ذبح الجمل، ساعدتها في ركوب العربة والشمس في طريقها إلى الأفول، أطالت التحديق فيها ودون أي مقدمات ألقت عليها بالسؤال:

- أنت حقيقة ولد أم بنت؟

- توقعت أنك بنت.

في جلستهما المنفردة باغتتها جوليانا بالحقيقة وانتظرت رد فعل منصوره التي أسبلت جفنيها وانسابت دموعها الحارة، من بين شفثيها المختلجتين تواتر سؤالها:

- وكيف خمّنت أنني...

- من بعض تصرفك العفوي، وفي معركة الجند مع اللصوص احتميت بي من الخلف وشعرت بحبتين تضغطان على ظهري وطريقتك في البكاء وإتقانك لمداواة الجرحى ثم حلمة أذنك المخرومة.

أطرقت منصوره رأسها، لم تجد مفراً فروت باختصار ما مر بها منذ مغادرتهم الإسماعيلية إلى معسكر مرسيليا، انعقد لسانها بعد أن باحت بسرّها للفرنسية الغريبة وانتظرت ما تفصح به فهزّت جوليانا رأسها وهي تقول:

- أخبر أبي؟!

- لا، أرجوك.

- أبي غيور جدًا وقد طلب مني ألا أرافك بعد الوصول لمقر عملكم؛ فيجب أن يعرف يا منصوره وإلا فكيف أفسّر له ملازمتك لي طوال الوقت غير أنني صديقتة ولا توجد أسرار بيننا، أبي قلبه طيب وسيعتبرك ابنته.

تارة أخرى لاذت منصوره بالصمت وأدارت رأي جوليانا برأسها فوجدت حجتها قوية ولا مناص أن يعرف العجوز ليमान بأمرها ما دام سيحفظه وأدركت أنها مهما بالغت في إخفاء

نفسها بالجلباب البلدي والشال أو العمامة ومهما وثقت في قسما ت وجهها التي تبدو حادة وأقرب لملامح الشباب؛ فلا بد أن يصدر منها فعل يدل على كونها بنت، فمقبولة عرفتها، وتأكدت منها بعد أن رأتها في الحمام وها هي جوليانا تربط أفعالها ببعضها وتدرك حقيقتها، جوليانا الفرنسية الغربية المولودة في بلد عربي وتتكلم العربية أفضل من غيرها قد تكون أحرص عليها من أي إنسان آخر، لم يطل بها التفكير فنهضت من فورها والليل أطبق بعتمته القائمة على البقعة، من بعيد مشاعل الدائرة التي يعمل فيها الجزائريون، نهضت وغادرت العربة والهواء البارد يرشق وجهها فسألته جوليانا في دهشة:

- إلى أين، ألن تنامي هنا؟

- المفترض أنني رجل يا جوليانا ولا يصلح أن أنام معك في العربة.

رفعت جوليانا حاجبها لسرعة بديهة منصوره التي أعادت لف الشال حول رأسها وأخرجت من زكبتها معطفاً ثقيلاً وارتدته في الحال، خطت نحو المشاعل فرأت ليمان الطباخ يجهز أوانيها ويطلب منهم جمع أفرع الشجر الجافة ليعد الموقد وآخرون أتوا له بالماء ليسلق لحم الجمل أو يقوم بشيئه لمن يريد، سألت عن أبيها فأخبرها مصطفى الجزار أنه هناك يجلس مع الأومباشي سعيد والجمالة، ران صمت جنائزي على الرجال المنتظرين تجهيز جثث الشهداء، لزمتم منصوره الصمت ولأنها تدرك تفكير أبيها فإنه لن يقبل أن ينتظر ليواري الموتى في الصباح؛ فإكرام الميت دفنه، كما يكرر مقولته دائماً والصباح قد يواصلون التحرك فانتظرت معه إلى أن أقبل عبدالمؤمن، دون أن يتفوه بكلمة نهض غلاب فاتكأ على ذراع عوض، في تناقل وقف من حوله، توجهوا نحو الميتين الملفوفين وشرع عبدالمعين الأزهري في إقامة الصلاة وما إن أنهى دعاءه حتى حمل العمال رفقاءهم نحو القبور المحفورة قرب الأشجار، على ضوء المشاعل المتراقصة بحثت منصوره بعينيها عن أحجار فلم تجد، أخرجت مديه صغيرة من جيب الجلباب الداخلي وعلى جذع الشجرة العريض حفرت: قبر الجمال حسن الأسواني المصري، قبر العامل زين المصري، قبر الجمال

جواد المصري، أثناء حوارها مع جوليانا تذكرت أنها أخبرتها عن الشهر فكتبت في الأسفل:
نهاية نوفمبر 1916م.

ما إن عادوا من الدفن حتى التصق العمال بجمالهم وفحل جواد ضمّه الأومباشي سعيد إليه والجمال يقاسي ويتم من ثكل صاحبه، فردوا البطاطين اتقاء لفحة البرد التي بدأت تشتد كلما أوغل الليل، طافت بأنوفهم روائح إنضاج شرائح اللحم وفي ماعون كبير ألقى لييمان بالهبر التي قدرها بثلاثمائة، بمعاونة العمال دار على رجال المعسكر؛ ليعطي كلا منهم نصيبه وآخر يلقي عليهم أرغفة الخبز، الليل وإرهاق السير غير رعب هجوم قطاع الطرق الذي لم يحسبوا له أي حساب وحرزهم على المقتولين منهم دفعهم لأن تعاف نفوسهم الطعام وفضل الكثير النوم استعدادًا لاستئناف السير، رفض الأومباشي سعيد أن يذوق قطعة من لحم جمل حسن وبقي ساهرًا يحرس بقية رفاقه وهم محتمون بجمالهم الباركة، ومن حين لآخر يرغو أحدهم رغاءه الممطوط حزنًا على رفيقهم الذي استطاب لحمه ويليام وموريس وغيرهما من جند الإنجليز والفرنسيين المحيطين بخيمة الكولونيل سميث.

نام غلاب على جنبه غير المصاب وفرد ذراعه فأراحت منصوره رأسها وأغمضت جفنيها، استعادت أحداث النهار المنقضي وحمدت ربها أنها لم تفقد أباهما لكنها فقدت سرها الذي باحت به لجوليانا وهي بدورها ستخبر الطباخ العجوز ولا تدري ماذا يمكن أن يفعل.

صوت البوق أنهض العمال ومنهم من صحا من نفسه ودون أن ينتظروا أمرًا لملموا أشياءهم، لأول وهلة لم تدر منصوره أين هي ولماذا ترقد في العراء والبرودة تصدم وجهها، تشعر بألم أمعائها، بينما يهيب غلاب نفسه للرحيل دارت بعينها فلمحت في غبشة الصباح عربة الطباخ وجوليانا تقف قبالة البغلين، في سرعة خطت نحوها إلى أن ألفت على مسامعها:

- بونجور جوليانا.

قالتها بتودد فاتسعت ابتسامة الفتاة التي تربط أكياس التبنا أسفل العربية وتضع ماعون الماء الراقق أمام الدابتين وردت عليها مداعبة:

- تيفاوين منصوره.

بظهرها تراجعوت وابتلعت ريقها في عجاله، ظنت أن جوليانا ترد عليها بلهجة فرنسية لم تفهمها، قوّست ذراعها حول وسطها ودون أن تفصح هزت جوليانا رأسها، استدارت وخطواتها تسرع نحو بناية منخفضة تظهر معالمها كلما اقتربت الفتاتان فأدركت منصوره أنها كنيسة صغيرة من الصليب الخشبي المنتصب أعلاها، في سرعة اقتحمت باب السور ورفعت يدها إلى عجوز تغطي شعرها ومالت في سيرها نحو غرفة صغيرة أعلاها خزان أسطواني من الخشب، دلفتها منصوره وانتظرتها جوليانا في الخارج، تأخرت وهمت جوليانا أن تتعجلها لكنها خرجت والماء يغرق شعرها القصير، لم تلبث أن لفت الشملة حول رأسها وشففتها ترتعش من لفحة برد الصباح لكن الماء الذي صبته على جسمها أعاد لها نشاطها بعد أيام من السفر لم تطق خلالها رائحتها الدبقة.

الراهبة العجوز وقفت وبين يديها طاولة خشبية عليها كوبان من اللبن ورغيف، في سرعة مضغت الفتاتان لقيمات الخبز واستطابت منصوره طعم اللبن الدافئ غير المحلى بالسكر فشربت كوبها كله، كلمات قليلة انتشرت من بين شففتي جوليانا فهمت منصوره أنها تشكر السيدة القصيرة، في هدوء غمغمت الراهبة وهي ترفع الصليب الخشبي الصغير المعلق على رقبتها بخيط ولم تنتظر جوليانا فخرجت من فناء الكنيسة وأسرعنا نحو الكتبية المهاجرة، وما إن وصلتتا حتى حدقت منصوره بعينها في ليمان وهو يقف قبالة أبيها ويحاوره، عاد وابتسامة تزين وجهه الراقق، مال نحو منصوره وبصوت هامس أمرها:

- أحضري الكيس الخاص بك يا منصوره، ستجلسين معنا في العربية.

أدركت منصوره أن صديقته جاده في رأيها، وحين أشار لها غلاب بأن تصحبهما فهمت أيضاً أن ليمن أقنعه بطريقتة أو بأخرى، وأن أباه استراح للطباخ العجوز ورأى أن مرافقتهم ستكون هي الأنسب لها وانغرز في نفسها أن جوليانا هي الأفضل؛ لولاها لعجزت أن تقضي حاجتها في حمام الكنيسة البعيدة أو تنظف نفسها والمكوث في العربة المريحة خير من هلاك السير على رجليها.

ما إن نبتت شمس الصباح عبر الأفق المسيح بالصمت حتى استعد الجميع لمواصلة السير وحملت منصوره الزكبية على ظهرها، همت أن تعود لعربة جوليانا لكنهم فوجئوا بالأومباشي سعيد يقبض على زمام فحله الكبير ويبيكي أمام قبر حسن واستحال بكائه وبكاء فرقته القليلة إلى نواح، الجمال رغاؤها مصبوغ بلوعة الألم على رفيقهم الذي ملأ لحمه بطون المرتحلين نحو المجهول، أصدر الكولونيل سميث أمره فبدأ السير، منصوره قلبها مخطوف على فراق أبيها لأول مرة منذ شهور رحيلهم البعيدة، دارت بعينها فلم تره، أنصال القلق تخمش روحها فنهضت وسط العربة المهتزة، جوارها وقفت جوليانا فأشارت إلى عصابة الهجانة، اتسعت حدقتا منصوره لأبيها وهو يعتلي ظهر جمل جواد في المقدمة، خفق قلبها في شدة خشية أن يقع من أعلى سنام الفحل وكتفه مصابة وداخلتها رغبة أن تنضم إليه وتركب خلفه، الركب تحرك فجلست جوار الأواني وقبالتها اتكأت جوليانا على زيار العربة الخشبي، تارة أخرى أوجست خيفة من جمل جواد فقد لا يقبل أحدًا خلاف صاحبه فهي تعرف مدى وفاء الجمال فيثور ويلقي أباه من فوقه فتنكسر ذراعه أو ضلوع صدره، لحظت جوليانا ارتعاشات وجه منصوره وقلقها على أبيها فربتت على كتفها وهي تلقي بكلمة أخرى غريبة لكنها عادت تقول لها:

- اطمئني، اطمئني.

- وما معنى تيف.. تيف.. التي سمعتها منك؟

- تيفاوين، أي صباح الخير بلغة أهل الجبال بالجزائر.

- أعرّف أنهم عرب و...

- ولهم لغة خاصة بهم غير العربية ويتكلمون أيضًا الفرنسية.

فارقت عربة الطباخ موضع طهي الجمل فحملت منصوره في العظام الكبيرة الساجية
وكلاب الطريق تلحسها وتظفر بشذرات اللحم المتبقية بين الضلوع، أشاحت بوجهها اتقاء
المنظر فاصطدمت عينها بأغصان شجرة مائلة تحنو على قبور العمال فهزت رأسها
وأشارت تودعهم وسمعتها جوليانا وهي تتغنى:

قيدوا على قبر الغريب شمعة (10)

تنالوا ثواب ليلة الجمعة

قيدوا على قبر الغريب سراج

تنالوا ثواب ليلة المعراج

*من العديد المنتشر في صعيد مصر.

دهشت جوليانا من الأغنية الممطوطة ومنصورة ترددها في صوت منكسر، فرت دمعة من عينها مسحتها في سرعة، رمقت السؤال الحائر في وجه رفيقتها فأجابتها دون أن تسألها:

- نوع من الأغاني الحزينة التي سمعتها قديمًا من جارة لنا كانت تردد هذه الأغنيات على الميتين، قالتها في رجل مات غريبًا عن أهله وبلده وكأنها تطلب من أهل هذه

البلدة أن يشعلوا على قبر الغريب شمعة أو فانوس ومن يفعل ذلك منهم سينال ثواب ليلة الجمعة أو ليلة الإسراء المقدسة عندنا.

في اهتمام استمعت جوليانا لشرح منصور الطويل وفي قرارة نفسها انبسطت من صحبة منصور المتنكرة في أردية الرجال وتهيأت لأن تستفيد منها كما ستفيدها في تعلم بعض العبارات والجمل بالفرنسية؛ حتى تتمكن من معاملة من تخالطهم في أيامها المقبلة.

حرص ليمان على ألا يكون في مؤخرة الفرقة وجعل عربته وسط العمال السائرين في المنتصف، ابتسمت جوليانا لأبيها وفهمت حذره فقد جاء الهجوم أمس على المقدمة وقد يباغتهم اللصوص كما يدعون في هجوم برصاصهم على المؤخرة؛ لذا استمر في قيادة عربته في الوسط ومنصورة من حين لآخر تطمئن على أبيها وهو فوق الفحل ولم تلبث أن تتعارك نظراتها مع عيون العمال السائرين حولهم وهم يبصون عليها في شيء من الغيرة لاستراحتها في عربة الطباخ الفتية.

ظل الحشد يسير في همّة وسرعة إلى أن انتصف النهار والحرس على خيولهم يجوبون المطرح من كل جهة ويؤمنونه من أي هجمة بعد أن تناقل العمال شائعات أن مهاجمي البارحة ليسوا لصوصًا إنما من الفرنسيين المعارضين للحرب في بلادهم وبعضهم أقرّ أن المهاجمين فرقة مدربة من الألمان أرادت بث الذعر في فيلق العمال ومنصورة تستمع لما يصلها ثم تجعل كل ذلك دبر أذنها وما يهمها هو ألا يُصاب أبوها بأذى أكثر مما قاساه.

بدأت بيوت البلدة البعيدة صغيرة ومتقازمة والدرب المؤدي إليها معبد إلى حد كبير، هدأت حدة اهتزاز العربة فنهضت جوليانا فاردة كفها على عينيها وهي تهتف حتى تسمعها منصوره:

- جرونوبل.

لفيف من أولاد وبنات سكان البيوت المتناثرة خارج البلدة يجرون ناحية فرقة العمال وبعضهم يشير إلى الجمال السائرة في تمهل ويتصايحون بكلمات، ابتسمت منصوره لفتاة تحاول ملاحقة العربة وهي تحمل بين يديها زجاجة وترفع صوتها بكلمات سريعة فهزت جوليانا رأسها مبتسمة وهي تتناول منها الزجاجة:

- ماء عذب.

شربت القليل وقدمتها لمنصورة التي نسيت العطش والجوع أيضًا في غمرة مراقبتها للطريق فتناولتها من يدها وشربت حتى شعرت بالارتواء، مدتها لتعيدها إلى الفتاة لكنها ضحكت وتارة أخرى نثرت كلماتها السريعة وابتعدت لتتضم إلى آخرين يحدقون في الجمال وملابس الغرباء بفضول كبير.

جلست جوليانا ورفعت غطاء الحلة الكبيرة، تناولت رغيًا مطويًا وقدمته إلى منصوره التي زامت معدتها من طول فترة خوائها، فتحت الرغي فدهشت لقطعة اللحم الكبيرة، رشت جوليانا القليل من الملح وطفقت تقضم في نهم فلم تتمهل منصوره وقلدتها، برغم برودة اللحم إلا أنها مطهية جيدًا فابتسمت لظهر العجوز ليان النحيف وأعجبت بمهارته وسرعته في إعداد الطعام وقدرته الفائقة على أن يُوزع هبر اللحم على الجميع، ظلت الفتاتان تاكلان إلى أن انحرفت العربة جهة اليمين مع العمال السائرين في شكل واحد فالتفت ليان إليهما وهو يقول:

- لن ندخل جرونوبل بل سنسير حولها.

لم تُسر منصوره بهذا الخبر فداخلها شيء من الضيق لعدم استراحتهم ولن تتمكن من مشاهدة بيوت بلد بأكمله، لم ينقض وقت طويل حتى انعطفوا مبتعدين عن بيوت المدينة وصليب كنيستها العالية لكن الطريق يتسع كلما ساروا فيه وفهمت جوليانا أنهم سيستمرون في الدوران إلى أن يستقبلوا الطريق نحو البراري بعد جرونوبل وصدق حدسها فقد أسرع السائرون ومع أصوات الحرس العالية تم توجيههم إلى شسوع الأرض من الناحية الشمالية للمدينة، بإصبعها دقت جوليانا على كتف أبيها فالتفت إليها وهو يقود البغليين في مهارة:

- يبدو أننا سنستقر في الطريق بين جرونوبل وفوارون.

رويدًا تميل الشمس نحو المغيب، نهضت منصوره من مكمنها فشعرت بتنميل فخذها، دارت بعينها في البراح وهي تودع بيوت جرونوبل التي لم يدخلوها فلاحت من بعيد عدة أبنية بعضها غير مسقوف وتشبه كثيرًا هناجر وعنابر مودروس، تباطأ السائرون قليلًا فتأكد لها أنهم سيبيتون في تلك المخازن التي تبدو خربة كلما اقتربوا منها ثم يواصلون السير في الصباح، حين اقتحم العمال منطقة العنابر خرج عدة جنود بسلاحهم يستقبلون القائد سميث والآخر الفرنسي موريس ويتحدثون قليلًا، يلتفت سميث إلى غلاب وسعيد وهما على جمليهما ويخاطبهما في عبارات مقتضبة، يلتفت غلاب إلى العمال وتسمع منصوره صوته البعيد:

- سنيبت هنا الليلة، يحتمي جميعنا بالعنابر من برد الليل ثم في الغد سنصلح تلك الأبنية للإقامة.

واحد من الهجانة قفز من أعلى جملة وأناخ فحل جواد ليتمكن غلاب من النزول من على سنامه، ما إن لمست قدماه الأرض حتى قسّم عمال مودروس إلى فرقتين، وأشار لهم باستصلاح عنبرين كبيرين ووجه فرقة سلانيك وعين غنيم الشرقاوي قائدًا لها وأشار له إلى العنبر المجاور ليسكنوه، من غير أن يوجههم ساق سعيد فحله نحو العنبر غير المسقوف وتبعته فرقة الهجانة، أما ليما ن فقد قاد عربته إلى الغرفة المجاورة لغرفة القيادة

بعءة أمتار وهز رأسه عءءما ءلفها ومط شفتيه للمطبخ المهمل الءى سىتولى هو وابنته
تءهيز طعام العشاء فیه.

أزال غلاب الضماد من على جرحه بعد أن التأم بعض الشيء من أثر الإصابة، فرد ذراعه وضماها مرات، مسحت عيناه الكامب الكبير بهناجره العديدة التي فاقت عنابر إقامتهم في مودروس وجنود مشتركة من الجيش الإنجليزي والفرنسي وعساكر أخرى من بلدان غريبة تشاركهم الإقامة لأيام ثم ترحل ويأتي غيرهم، أسبوعان مرا ولم يألُ العمال جهدًا في تهيئة الكامب لإقامة مديدة والاستعداد للكثير من الإنشاءات التي لم يتلقوا الأمر بها حتى الآن، لاحت من غلاب ابتسامه لتلك العنابر التي هياها مع فرقة عماله وحين اصطدمت نظراته بصالة الطعام الفسيحة والمطبخ الكبير في نهايتها تذكر حديث الطباخ ليमान له حين أخبره قبيل مغادرتهم نحو جرونوبل أنه عرف بأمر منصوره وطلب منه أن ترافق جوليانا، حينها اختلطت مشاعره في مزيج من الخوف والحيرة والاطمئنان والقلق، لكنه أقنع نفسه أن عمل منصوره في المطبخ أمان لها ويجنبها الشقاء المضني جراء اشتغالها بالنجارة وشحن وتفريغ حمولات العربات غير أنها ستكون بمنأى عن أعين العمال والجند وفي صحبة فتاة مثلها سترعاها وتتفهم أزمته الشهرية وتدبر لها حالها؛ فأشاع بين العمال أن الطباخ يحتاج إلى من يعاونه في تنظيف المطبخ وغسل الخضراوات وأنه رشح ابنه منصور له لأنه عاجز عن حمل كتل الأخشاب والحديد والمسامير الغليظة التي امتلأت بها المخازن.

طابت نفسه لأمان منصوره، ظلّ في سرحانه إلى أن أفاق على جلبه قادمة من الجنوب فالتفت محدقًا وارتفع حاجباه دهشة لفرقة أخرى من الهجانة اقتحمت الكامب في صفوف منتظمة ولم يلبث أن خرج العمال من عنابرهم فرحين بالقادمين، هرول غلاب نحوهم، قدّم قائدهم الإنجليزي ورقة إلى الكولونيل سميث بعد أن رفع يده بالتحية العسكرية، قرأها سميث وهز رأسه مشيرًا إلى غلاب وسعيد فوقفا قبالتة:

- إلى العنابر الخالية وجمالهم في الحظيرة الكبيرة بين العنبرين.

غادرهم سميث فأيقن غلاب أنه في مشغلة كبيرة وعليهم تنفيذ الأمر والعمل على إراحة العمال الجدد من وعثاء السفر الطويل إلى هنا ثم إشباع نفوسهم التوّاقة في لهفة لمعرفة أخبار مصر وبخاصة أن العمال مشحونون من هناك مباشرة.

ترك غلاب أمر توزيع الهجانة إلى الأومباشي سعيد فقادهم نحو أماكن إقامتهم وكانهم اعتادوا الأمر فسكنوا في سرعة واطمأنوا على زرائب جمالهم ونوقهم، أشرف غلاب على توزيع البطاطين عليهم فاستراحوا بقية النهار ومع حلول ساعة المغرب علا بوق العشاء فخرجوا نحو صالة الطعام التي ضاقت، لكنها استوعبت العمال الجدد الذين قدّر غلاب عددهم بنحو المائتين، لحظ أن الهجانة معظمهم من الجنوب فبشرتهم سمراء فاتحة والقليل منهم سودانيون فسأل سعيد وهو واقف أمام صالة الطعام:

- يظهر أنهم من أخواننا النوبيين.

- جميعهم من بعد الشلال والقليل منهم من أخميم وقراها، أما العشرون هناك، من الفاشر وقبائلها لكنهم مجندون في الجيش المصري ورافقوا العمال لحمايتهم.

- خدموا في مودروس أو غيرها من بلاد البحر؟

- لا، قسم الله رئيس حرسهم قال لي أنهم ركبوا السفينة من الإسكندرية بعد ترحيلهم من حرب الجنوب.

- حرب الجنوب؟! لي عم رحل قبل سفري إلى الإسماعيلية وسمعت أنه مرابط مع أورطة الجيش بعد الشلال لمراقبة ثورة زعيم الفور هناك.

- كلامك صحيح، أعتقد أن المعركة انتهت وفرق من الجيش المصري رجعت وتم توزيعهم على مواقع متفرقة، العالم كله في حرب يا شيخ غلاب وربنا يسترها علينا هنا، الألمان كارثة على الدنيا كما قال لي القائد سميث.

- ما لنا والألمان، نحن هنا عمال لا جنود وما بأيدينا سلاح، المهم، عن إندك غرضي أتعرف عليهم.

- لكن، احذر كبيرهم قسم الله، شكله مهموم ومغلوب على أمره.

هزّ غلاب رأسه مقتنعاً بنصيحة الأومباشي سعيد وفضّل عدم المغامرة بخوض حديث مع قائد فرقة الهجانة إلا بعد حلول الليل ويهدأ الكامب كله، أمام المطبخ نادي على منصور فخرجت له وقد ارتدت مثل العمال ملبساً أزرق متصلاً ببعضه ولم تتخل عن الشملة المربوطة على ناصيتها، مال ناحيتها وهمّ أن ينطق اسمها لكنه تراجع وخاطبها بصوت عالٍ:

- أنت بخير يا منصور؟

- نعمه، أخبار العمال والهجانة؟

- الخير على قدوم الواردين، ساعة وأتكلم معهم.

تركها غلاب وعيناه تمسحان المطبخ المكّس بالأجولة وطاولات كسر الخبز المتبقية من عشاء اليوم، في الركن تربض الأواني الكبيرة والمواقد وتتكدس صناديق الفحم السوداء، بالناحية الأخرى ثلاثة براميل خشبية كبيرة يملأها العمال بالماء كل يوم، أيقن أن الغرفة الداخلية ذات الباب القصير هي لنوم ليमान وابنته جوليانا والسرير الخارجي تبات فيه منصور، مال نحو حوش الجمال، معظمها بركت لتستريح من دوار السفينة وإجهاد الرحيل من مرسيلىا إلى هنا، دار بنظره فابتسم لرغاء جمل جواد المتبادل مع آخر خمّن أن يكون صاحبه من القادمين اليوم، دقق النظر فوجد أنه جمل صغير في بواكير عنفوانه يجتر في هدوء وهو يمد مشفره وكأنه يتلقّى الخبرة مما هو أقدم منه، عاد إلى العنبر، خلع نعليه وتمدد، شعر بالبرودة تضرب جنبه فسحب البطانية السوداء الثقيلة على كل جسمه، شبك أصابعه خلف رأسه وهو يفكر في زمنهم الذي يعيشونه وتساءل في قرارة

نفسه: أليس بلدي أحق بأن أتعب وأشقى فيه أنا وغنيم الشرقاوي وكل العمال والهجانة ممن انتزعوا من قراهم وسيقوا للعمل هنا في هذه البلاد الباردة؟ لماذا نحارب الألمان ونحن لا عداء معهم أو مع غيرهم، إنهم أعداء للإنجليز والفرنسيين وحربهم هنا في أوروبا؟ لماذا ولماذا ولماذا؟

تعاظمت التساؤلات حتى شعر ببدء صداع يطن في رأسه فأغمض عينيه وتوقف عن التفكير كي لا يُصاب بالعجز عن مزاولة صبرٍ تمرّن عليه ويتجرّعه كل ساعة تمر وهم في منفاهم، راوده النوم لكنه فتح عينيه عن آخرهما وهو يكاد لا يصدّق أذنيه، كذبهما وظن أن ما يسمعه من وحي اختلاط النوم باليقظة، الأذان يعلو مرة أخرى ويتردد في قوة وحين نفّس عن نفسه الغطاء وجد غيره من عمال العنبر ينهضون وعيونهم تتساءل، انتعل القبقاب الخشبي وخرج، من بعيد وعلى ضوء المشعل يقف واحد من العمال الجدد ووجهه لا يكاد يبين في الظلام، يرفع يده على صدغه ويكرر التكبير، فرغ المؤذن وفُرشت الملاءات والبطاطين أمام عنبر الهجانة، أنهى غلاب وضوءه وأفسح المكان للآخرين ونفوسهم تهفو للصلاة بعد أسابيع عديدة من توقفهم، تراصوا مستدفئين بأجسادهم من الريح الباردة التي تهرئ الأجساد النحيلة، صلوا العشاء وغلاب يردد الآية "واستعينوا بالصبر والصلاة" فدمعت عيناه للحنين الجارف الذي راوده وتمنى أن يشم تراب بلده بني عيش ويبقى فيها قانعًا بكسرات العيش حتى لو أطعموه هنا كل يوم تيسًا محمرًا، توالى دعوات المصلين المتضرعة ورجاؤهم المحموم في العودة.

لملم العمال المفارش وأخذ كل منهم بطانيته، تحلّق العديد منهم حول الجمار المتوهجة وعليها تنكات الشاي، ألقى غلاب السلام على القاعدين فردوه وأحدهم يطلب منه التفضل بمشاركتهم، دق قلبه حين تقرّص جوار قسم الله الجالس وسط رفاقه، فرّق أحدهم الأكواب فتوالى رشقاتهم في صمت، لم يغيّر غلاب عادته فهمّ أن يوجه حديثه لقسم الله مباشرة، وخصوصًا أنه قلق على عمه نور، وها هو واحد ممن شاركوا في حرب السودان يجلس جواره وسيطلب منه أن يروي أخبارها ووقائعها ولا يعوزهم الوقت؛ فالوقت طويل ولا عمل لهم الآن غير الانتظار، ما إن ركن الكوب على الأرض حتى فوجئ بجالس آخر

يلتصق به، فالتفت في حدة وفغر فاه لمنصورة المرتكنة بكتفها عليه فتدارك الأمر وهو يقدمها لهم:

- أنا غلاب النجار من جرجا وهذا ابني منصور لكنه يعاون الطباخ في تجهيز الطعام.

هوّم البعض صامتين ولم يبد على قسم الله أي نوع من الترحيب أو عدمه فظلّ يرشف في هدوء حتى أنهى كوبه فصّب أحدهم له المزيد، أيقن غلاب أن الشاب الثلاثيني الصموت لن يبادلّه الكلام إلا إذا استفزّه ودفعه دفعًا لأن يروي، ومع طول تجاربه يعرف أن أهل السودان طيبون بفطرتهم حتى وإن ارتسمت على وجه أحدهم الجهامة، دقائق مرّت وغلاب يتمعّن في هيئة قسم الله الصامت ثم أخذ بزمام المبادأة:

- عرفت أنك قادم من حرب الفور، غرضي أسألك عن عم لي رحل هناك منذ أكثر من عام.

أنهى قسم الله كوب الشاي وفرد كفه لتابعه حتى لا يصب له كوبًا آخر، قرّب يديه من السنة النار الهادئة ليصطلي بدفئها الهادئ، التفت إلى غلاب وبدت من عينيه نظرات كليّة:

- عمك ضابط في الجيش؟

- مجرد جندي أو عامل مهمات بالجيش.

- يبقى يرحمه الله.

- مات؟ كيف عرفت؟

- لا أعرف عمك على وجه الخصوص لكن وصلني أن الكثير من عمال النقل وغيرهم هلكوا من شدة الحر وآخرون منهم أصابتهم حمى البعوض ولم يستطع أحد إسعافهم فماتوا وقبورهم في سفح جبل الهيل.

أُجِم لسان غلاب وترقرقت الدموع في عينيه، شعر بضيق صدره وكأنه فقد القدرة على الشهيق والزفير، أغمض عينيه وسطع وجه عمه نور ببنائه القوي وهمته التي لا تعرف التعب، لم يره طوال وجوده في بني عيش إلا مأجورًا، رزقه يوما بيوم، يعزق الأرض ويحراثها ويجمع لطح دودة القطن وينقي الأرض من الحشائش، حتى إذا ما أعلن خفر العمدة عن الأجر الذي يناله المتطوعة للعمل في الجيش، فضّل أن يتطوع بدلًا من الخدمة في أرض غيره، ها هو يأتيه خبر هلاكه بعيدًا في الجنوب ويدفن في أرض غريبة تتمم في نفسه "وما تدري نفس بأي أرض تموت" أفاق على يد منصوره تربت على كتفه وتقول:

- ربما الجد نور نجا وعاد لداره لبني عيش.

- ما قاله ابنك منصور قد يكون صحيحًا يا شيخ غلاب، يمكن رجوع قريبك مع العمال القليلين الناجين من حرب الفور.

- أنا سمعت أن السلطان علي بن دينار أهلكتهم في أنجوجر.

التفت قسم الله للنوبي المتدخل في الحديث فتدارك الأومباشي سعيد الكلمة التي نطقها بلهجته النوبية فابتسم في لطف وهو يوضح:

- أقصد الجنوب، على كل لسنا أفضل منهم، فحرب الفور انتهت وتحدد مصير فرقة الجيش وعماله، فعاد من عاد وربنا يرحم من دفن هناك لكننا هنا لا ندري أيكون دورنا مقصورًا على العمل فقط أم سنحارب؟

- بل العمل يا أخ سعيد، يجب الحرص على أن تقتصر مهمتكم ومهمتنا على العمل فقط فإن اشتعلت حرب لا قدر الله نكون بعيدين عن الموت.

الموت.. كالمطرقة رنت الكلمة على غلاب، فهزّ رأسه في سكوت ودار في تفكيره أنه إن مات فسيتكفل المرافقون بدفنه كما دفن العديد منهم فماذا يكون مصير منصوره في تلك البلاد الغريبة الباردة التي لا نجا منها وهي البنت وسط أجانب لا نخوة لهم ومن سيعيدها،

رجا أن تموت قبله، تصيبها رصاصة فتقتل ويدفنها بيديه ويزاول بنفسه هوايتها المفضلة
فيبحث عن حجر وينحت عليه: منصور المصري، مات يوم كذا في سنة كذا، سيظل
يسترها حتى في قبرها، أغمض عينيه وأفلت لدموعه العنان فسحّت بغزارة، من بين
اختلاجات صوته سمعوا استغفاره ودعا في سره لمنصورة بطول الحياة والعودة سالمة
غانمة عفتها.

- وحدّ الله يا غلاب وإن شاء الله تنتهي محنتنا ونرجع كلنا لبلدنا في تمالتي، أقصد في
الشرق.

هؤم برأسه، كفكف دموعه ومسحها بكم جلابه، أيقن أن لا فائدة من التفكير إلا في قدرتهم
على البقاء أحياء حتى يأذن الله لهم بالعودة، هدأت نفسه قليلاً والتفت إلى الشاب قسم
الله وصمم على ألا يتركه إلا بعد أن يروي لهم ما حدث في وقعة دارفور وكيف انهزم
سلطانها برغم علمه أنه يجاهد ضد الإنجليز.

- والله يا جماعة الخير، برغم أن أصولي من الرزيقات وهم على خلاف مع علي بن دينار فإني كنت غير راضٍ عن حربيه.

صمت قسم الله بعد أن افتتح كلامه بتعريف نفسه وموقفه من اشتراكه في حرب الفور ودون اتفاق التزم المتحلقون حوله الصمت مفسحين له المجال للمواصلة، ألقى غنيم أعوادًا من الخشب الجاف فتصارت بقايا النيران في إشعالها، قرّب غلاب كفيه أمام القوالح المتوهجة فشعر بالدفء، فردت منصوره بطانية على كتفي أبيها وجلست بينه وبين غنيم الشرقاوي أما سعيد ولفيف من جمالة الصعيد والنوبة فتقاربت أجسادهم حتى كادت أنفاسهم تلمح وجوه بعضهم البعض، لم يرد غلاب أن يُشعر قسم الله أن روايته ستكون بناء على أمره فعاد إلى حُسن بصيرته وفتح معه دربًا آخر يتودد به ويشعره بالألفة فسأله في هدوء:

- والرزيقات يا قسم الله، أصولها حجازية؟

- "أوف كورس" يا زول، أقصد بكل تأكيد.

ندت عن الجالسين ابتسامات وضحكات خفيفة لاختلاط لهجة قسم الله السودانية بكلمات إنجليزية ثم عودته لهجته الجنوبية فأطرق رأسه وبادلهم الابتسام وهو يواصل:

- الرزيقات قبيلة عربية وهي فرع من فروع قبيلة البقارة من جهينة ومنتسب كلنا إلى علي الرحال بن عطية بن جنيد، المهم لن أطيل عليكم شرح أفخاذ القبيلة لكن الرزيقات أبناء عم العريقات والزبلات، جميعنا من أصل واهد ونسكن هتة واهد.

نفس لفتح قفا منصوره فأدارت رأسها، ارتفع حاجبها دهشة لوجه جوليانا وأبيها المنضمين إلى حلقة الرجال فأرادت أن تفسح لهما لكن جوليانا بكفها ربتت على كتف صاحبها كي توقفها وفضلت القعود مع أبيها في الخلف والاستماع، همست منصوره في هدوء:

- القائد قسم الله السوداني يروي لنا أصل قبيلته وهتة واهد معناها حته واحده أي مكان واحد.

هومت جوليانا برأسها أماره الفهم وأشارت لمنصوره أن تسكت حتى لا يتيقن أحد لوجودهما فأدارت منصوره رأسها وفي قراره نفسها انبسطت لوجود رفيقتها في الحلقة حتى تستمع لحكاية الجندي العائد من إحدى الحروب وتفاخر بأن لمصر جيشًا يحارب لا عمالًا فقط يخدمون الجيش الفرنسي والإنجليزي، أفاقها صوت قسم الله الهادي وهو يكمل:

- نسكن أرض الفور لكن بعض أفخاذا انتشر في مصر وتشاد في الغرب، المهم، أبي انضم للجيش المصري وألحقني لما كبرت به.

- لكني أعرف يا قسم الله أن علي بن دينار كان يؤدي للإنجليز ضريبة كي يكون حاكمًا على أرض الفور.

- صحيح يا شيخ غلاب، لكنه بعد سنوات وقع خلاف على الحدود بين سلطنته وما يجاورها بل ومنع أي أجنبي من التواجد بأرضه وأعلن عصيانه صراحة والتخلي عن ولاءه للحكومة الإنجليزية والمصرية.

- وأعلن في نفس الوقت ولاءه للخلافة العثمانية، سمعنا عنه ونحن في سلانيك

- صحيح يا...

- غنيم، غنيم الشرقاوي.

- تشرفنا يا حاج غنيم.

- المهم؟

قالتها منصوره فاتسعت ابتسامه قسم الله لتكشف بياض أسنانه والتفت إليها ملقيًا عليها نظرة عتاب لطيفة لتكرارها كلمته التي يرددتها دائماً وسط كلامه فحملت منصوره في وجهه الذي ينضح بطيبة متوارية من بين طيات ملامحه القاسية، أشار بسبابته إليها:

- يظهر أنك ولد شقي يا منصور، المهم، أنا كنت ضمن وحدة من الهجانة المصرية لحماية التجارة في النهود ومهمتنا أيضاً منع ابن دينار من الهجوم على الرزيقات فنقل ابن دينار حرسه وأعوانه إلى جبل الهيلة فاعتقد الجنرال ونجت أنه يستعد لغزو السودان.

- السردار ريجنالد ونجت نفسه؟

- وحشد قوة عند جبل النهود بقيادة قائد كبير اسمه كيلى وفرق من المشاة بقيادة الميجور كوبدن وغيرها من فرق المشاة والمدفعية، وأنا كنت ضمن فرقة الهجانة تحت قيادة القائد هدلستون ودخلنا أرض الفور وكانت قوات ابن دينار في وادي مشجر وبعد معركة معهم وصلنا لجبل الهيلة ومنطقة الآبار هناك.

- وانهزم السلطان؟

- رجاله كانوا مسلحين بأسلحة قديمة غير كافية ورماح، بصوا...

شلق قسم الله كم جلبابه الواسع إلى آخره حتى ظهر شج عميق أسفل كتفه دفع الجميع للتحديق فيه وتفرسته منصوره على ضوء النيران الهادئة، شعر غلاب بوخز ألم كتفه جراء إصابته برصاص العصابة التي هاجمتهم وهم في الطريق إلى الكامب.

- هذه إصابة رمح أحد محاربي ابن دينار وكدت أقع من فوق الأبلق.

- الأبلق؟

- جملي الأبلق، تحاملت على نفسي وظللت أطلق الرصاص فهاجموني من كل ناحية وأصابت رماحهم وسهامهم الجمل فبرك من شدة نزيفه ونفق.

- وبعد؟

- القوات المشتركة انتصرت وفرّ السلطان إلى جبل مرة وسمعت وأنا في معسكر الجرحى أن الكثير من رجاله نفروا منه وتخلوا عنه وانتقل إلى بلد صغير اسمه كولمة فاقتحمتها القوات الإنجليزية والهجانة المصرية بقيادة هدلستون واستولوا على مخازن غلالها وأسروا الكثير من الرجال واستسلم عدد من عائلة ابن دينار نفسه.

- والسلطان محمد الخامس بن عبدالمجيد.

توجهت أنظار الجميع نحو الصوت المقاطع ولأول وهلة استغرب غلاب بصاتهم الحائرة له ثم أدرك خطأه فأطرق رأسه وهو يصيح:

- أقصد والسلطان ابن دينار؟

- سمعت من العائدين من تعقبه أنهم أطلقوا على رفاقه الرصاص وعُثر عليه مقتولاً.

- وأنت لم تشترك في قتله؟

- لا، كنت مع فرقة الهجانة في الفاشر وبقيت هناك وبعدها انتقلنا على وجه السرعة إلى الشمال.

- إلى الشمال أين؟

- صدرت الأوامر يا أومباشي سعيد بوجوب تواجدنا بالإسكندرية على وجه السرعة، لكنني اقتنصت عدة ساعات فزرت إخوتي واصطحبت جملي العُنَّاب.

- العُنَّاب؟

- أخو الأبلق الصغير.

- حتى لا تتعجبوا، الأبلق يعني جملا في لونه بياض وسواد، أما العُنَّاب فلا أعرف سبب تسميته.

- كما قال الأومباشي سعيد وجملي العُنَّاب له حكاية، أسميته العُنَّاب على اسم جدتي يرحمها الله، كان أحد أعمامها تاجراً كبيراً من تجار الفور، غاب أعواماً يرافق قافلة حتى ظنت قبيلته أنه لن يعود وحين رجع في ليلة مولد جدتي قدّم لها هدية من حبات فاكهة غريبة أطلق عليها اسم عُنَّاب ووالد جدتي أسماها هذا الاسم.

- وبعده؟

- زرع الجد العائد من تجارته التي وصلت إلى الصين بذور العُنَّاب وارتفعت أشجارها وأعطتنا ثمارها الحلوة.

- معك من ثمارها الحلوة يا قسم الله؟

- لا يا أخ...

- عوض، وفي بلدي منفلوط كنت أزرع الرمان، آه لو تذوق حبات الرمان المنفلوطي، تنسى العُنَّاب.

- تشرفنا يا عوض.

- لكنك قلت أنك رحلت إلى الشمال!؟

- عدتُ للمعسكر وانتقلنا بوابور البحر إلى القاهرة ومن هناك بالقطار حتى مرسى السفن بالإسكندرية وأصبحت وفرقتي في غضون أسابيع قليلة من حرس فرقة الهجانة المصرية هنا.

- حمدا لله على سلامتكم، أنت بطل.

قالها غنيم بصوت ساخر فرمقه قسم الله بنظرات مشحونة بالصرامة، دار بعينه فلحظ أن معظم العمال من رفاقه فارقوا الحلقة أثناء روايته ولم يتبق حوله غير غلاب وسعيد وغنيم وعض تجاورهم منصوره وجوليانا وأبوها ليमान، هزّ قسم الله رأسه وهو يتهيأ لإنهاء الجلسة:

- مجبر لا بطل يا أخ غنيم، رغم أن علي بن دينار هُزم في معركة برنجية وهو على خلاف تام مع الرزيقات قبيلتي لكنني تمنيت لو ينتصر، أو على الأقل يصيب من الإنجليز مقتلة كبيرة فيكفيه أنه أراد أن يستقل بمملكة الفور ومنع أي أجنبي غريب من الوجود بها.

- تمامًا كما فعل عرابي.

- عرابي قائد شجاع يا شيخ غنيم لكنه لم يكن سلطانًا أو حاكمًا على مصر إنما حاول الدفاع عن بلده ضد الإنجليز والخائن توفيق المحتمي بهم، أبي الجندي فيصل حارب مع عرابي ومات في معركة القصاصين، واحد من أصحابه الناجين شهد أنه ظل يطلق الرصاص على الإنجليز إلى أن فرغت ذخيرته فرفع السيف عندها أصابته طلقة في قلبه ومات ودفن مع غيره.

- أبوك دفن، أنا أبي مات في التل الكبير وبقيت جثته أيامًا حتى...

حدّق قسم الله في وجه غلاب ودق قلبه في قوة للرجل الأربيعيني الذي أفصح له عن كون أبيه كان هو الآخر جندياً في جيش عرابي وشعر بحنين جارف إليه، مدّ يده فصافحه غلاب في قوة، وقفا قبالة بعضهما وتحاضنا فشم منه غلاب روائح الجنوب الحميمة، بقايا وجه جدته التي كانت دائماً تفتخر بجدودها النازحين من خلف الشلال، استطاب التفاف ذراعيه حول كتفيه، برفق أبعدته قسم الله وفاضت عيناه بالدموع، صافح غنيم وعوض وعندما وقف أمام منصوره ابتسم لها وهو يمد يده:

- ابنك لَمَاح يا شيخ غلاب ويشبهك لكنك أوسم.

مدت منصوره كفها فسلم عليها قسم الله وبحركة مباغطة قرّبها من صدره وهو يريد أن يبالغ في السلام على ابن غلاب، لم تتفطن منصوره للمفاجأة إلا بعد أن وجدت نفسها بين ذراعي قسم الله وهو يربت بكفيه على ظهرها فأغمضت عينيها ودار رأسها، تنشقت منه رائحة مضمخة بالحنين إلى شيء ما لا تدرك كنهه، رغم وجودها أمام أبيها لكنها استطابت الاستسلام لصدر آخر دغدغ في كيانها كل صنوف الاشتياق لأنثى آيلة للسقوط في نهر من الاشتهااء، ارتكنت مشاعرها على خط التماس بين تخوم الرغبة ومقاومتها فلم تشأ أن تبادله وعجزت عن إبعاده فبقيت تنتظر قدر انفصالها، بأصابعه الغليظة قبض غلاب على كتف منصوره وتعمّد أن يرفع صوته:

- ولد يا منصور تأخرنا، عد مع ليमान للمطبخ.

تنبه غلاب إلى أنه لم يعرف قسم الله على جوليانا وأبيها ليमान فقدمهما له وطمأنه أنهما لن يثرثرا بما سمعاه، استأذنها قسم الله للعودة إلى ثكنته وسط رفاقه الهجانة الواقفين في حلقة قريبة واستدار غنيم متوجّهاً إلى عنبره أما غلاب فقد رافق ابنته وجوليانا وليمان نحو مطبخ الكامب.

ظلت منصوره ذاهلة ومن حين لآخر ترمقها جوليانا بنظرة لؤم، للحظة تناست الموقف، أرادت أن يتوارى تفكيرها في دروب أخرى فتمنّت أن تكتب حكاية قسم الله ومعرسته في

الجنوب وامتدت بها الأمانى لأن تحصل على أوراق كثيرة وتخط كل ما مر بهم منذ هجرتهم من بورسعيد لكنها لا تتقن الكتابة كثيرًا فقررت أن تروي بعد عودتها إلى مصر كل ما رآته وتطلب من أحد شيوخ الأزهر المتعلمين أن يدوّن لها ما تريد، جنح رجاؤها إلى أبعد من ذلك وتساءلت: لماذا لا أتعلم الكتابة بشكل صحيح وأكتب بنفسى كل الوقعات التي خضناها؟ التفتت إلى صوت جوليانا المرتمية على سريرها:

- يا سلام، حكاية الجندي الأسود دفعتنى لأن أكتبها.

- وفكرتني برفيق لنا في مودروس اسمه صالح، يرحمك الله يا صالح أنت وميخائيل وكل من دفنهم في الأرض الغريبة.

- ويحفظ أرواحنا من الألمان.

- ونرجع لبلدنا بخير، تصدقي يا جوليانا، ترك لي صالح مصحفًا وهو كتابنا المقدس وميخائيل وجدت بعد دفنه كتابًا اسمه الأجيبة.

قفزت منصوره إلى زكيبته وعبثت بها، أخرجت الكتابين فقدمت الأجيبة بغلافه ذي الرسوم الملونة فاتسعت عيننا جوليانا، تناولته منها وأعجبت أشد ما يكون الإعجاب بمنصورة التي احتفظت بكتاب يضم صلوات وأدعية مسيحية، شملتها بنظرة دهشة أعقبها رضا عن شخصية منصوره التي تتعرّف عليها يومًا بعد يوم، أعجبت أكثر بوفائها وإخلاصها لرفاقها القدامى، قلبت بين أوراقه القصيرة ثم ركنته على المنضدة المجاورة، تمددت ووجهها نحو منصوره وابتسمت في خبث:

- خفت أن تضربي الجندي حين سلم عليك و...

- فعلها وهو يحسب أنى ولد.

أجابت وهي تتصّع اللامبالاة وفردت على جسمها البطانية فغطت وجهها، لا يزال أثر الساعدين القويين على كتفيها فبرقت عيناها في الظلام وخفق قلبها بشدة، رغم البرودة فإنها تعمّدت أن تفتح أزرار المعطف الثقيل فسمحت لصدرها الثائر أن يتنفس بعد طول كتمان، ظلت تتقلّب وشرنقة من رغبة تنسج خيوطها حول نفسها المحبوسة، تملكته إرادة أن تفتق سياج الاختباء في شخص آخر وترفرق كفراشة ولا تخجل من أنها فتاة ترافق أباه، غيرة جامحة نهشتها حين لمحت جوليانا الجميلة تنام في سلام ونهارًا تعمل مع أبيها وتحيا كفتاة يراها الجميع وتسعد لبصات البعض وترد عن نفسها معاكسات الآخرين وتتبادل الهزار مع القلة لكنها لا تتماذى في علاقتها بأحد، سأكون مثلها، قالتها منصوراً ونامت.

الطريق المعبد امتد لعدة قصبات، فوقف غلاب يستطلع الأمتار الأخرى التي ساواها الجمالة بكتل من الزحافات الخشبية الثقيلة المربوطة بحبال غليظة وتجرها الجمال ودور العمال رش ما يسوى بالماء وتثبيت الأحجار على الجانبين، الأوامر تقضي بتمهيد طريق دائري من خارج فوارون ليصل إلى بلدة شامبييري، أما غنيم ورفاقه فقد مهدوا ممراً ضيقاً بوضع الأحجار الصغيرة والحصيات التي ظلت الجمال والبغال تحملها من منطقة بعيدة إلى موقع الإنشاء، غلاب وأعوانه النجارون الذين اختارهم بعناية من بين رفاقه القدامى من عمال مودروس يستصلحون الكتل الخشبية ويصنعون بها الفتحات الواسعة لتكون فلنكات يسلمونها إلى غنيم ورجاله فيرصونها على مسافات محسوبة، أحضر غيرهم صناديق خشبية بها مئات من مسامير القلاووظ ذات الأسنان الملولبة وأخيراً ظهرت جمال قسم الله تجر قضبان الحديد الطويلة، بلا توانٍ انتظم العمل تحت إشراف كولونيل سميث والميجور ويليام والضباط الفرنسيين وجميعهم يحافظون على ضبط الوقت؛ فالعمل يبدأ في السابعة صباحاً بعد أن يستيقظ معسكر العمال عن آخره في السادسة فيتناولون إفطارهم ويشربون الشاي ويقسمون إلى مواقعهم حتى الثانية ظهراً فتعج صالة الطعام بهم.

يوماً دلف القاعة الكبيرة ثلاثة رجال يحملون آلات موسيقية وظلوا يعزفون أثناء تناول العمال غداءهم، لأول مرة منذ أسابيعٍ طويلةٍ يخرج عوض المنفلوطي من انطوائه فسحب عصا رفيعة وظل يرقص ورافقه عبدالصمد الفرشوطي وسط تصفيق زملائهم، وغلاب وغنيم يبتسمان لرفاقهم الذين يعتصرون صخور الغربة؛ ليستحلبوا منها سعادتهم المنقوصة مرافقة لتزييف اشتياق العودة للديار.

توجه الجميع إلى موقع الفنكات وانتظروا أن يثبت غنيم مسمار قلاووظ غليظاً بحديد القضبان فظلت أصابعه تتعارك مع مقبض آلة تدوير رأس المسمار حتى أنهى لفه، ولم يلبث

أن رفع المفك الضخم فارتفع صياح العمال وتصفيق الإنجليز والفرنسيين المرافقين لهم، أفسح الجميع للكولونيل سميث بكرشه الممدود أمامه، انحنى ليختبر القضيب المنتصب في قوة ثم نهض وهو يضع كفيه على كتف كل من غلاب وغنيم ووجهه ينضح بالبشاشة:

- تحية كبيرة للمصريين، أنتم هنا تحققون معجزة.

تعالَت أصوات العمال مهنيين بعضهم لأول قضيبين للقطار من فوارون لشامبييري، فصَفَق سميث لتهيل العمال وبادله الجميع التصفيق، انسلَّ أحد الهجانة من فرقة سعيد وخطا نحو القائد فحاول جندي من حرَّاسه منعه، لكن سميث أشار إليه أن يقترب، هدأت جلبة العمال والتف بعضهم حول القائد حتى أحاطوه وحرصه من كل ناحية، خلف الشاب الأسمر وقف سعيد وقسم الله وعلى مسافة قصيرة وقف غلاب ورفاقه، رفع الجمال مخلوف يده بالتحية، فأوما الكولونيل ورفع الكاب عن رأسه:

- حضرة القائد، ممكن نرجع بلدنا بعد انتهاء السكة الحديد؟

وجم الجميع لسؤال العامل الجريء وعم السكون البقعة النائبة، كل منهم في صدره نفس الاستفسار فنطقت قلوبهم بما تجيش ولم يطل انتظارهم للإجابة، فتقارب حاجبا سميث فظن غلاب أنه سيوقع بالرجل عقوبة على سؤاله لكن الكولونيل انفرجت أساريره وربت على كتف مخلوف وشمل جميع العمال المحيطين به بنظراته مصطنعًا المرح:

- ومن منا لا يشفق إلى العودة لأهله، ستعودون، جميعكم ستعودون ولكن لنته من أعمالنا هنا وبعدها كل منا سيعود لـ"يور هوم".

أنهى القائد إجابته التي فهمها العمال وتارة أخرى ارتفع صياحهم ومخلوف تفكيره يتأرجح بين الفرح بتصريح القائد الإنجليزي وعدم تصديقه، فالحرب أخبارها لا تشي بأنهم سيعودون في القريب العاجل، تركهم سميث وسط لفيف جنوده، تبع الحرس قائدهم،

وانفض العمال كل إلى موقعه، والتف غنيم وسعيد وغلاب وانضم إليهم قسم الله حول مخلوف وعيناه ذاهلتان، ارتعشت رموشه وهو يوجه الكلام إليهم جميعًا:

- كعادتهم منذ أن سخرونا للعمل معهم، لا يعطينا القائد إجابة شافية.

- صدق مخلوف، لم يحدد القائد سميث ما إن كان عملنا ينتهي بمد الجسر والسكة الحديد إلى شامبييري أم يقصد عملنا هنا في فرنسا لحين انتهاء الحرب.

ران الصمت على الجميع لكن غلاب لم يستغرب دهاء القائد سميث وحُسن خديعته، وتأكد أنه لو زعق في وجه العامل أو عاقبه على سؤاله أو قال لهم غير ما قال فقد يثور عليه العمال المسلحون بالفؤوس والآلات الحديدية والعصي الغليظة ويقضون عليه وعلى حرسه ويحطمون الكامب كله ثم يهيمون على وجوههم تجاه جرونوبل أو مرسيليا ويفتكون بكل من يقابلهم، وبالتالي سيواجههم الجيش ويطلق عليهم الرصاص وبذلك يخسرون المئات من العمال ممن يتحملون من مشقة العمل ما لا تطيقه الجبال؛ فألقى إليهم بهذا الرد الرمادي وترك الباب مواربًا حتى تنتهي السكة الحديد إلى شامبييري وبعدها يكون ما يكون.

- لا عطلة يا جماعة، لنكمل عملنا.

قالها غلاب فأطرق غنيم وابتسم وكأنه يقول له: كنت أفكر فيما تفكر فيه، استداروا جميعًا نحو العمال وأمسك سعيد بلجام فحله القوي وهو يجر حزمة من الفلنكات لينقلها الجمل مع بقية أقرانه إلى الأمام.

- يجب إخلاء عنبرين من عنابر العمال.

كالمطرقة ألقى الميجور ويليام بأمره على مسامع غلاب والأومباشي سعيد فبهت الرجلان الواقفان أمام مكتبه من القرار الذي لا هوادة فيه ولم يترك لهم ويليام فرصة للاستفسار الذي يعتبره كقائد تعود على إلقاء الأوامر وتنفيذها دون مناقشة تطفلاً وتدخلًا فيما لا يعنيههم لكن غلاب تشجّع وسأله:

- وأين ينام العمال حضرة الميجور وتعلم أن البرد شديد والسماء تسقط ثلوجًا.

- حلها أن يستريحوا في حظيرة الجمال.

- لكن الحظيرة سيئة ولا يمكن أن يتزاحم العمال بها فضلا عن بعر الجمال و...

ضاق صدر الميجور فانتتر من خلف مكتبه واضعًا كفيه على خشبه العريض قاطبًا حاجبيه:

- نفذوا دون مناقشة باش كبير العمال، الفرقة الرابعة من الجيش ستحضر غدًا ويجب توفير عنابر لإقامة جنودنا قبل التحرك.

لم يناقشه غلاب وأشار إلى سعيد أن يتراجع ويغادر معه المكتب، توجهها مباشرة إلى حوش الجمال، دارت عينا غلاب في أسى وهو يتفقد الفناء الكبير المسقوف بأخشاب قديمة لكن ما باليد حيلة ولا مفر من الرضوخ لأمر القائد، أمر غلاب عشرة نجارين بإحضار عُدتهم، صعدوا معه سطح الحوش، أصلحوا ما يمكن إصلاحه وغيروا الألواح المعطوبة بأخرى سليمة وسدوا كل الفتحات التي يمكن أن تنفذ منها الأمطار، في نهاية النهار نزلوا فأعجب بهمة سعيد العالية الذي استعان بجنود قسم الله في تنظيف الجانب الأكبر من الحوش لإقامة العمال وإنشاء حظيرة أخرى للجمال لها سور كبير من أغصان الأشجار الجافة وصنعوا لها بابًا كبيرًا وبنوا أحواضًا صغيرة للعلف.

منذ امتداد قضبان السكة الحديد بعيدًا عن الكامب، استقدم الطباخ ليमान مساعدين آخرين له وعربة كبيرة ليحمل عليها أواني الطعام والأطباق فيتراص العمال ساعة الغداء ويوزع عليهم الطعام في الموقع ثم يستأنفون شقاءهم ومنصورة بنفسها تولت تقديم الصحون

إلى أبيها ورفاقه ومرات كثيرة كانت تتناول معهم الطعام وهي تسترق نظراتها خفية لقسم الله ولا يزال أثر ضمه لها يراودها.

حين عاد العمال مغرب ذلك اليوم وقفوا أمام العنابر وتحدث إليهم غلاب بوجوب نقل أمتعتهم الشحيحة إلى العنبر الجديد، لم يناقشوا وتفرقوا لتنفيذه وعلامات الضجر مرتسمة على سحناتهم المتعبة، بعد ساعة من صخب الانتقال استقر كل منهم مكانه يجاورهم حوش الجمال وفي نهايته اسطبل ضيق للبالغ والحمير فحمد غلاب ربه أن منصوره تنام على سرير مريح في غرفة ملحقة بالمطبخ ولا تزكم أنفها روائح صنان الإبل وروثها العفن، لكنه النوم الذي جعله الجميع محطة هروبهم الأولى والأخيرة من واقعهم المشحون بالشقاء اليومي فيلوزون به وتراود بعضهم أحلام العودة والبعض الآخر تجثم فوق صدره كوابيس الغربة وكثيراً من الليالي يهب غلاب فزعاً على صوت واحد من العمال يزعق وهو نائم وينتهي كابوسه بالبكاء.

دقات الطبول المنتظمة دفعت العمال إلى الاستيقاظ مبكرين فخرجوا يستطلعون الأمر وإذا بفرقة كبيرة من الجند تدخل الكامب ويؤدون التحية ثم يتوزعون في العنابر والعمال نفوسهم مقهورة حين رأوا بأعينهم الجنود يتزاحمون على عنابر نومهم القديمة، تناولوا الإفطار وتهيأوا للذهاب إلى السكة الحديد التي امتد نصفها نحو مدينة شامبيري، عرف غلاب أن فرقة الجنود الجديدة فرنسية وأن أخرى إنجليزية في طريقها إلى كامب آخر أقيم بالفعل على مشارف شامبيري، نهاية اليوم دلف العمال الحظيرة، ربط سعيد وقسم الله وغيرهما حبال الجمال في الأوتاد المدقوقة وبعد إعطاء التمام لم يحضر الجمال مخلوف فأخبر الأومباشي سعيد القائد قسم الله أن العامل تأخر لمهمة نقل بعض المخالي الخاصة بالجنود.

كما اعتادوا قرب المغيب تنتظم فرقة الجنود في التدريب، فيصوبون بنادقهم نحو أهداف بعيدة ومتناثرة ويطلقون النار عليها، واصلوا التدريب حتى أفول الشمس، دون اتفاق وقف غلاب بين سعيد وقسم الله يستطلع الأفق الممتد وفي نفس كل منهم قلق على تأخر مخلوف حتى لاح الجمل ومخلوف يروح ويجيء على سنامه العالي إلى أن اقترب من ساحة التدريب، تبارى جنديان في إصابة أوراق من شجرة بعيدة وهما يتضحكان فأدار أحدهما فوهة البندقية نحو الجمل القادم وانطلق العيار ليصيب الفحل في صدره، قهقهه الجندي حين تمايل مخلوف لانتفاض صاحبه وجفول سيقانه، أطلق رغاء الألم وتقافز حول نفسه ولم يلبث أن برك على ساقيه الأماميتين ومخلوف يطلق صرخة مدوية ويثب، يعافر الجمل لتنتصب سيقانه لكنه يبرك فيتسابق قسم الله وسعيد وراء غلاب الذي جثا على ركبتيه بين ساقى الجمل وفحص الرصاصة التي أحرقت قلبه ومخلوف عيناه تنزفان الدموع وعجز عن فعل أي شيء غير الدهول لما حدث لرفيقه.

يتبادل قسم الله وسعيد النظرات وأدركا أن الرصاصة أصابت قلب الجمل ولم يلبث أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، بنفس هلهلها الجزع خطأ مخلوف نحو رقبة صديقه خالغًا عن مشفره الكمامة المصفورة من حبال الليف الرفيعة، مال الجمل بجنبه على الأرض وسيقانه المتحركة من فرط الألم تطير الغبار، زاغت عيننا مخلوف ونهض من فورهِ، عنوة اختطف بندقية قسم الله، وجهها نحو الجنود الفرنسيين فصاحوا وتفرقوا في كل اتجاه وحين اعتصر إصبع الجمال الموجوع الزناد رفع قسم الله ماسورتها فطاش العيار في الهواء وسط صيحات وفوضى العمال والجنود الذين شهر بعضهم بنادقهم استعدادًا لمعركة مرتقبة، وغلاب لا يدري ما يمكن فعله لتهدئة مخلوف الذي ترك البندقية لقسم الله وجرى نحو الجند؛ فاهتاج العمال الخارجون من الحوش حتى ليما ن غادر المطبخ على أثر الصباح تبعته جوليانا ومنصورة خطت في سرعة نحو أبيها الواقف قبالة الجمل الممتدة رقبته في سكون، أمسك مخلوف بتلابيب الجندي المذهول من هجوم الفلاح الغريب، لكمه عوض في وجهه والتقط عصا غليظة لكن الأومباشي سعيد أسرع إليهما وحشر نفسه وسطهما، تعالت أصوات الهجانة مطالبة بالقصاص من الجندي الذي قتل جمل صاحبهم، في غمرة الهرج

خرج القادة من غرفهم محاطين بحرسهم الخاص، استطاع سعيد تخليص الجندي من قبضة مخلوف وذراع عوض الملتفة حول رقبته في اللحظة التي رفع ويليام ذراعه بالمسدس وأطلق عيارًا في الهواء أعقبه بآخر فانكسرت الأصوات، لم يضيّع غلاب ثانية في استدراك الموقف فوجه كلماته للكولونيل سميث مباشرة مشيرًا بسبابته نحو الفحل المصاب:

- واحد من جنود فرقة التدريب أطلق النار على جمل مخلوف.

نظر سميث إلى الجمل البارك، دارت عيناه في محجريهما وأفسح له العمال الطريق وهم يحدقون فيه بعيونهم الموتورة، عاين الجمل الممتدة رقبته وهو يقاسي سكرات الموت، ظل يتأمله إلى أن همدت حركته، منصوره جثت على ركبتيها وجوليانا خلفها، رأتا الدموع احتفرت مجراها من عين الجمل الساكنة فربتت منصوره على رقبته وعيناها تسحان، أنهضها غلاب فرجعت خطوتين، شعر سميث بفداحة الفعل وحماسة الجندي الفرنسي الذي قد يتسبب في تمرد فرقة العمال وهم في أمس الحاجة إليها الأيام القادمة، وإذا أضيف فقدانه للفحل القوي فقد جعل هذا كله صدره يفور بالغيظ والغصة تصل لذروتها فمطّ شفّتيه في حنق وهو يزعق:

- القائد موريس، إلى مكتبي.

قالها وهز رأسه إلى ويليام الذي لا يزال يشهر سلاحه والحرس من حوله يرفعون بنادقهم فودت منصوره لو تحضر مسدسها من الكيس وتطلق على الجندي النار ثأرًا لكنها تماسكت وانتظرت مع الملتفين حول مخلوف ما سيحدث، وجه ويليام أمره لكل من غلاب وقسم الله والأومباشي سعيد:

- إن كان في الحيوان نَفْسٌ فاذبحوه، نحن أولى بلحمه بدل تركه هنا تنهشه الكلاب.

- لا.

كبركان نطق بها مخلوف بروحه المذبوحة من ألم الشكل فافترت شفتا ويليام عن ابتسامه صفراء، تارة أخرى يتجاهل مخلوف ويوجه سؤاله إلى غلاب:

- فعلنا ذلك في الجمل الآخر، نسيت يا كبير العمال؟

- لكنه مات يا ميجور ونحن لا نأكل لحم الدواب الميتة.

- دمه لا يزال ساخنًا، إن لم تأكلوا منه، نحن نأكل منه، والطباخ العجوز بارع في طهي لحم الجمال... هههها.

استدار موليهم ظهره تبعه الحرس فنهض مخلوف قبالة ليان ويده تقبض على العصا، تراجع العجوز وابتعد تتبعه جوليانا، بكفه يربت قسم الله على كتف مخلوف فتراجع فجأة ولسانه يتلعثم بكلمات غير مفهومة، وقف غلاب قبالته لينهي الموقف:

- أخي مخلوف، جملك مات و...

- ندفنه يا غلاب، لا أحد منهم يأكل لحمي.

- ندفنه يا مخلوف واترك لي أمر الميجور ويليام.

شلق غلاب جلبابه استعدادًا لحفر نقرة كبيرة ورغم إرهاق العمال اليومي فإنهم حملوا الجرافات في همة وخرج لفيف منهم من الحوش وشاركوا الجميع في الحفر وإخراج التراب بالقفف، تمضي ساعة تلو أخرى وانضم عدد آخر من العمال حتى اكتمل الأخدود المستطيل، فوقف غلاب يمسح عرقه وهو يشير إليهم أن يتكاتفوا في زحزحة الجرم الضخم وقلبه في الحفرة لكنه توقف لاقتراب مخلوف من رأس فحله ومال عليه، قبله بين عينيه وربت على رقبته، أنهضه قسم الله وامتدت الأذرع فدفعت الجسم الكبير لمثواه فغاب في جوف الحفرة، دون أن يأمرهم غلاب طفقوا يهيلون التراب من كل ناحية إلى أن ردموا الشرخ الكبير بالكامل، لف سعيد ذراعه حول كتفي رجله وقاده إلى مرتبته، عاد كل

العمال لأماكنهم ليستريحوا من وعثائهم وزاد عليه الليلة دفن الجمل، تيار من هواء بارد
لفح وجه منصوره أحكمت لف الشملة حول رأسها ورفعت حجراً كبيراً وثبتته، بقطعة حجر
بيضاء احتفظت بها من أيام مودروس كتبت: جمل العامل مخلوف المصري: نهاية يناير
1917.

- سميث بهدل موريس، مسح بكرامته الأرض.
- احذري الاقتراب من مقرهم وترديد الكلام يا منصوره.
- لم أقترب ولم أقل لغيرك، جوليانا عندما قدمت لهم العشاء سمعت سميث يوبخ موريس واستدعوا الجندي المتهور ولاموه أشد اللوم على عملته، فاعتذر وأكد أنه لن يرتكب مخالفة.
- اعتذر؟ فيه الخير والله، يقتل فحلاً سنامه نحل من جر القضبان وحمل الفلنكات ويكسر قلب صاحبه عليه وبعدها يعتذر ويعدهم بالأفعالها ثانية، حسبنا الله ونعم الوكيل، صحيح، آخر خدمة الغز علقم.
- والأدهى أن سميث منع ويليام بشدة من طلب سلخ الجمل وأكل لحمه وسمعت أنه، أنه...
سرح غلاب بتفكيره فلم يلتفت لسكوت منصوره وتذكر حين مدد جسمه المنهك ليقتنص الهزيع الأخير من الليل قبل النهوض للعمل وصمم على مواجهة طمع ويليام في التهام لحم الجمال فقد عرف أن القائد الإنجليزي الجشع أوصى الطباخ ليमान من قبل باستخلاص أفضل قطعة من لحم جمل جواد والمبالغة في إنضاجها وسمعوا أنه ظل يأكل منها نهاراً بأكمله، وزاد من إصراره الظلم الواقع على الجمال مخلوف الذي يأتي بجمله مع فرقة الهجانة ليسخره في الخدمة في تلك البلاد البعيدة قاسية البرودة ثم يراه أمامه يموت برصاص جندي يتلهى هو وزميله أثناء التدريب، افترت شفثاه عن ابتسامه مشحونة بالحزن لكلمة الظلم التي وصف مخلوف بأنه وقع فيها فجميعهم نفوسهم طفحت المر الذي يشربونه كل ثانية حتى ثملوا وأدمنوه لكن ها هي منصوره تخبره بأمر الكولونيل سميث منع ويليام كي يهدئ من غضبة العمال التي كادت تنذر بتمرد لا تُحمد عواقبه، استراحت

نفسه لرفع حرج المواجهة مع ويليام بطباعه شديدة الحدة وبرودة دمه في معاملة الآخرين، التفت إلى منصوره فتشجعت أن تكمل ما تريد من أخبار اعتبرها كل من الكامب غاية في الخطورة:

- جوليانا يا أبي سمعت في غرفة سميث أخبارًا عن هجوم الألمان على فرنسا، كانت مفزوعة وهي تقول لي و...

تارة أخرى تصمت منصوره لجحوظ عيني أبيها وتغير قسماات وجهه المصبوغة بمزيج من القلق الشديد والجهامة، أدركت ما يفكر فيه ففي مودروس كانت أعمالهم محصورة في تجهيز مهمات الجيش المحارب في منطقة أخرى بعيدة خلف البحر تسمى جناق قلعة ساواشي كما سمعتها من مقبولة أو معركة جاليبولي ثم ساعدوا في تطبيب الجرحى لكنهم هنا في تلك الأرض فهم معرضون لهجوم الألمان وإلقاء القنابل عليهم وحصدهم بالرصاص السريع كما ترى في التدريب، ووصلها من جوليانا أن الألمان قساة ومغامرون وأنهم يخططون للمعارك بشكل لا يقبل الهزيمة ولديهم مدافع قوية يحركونها في كل الاتجاهات فتمتت في قرارة نفسها أن تنهزم جيوش الإنجليز والفرنسيين، ولكن لا يُصاب أحد من العمال المصريين ويعودون إلى بلادهم، رمقها غلاب بنظرة مطمئنة ورد عليها بصوت حرص على أن يجعله متزنًا:

- لا عليك يا منصوره، نحن هنا للمساعدة، ما لنا والحرب.

استدارت عائدة إلى المطبخ وهي تدرك تمامًا ما يفكر فيه أبوها الذي تجهز لمرافقة العمال إلى نهاية الطريق وقرر أن يحادث القائد سميث بوجوب نقل الكامب كله، إن لم يكن لهم أعمال أخرى، لمعسكر قريب من شامبييري؛ ليسهل نقل المعدات، توقف حين رأى سعيد وقسم الله يتجهان نحو غرفة سميث ويشيران إليه أن يتبعهما، دخلوا فوجدوا غنيم الشرقاوي وواحدًا من مساعديه يقفان أمام المكتب، أشعل غليونه ونهض وبين أصابعه عصا سوداء رفيعة تتلاعب بها أنامله، بدأ يتكلم في نبرة جهد ليجعلها معتذرة:

- "سوووري" يا جماعة العمال لما حدث لـ"الأنيمال"، أقصد الجمل، أسفت على موته ونحن في أشد الحاجة لمثله وزيادة، على العموم أنا لمت موريس والجندي الفرنسي.

انتظر سميت تعليقًا من أحد الواقفين أمامه لكنهم أطبقوا شفاههم منتظرين ما يريد الكولونيل قوله بعد تلك المقدمة التي تمهد لما اعتقدوا أنه الأخطر، فشملمهم بنظرات سريعة ثم أردف:

- فيه أخبار جديدة، كنا سنبقى هنا لحين وصول عمال آخرين لكن قررت أن ينتقل الكامب كله لمكان آخر أعد لكم في ضاحية جوار شامبيري وهذا سيخفف عنكم طول المسافة ويجعل أعمالكم أسرع وأنتم كبار العمال عليكم الاستعداد للرحيل.

- متى سيادة الكولونيل؟

- اليوم عليكم تنظيم فرقة العمال والهجانة ثم نتناول الغداء في الطريق ونتعشى في معسكرنا الجديد، فرق الجيش سبقتنا أما العمال الجدد فسيلحقون بنا هناك.

قالها ووجهه يبش وهو ينفث الدخان من منخاريه فلم ير في وجوههم سوى الوجوم فأشار لهم بالانصراف لتنفيذ الأمر وغلاب يعيد التفكير فيما قاله الكولونيل، أدرك مدى خبثه ودهائه فقد جعل كتائب الجند تسبقهم إلى هناك ليسكنوا العنابر الجيدة فلا يكرر الخطأ ويغضب العمال كما طلب منهم أن يقيموا في حظيرة الجمال، برقت عيناه حين علم أن المزيد من المصريين سيلحقون بهم في شامبيري وتاقت نفسه للأخبار التي سيعرفها منهم، تفرق خمستهم كل منهم إلى فرقته لينظم المسير الطويل وغلاب قلبه يدق عندما تذكر أن ما أمر به سميت هو نفسه ما كان يفكر أن يعرضه عليه.

نهار شتوي بارد لكن الشمس ساطعة في قوة، اطمأنّ غلاب على وجود منصوره في عربة
الطباخ وعاد ليرافق عماله، ارتدت الفتاتان معطفين ثقيلين وليمان يلف حول جسمه بطانية
وهو يقود عربة الأواني بصوتها المجلجل، تارة أخرى يرون سيدات ورجالا من ساكني
الأكوخ والبيوت الخشبية المتناثرة على جانبي الطريق إلى شامبيري وأطفالهم يتقافزون
حول فرق العمال والهجانة وتبارى الصغار في الاقتراب وتجراًوا على لمس أفخاذ الجمال
أو الإمساك بذيلوها، أحدهم ظل يسير خلف أحد الفحول فوقف فجأة وباعد بين فخذه
وزخّ بوله على الولد اليافع والبخار الساخن يتصاعد منه، ارتبك الولد وراح يمسح وجهه
وهو يزعق، وقفت منصوره وضحكت بصوت مسموع، دارت بعينيها تستطلع الطريق ومن
بعيد تبينت هيئة واحد من العمال متأخرًا خَمّت أن يكون مخلوف فإنه يقف أمام قبر
جمله ويرفع يده بالتحية ولا يزال الحجر جاثماً على الأرض.

أصابها تثلجت من البرد فوضعت يديها في جيبي المعطف، أناملها تعبت بشيء فلم تهتم
أول الأمر، عطست فسحبت المنديل القماشي واضعة إياه على أنفها، انثنت جوليانا إلى
الأمام قليلاً وأمسكت بشيء طار حين أخرجت منصوره المنديل، رفعت الورقة المطبقة
فالتقطتها منصوره وهَمّت أن تلقيها لكنها تذكرت أنها الورقة التي وجدتها في المعطف حين
فتشته في مودروس، برفق فردتها وانجلت ذاكرتها تماماً لتلك الصفحة المكتوبة بالفرنسية
كما ظنت، جلست قبالة جوليانا ومدت لها الورقة وهي تقول:

- ونحن في مودروس وزعوا علينا ملابس من ماتوا ودفنهم هناك فوجدت الورقة في
الجيب واحتفظت بها.

تناولتها جوليانا وقرنت حاجبيها، غمغمت بكلمات فرنسية سريعة فقاطعتها منصوره وهي
تطلب:

- بالعربي يا جوليانا!

- خطاب كتبه واحد من الجنود الفرنسيين لزوجته.

- أكيد فرنسي من الذين ماتوا في مودروس، يمكن كتب وصيته.

- لحظة واحدة يا منصوره.

سكتت منصوره والعربه تهتز، شغلت نفسها بمشاهده قضبان السكة الحديد التي مدها العمال المصريون وعلى الجانبين أعمدة التلغراف الجديدة تنتصب في شموخ، لم يطل انتظارها فالتفتت إلى جوليانا التي هزت رأسها وبدأت تترجم ما تقرأ:

“زوجتي الحبيبة ماري،

أكتب لك تلك العبارات وأنا مختبئ في خندق طويل بعد أن أنزلتنا المراكب على شاطئ الدردنيل، أخفض خوذتي الحديد فجميعنا في مواجهة الأعداء، لست متفائلاً فهم أعلم بأرضهم المتعرجة ومنذ أيام هاجمونا في قوة وأبادوا كتيبة بأكملها من الإنجليز والفرنسيين على السواء وقد يأتي الدور علينا والأمل في نجاتنا أن ننسحب فلا معنى أن نغزو بلادهم؛ حتى نقضي على دولة الأتراك بالكامل ونفتح الطريق لمساعدة روسيا ضد الألمان، قواد الأتراك شجعان وجنودهم لا يقهرون وأعدادهم لا تنتهي، أما جنرالات جيشنا فليس لديهم أي خرائط وفكرتهم عن طبيعة أرض المعركة مع الأتراك غامضة ومؤن الجنود تنفذ بسرعة وليس لدينا شيء نشربه، أشتاق إليك يا حبيبتي وأشتاق إلى كل أهلي..”.

- يظهر يا منصوره أن الجندي كتب تلك العبارات وهو في...

- في أحد خنادق المعركة.

- نعم وأكملها فيما بعد فالخط هنا مرتبك والقلم غير القلم.

- أكلمي يا جوليانا، غرضي أعرف بقية كلامه لزوجته.

“عزيزتي ماري،

أصبت برصاصة في ظهري وشظية في صدري، كان هجومهم شديداً وسريعاً، لا تنزعجي فأنا الآن في سفينة أكتب لك هذه الكلمات وسط تأوهات وآلام رفاقي الكثيرين وعندما يصمت أحدهم أدرك أنه قد مات ولا ينتظرون توقف السفينة على الشاطئ ويدفنونه لكنهم يلقونه في البحر، لا تزال المعركة مستمرة وعلى أشدها وأتوقع أن يسقط المزيد من جنودنا بين قتيل وجريح، لقد أوقعونا في فخ لم نكن نعمل له أي حساب، الآن أخشى أن أغمض عيني فيعتقدون أنني مت ويكون مصيري اللحاق بالرفاق في الماء؛ فأحرص أن تكون عيناى مفتوحتين وأتنفس حتى أحتفظ بحياتي، أتمنى أن أكمل لك الرسالة، ها هي الطيور تحلق أعلانا، كم أتمنى أن يحمل أحد النوارس رسالتي ويوصلها إليك، ترى هل تتحقق أمنيتي وأعود إلى أحضانك الدافئة أم أموت كرفاقي ونلقى في البحر فتشيع بطون الأسماك من أجسادنا..".

- فعلا ونحن في مودروس كانت السفن تنقل الجرحى إلى الكامب وكنت أساعد فريقا كاملا من الحكماء والحكيماى فى إسعافهم و... أه تذكرت.

- تذكرت من؟

- ذلك المصاب الذي كان سريره فى ركن بعيد بالعنبر، لا أتذكر وجهه بالضبط لكنه كان يفرد ورقة ويكتب.

- وهل مات هناك؟

- أكيد ممن ماتوا هناك فقد كان عمالنا يحفرون القبور والجنود يتولون دفن زملائهم، أبى صنع الكثير من الصلبان الخشبية لتغرز على تلك القبور.

- مغلوبون على أمرهم.

- انتهت الرسالة؟

- لا، توجد عدة سطور سأقرأها:

"ماري،

نقلوني في معسكر الجرحى بإحدى الجزر التي لا أدري اسمها، أخرجوا الرصاص من جسمي لكني أقاسي الحمى، إنهم لا يهتمون بي فقد أحضروا عشرات الجرحى الآخرين ويعجزون عن توفير الدواء لهم ويجاهدون في إنقاذ حياتهم، لا يسعني وأنا أكتب إليك أول النهار إلا أن أقول لك إننا أخطأنا، نعم، أخطأنا غزو بلاد غيرنا وهم يدافعون عنها بشجاعة، حتى تلك البلاد البعيدة التي نظن أننا امتلكنها ويتمرغ قادتنا الحمقى في خيراتها فسيأتي يوم في زمانٍ ما يثور أهل هذه البلاد ويطردوننا منها أو ندفن في أرضهم.

إن عدتُ للوطن سأحكي لك عن كل شيء، أما إن لم أعد فاهتمي بنفسك وبطفلنا الذي تركته يتحرك في أحشائك، أكيد وُلد الآن، أيا كان ولدًا أم بنتًا فاجعله يكره الحرب، ماري، اهتمي بمحل بيع الهدايا الذي أغلقته منذ إجباري على العمل في الجيش، افتحيه واستمري في عمل الهدايا وبيعه للعشاق المتجولين على ضفاف نهر السين، لا يمكن أن أنسى أنني تعرفت عليكِ هناك عندما كنتِ تريدان شراء هدية لعيد ميلاد إحدى صديقاتك، أحببتك وتزوجنا، عشت معك أجمل اللحظات ونحن نتأمل الماء الرائق ونصطاد الأسماك، افتحي المحل يا ماري وواصلِي بيع الهدايا، الهدية تقوي علاقة المحبة...".

هنيهة لم ترفع جوليانا رأسها عن الورقة، ولما استمرت منصوره في الصمت نظرت إليها جوليانا فرأت الدموع تفيض من عينيها، بكم المعطف تمسح خدها المرتعش وهي تقول بصوت متقطع:

- نعم، إنه الجندي المنعزل الساكت، لقد ظل ممددًا فترة طويلة حتى أنه رفض الطعام، ليتني اقتربت منه أكثر ولو أعلم أننا سننتقل لفرنسا كنت طلبت منه أن أقوم بنفسِي بتوصيل الرسالة لزوجته.

مطت جوليانا شفيتها وبدا على ملامحها التأثر، اغرورقت عينها بالدموع لذلك الجندي الذي لم يمهلها القدر حتى يكمل رسالته ويوقع باسمه أسفلها فمات وأقصى ما تمناه أن يرى مولوده ويعيشون حياة هادئة وهو الذي يمتلك حانوتاً لبيع الهدايا، تنفست جوليانا في عمق كارهة الحرب التي تحرم الناس من أرواحهم وأحبابهم، رغم أن الورقة مكتوبة بالفرنسية وبخط اليد فإنها أعادتها إلى منصوره التي كففت دموعها، برفق أعادت طيها ودستها مرة أخرى في جيب المعطف.

- تصوري يا جوليانا، أنا أرتدي معطف صاحب الرسالة.

- صَعْب عليّ أن يموت إنسان بكل تلك الرقة مصاباً ومحموماً وغريباً ويدفن بعيداً عن بلده.

- ليته كتب اسمه فعرفنا من هو.

- عندك حق يا منصوره، صدقيني كنت سألت عنه في كل باريس وأوصلت الرسالة لزوجته.

قعدتا ملتصقتين فلم تتنبه منصوره لوضعها إلا من نظرات العمال السائرين فأدركت سر بصاتهم الغريبة فانفصلت عن جوليانا وتكوّمت قبالتها متكئة بكوعها على الوشرة الخشبية المضمخة برائحة اللحم، ظلوا سائرين حتى انقطع خط السكة الحديد فأدركوا أنهم يقتربون من البلدة الأخرى التي سيعسكرون فيها لاستكمال عملهم، مالت الشمس نحو المغيب وفرق العمال لا تزال تسير في همّة إلى أن لاحت على مرمى البصر أشجار بعيدة فوقفت جوليانا تستطلع، كعادته دون أن يلتفت ليومان رفع صوته: شامبييري.

في حدة رفعت منصوره رأسها، فردت كفها أعلى عينيها فبدت عدة مبانٍ من بعيد كعلب صغيرة، دارت نظراتها تستطلع فرقة العمال والهجانة ورأت مخلوف يقود جمل جواد وأباها يشاركه الركوب من الخلف، ابتلعت ريقها وزفرت نفساً مشبعاً بالسأم للعمل المكروور الذي سيمارسونه فور وصولهم للضاحية الكبيرة خارج شامبييري من تسكين العمال وراحة بقية الليل ثم يبدأ شقاؤهم منذ بزوغ الشمس.

فوجئ غلاب وهو يثبت المسمار الحديد الكبير في نهاية الأستوانة الخشبية بعوض المنفلوطي يرفع صوته بأغنية ممطوطة وهو يحفر مع غيره نقرة واسعة استعدادًا لتثبيت عمود التلغراف بها، من حين لآخر يطلق سعالًا خشنًا وحين يهدأ صدره يواصل:

يا مهوّن هوّن يا مهوّن*

السبخة تراها مصون

أعزقها وبالخرص أديها

ابتسم لأغنية العمال التي يصبرون بها أنفسهم على العمل الذي أضحى انتهاؤه وشيئًا، امتد الخط الحديدي نحو المحطة الخشبية الكبيرة لشامبيري وأنشأ العمال رصيفين كبيرين على جانبي القضبان، أغمض عينيه وحفيف السنين المولية يرجرج ذاكرته حين كان يسمع الفلاحين يتغنون وهم يعزقون الأرض ويجمعون النباتات الضارة التي بها والخولي وراءهم بالعصا حتى لا تفتت همّة أحدهم في العمل، راح يرددتها معهم:

خولينا لابس طربوش*

وزره أسود منفوش

يا مهوّن هوّن يا مهوّن

* من أغاني العمل بالحقول المنتشرة في صعيد مصر.

مسح غلاب جبينه وتيار من هواء ساقع يرشق ظهره المحدودب من كثرة الانحناء، حادث
نفسه بصوت مسموع:

- هنا لا يوجد خولي يشرف على أرض الباشا، يوجد إنجليز وفرنسيس يسترضوننا كي
نعمل ما لا يطيقونه.

- ويوفرون جنودهم للمعارك وإن عصى أحدنا أوامرهم يكون مصيره القتل.

التفت غلاب لصوت غنيم الشرقاوي الذي يربط السِّلْبَة الغليظة في قمة الأستوانة
الخشبية استعدادًا لرفعها فابتسم له وتهيًّا لانتصاب العمود الأخير لخط التلغراف فتكاتف
الأيدي في القبض على الحبال، وعند الإشارة شدوها فارتفع العمود في قوة لكنه مال
ناحية القضبان ولم تُجد محاولة العمال في اتّزانه فوق مدهمًا عاملاً يحمل على كتفه قفة
مملوءة بالحصيات، صرخات العمال المذعورة تصطبخ وهم يرون الكتلة الخشبية تهوي،
اختلطت زعقاتهم المحذرة بأن يحاسب أو يبعد لكن العمود الثقيل هوى فهرس رأس
العامل على الزلط وتفجرت الدماء على حديد القضبان، هرولوا نحوه، تزاحموا حول العمود
وأبعدوه شبرين؛ حتى يتسنى لهم معرفة من اغتاله عمود التلغراف، وجه الشاب لا تبين
ملامحه وعنقه ملتوي، رفعوه نحو الخيمة المنصوبة على جانب الطريق، الدماء الدافقة تغرق
رأسه، رفع غنيم يده فسقطت وغلاب يضع أذنه على صدره، جمل قسم الله يرغو وهو
مقبل به من بعيد، قفز من عليه وخطا في سرعة نحو اللّمة، بقطعة قماش مسح غلاب وجه
الشاب فظهر الشج الكبير من جبينه إلى عمق رأسه.

- تبعكم يا عم غلاب.

- عوض المنفلوطي.

- الشاب تبعنا كلنا يا مصريين.

علت أصوات العمال وتبادلوا إلقاء تبعة وقوع العمود على بعضهم البعض حتى احتدت المهاترات إلى التلاكز والشجار بالأيدي فتدخل زملاؤهم وحالوا دون احتدام النزاع، أقبل عدة جنود تمتد مواشير بنادقهم نحوهم، يأمرون أن يتفرّق العمال قليلاً فأقبل القائد موريس خلفه الكولونيل سميث، يهزّ رأسه في ألم حقيقي لمنظر الجثة المخيف، ثبت ثانية ثم استدار دون أن ينطق كلمة أما موريس فقد انتشرت كلماته فترجمها واحد من الجنود بطريقة متكسرة يكسوها التردد:

- عليكم دفنه، ثم عودتكم إلى العمل.

وسط بكاء ونهنيات العمال الملتفين حول الخيمة جهزوا عوض وعلى نقالة خشبية حملوه نحو أجمة الأشجار القريبة من كامب شامبيري، من نافذة المطبخ أشارت جوليانا فالتفت منصورة ولم تلبث أن تسابقتا نحو الجنازة إلى أن وصلتوا والعمال يهيئون المطرح لحفر القبر.

- العوض فيمن يا أبي؟

- في عوض المنفلوطي يا منصور.

- قبل الحادثة بدقائق كان يغني.

لم تلتفت لتعليق عامر الإسناوي، حملت منصورة في الجسد الملفوف وبقعة من دماء لونت الملاءة، بحرقه بكت على الشاب النحيل ذي العشرة الطيبة، كان طوال الوقت وهم في مودروس لا يكف عن الغناء للرمان المنفلوطي ويعددهم بأقفاص منه إن عادوا إلى ديارهم، تشابكت عباراته الساخرة بأغانيه بنكاته بمشاكسته لكل من حوله، احتبس الحزن في قلبها قهراً على عوض الذي استظرفت روحه الخفيفة وقفشاته لا تخلو منها قعداتهم، وحين رفعوا أول عمود تلغراف نظر إليه وهو يرفع صوته كعادته ليسمعه الجميع: يا زارع في غير أرضك يا مربّي في غير ولدك.

لا تدري منصوره أتبتم أم تولول فاختلطت دموعها برغبة متقهقرة في تذكر مواقف أخرى لعوض وحركاته التي كان يفتعلها من أجل إضحاك رفاق الغربة والتخفيف من شقاء أيامهم، انتهت لإقامة أبيها الصلاة فلم تقو على الانتظام معهم وبقيت في الخلف تجاور جوليانا، بعد أن أهالوا على قبره التراب، تفرق العمال وبقى عبدالصمد الفرشوطي يبكي، أقامه عامر ولحقا بالعمال وخزي قلة الحيلة يغمر نفوسهم، غمغت بصوت خفيض وهي تتأمل كومة الأحجار بين الشجرتين المكتئبتين من برد الشتاء:

- مكتوب علينا نروي بدمنا شجر الغربة.

سحت دموعها فأرادت جوليانا أن تنهي الموقف ولا سيما أنهما فقط الواقفتان في البراح بعد انسحاب العمال فبحثت عن حجر كبير وجدته ملقى أسفل شجرة مورقة، في جهد حملته وثبته أعلى كومة التراب، لم تنتظر أن تخط منصوره عليه اسم الميت فأخرجت من جيبها قطعة طباشير وكتبت ما أملت منصوره في صوت مرتبك: عوض المنفلوطي المصري، صمت ولم تلبث أن أجهشت بالبكاء وهي التي ظنت حين استقروا بتلك البلاد الكبيرة أن الموت توقف فواصلت جوليانا الكتابة: شتاء 1917 م.

أحد الصباحات بعد تناول الإفطار، دقت الطبول والمزامير واصطف الجنود في طوابير منتظمة وهنأهم موريس وسميث وويليام وبقية قوادهم بانتهاء مد خط السكة الحديد والتلغراف إلى شامبيري وسمحوا لهم بالاحتفال إلى أن يحين الغداء فتفرقت صفوفهم واجتمعوا في حلقات، نفخت المزامير بموسيقى فرنسية فتحرر معظمهم من الأسلحة وطفقوا يرقصون والعمال المصريون يراقبونهم، نهض أحدهم وطلب من قائد الفرقة الفرنسي طبلة كبيرة فتردد لكنه أعطاها له، بعضا خشبية قصيرة بدأ العامل في دق الطبلة فاهتزت نفوسهم وارتعشت في ذاكرة كل منهم أنغام الطبل البلدي فاتسعت الحلقة أكثر وصفق اثنان والآخرين قلدوهم حتى اصطخبت اللمة الكبيرة بين التصفيق والغناء

المتفرّق، نهض خلف الله القناوي وعامر الإسناوي ويبد كل منهم غصن شجرة طويلة يشبه الشومة، رقصا على الطبل البلدي فتنّبّه الجندي الإنجليزي والفرنسيون وتوافقوا على حلقة العمال؛ ليشاهدوا رقصهم، تقابل خلف الله وعامر وتبارزا بالعصا والمغني يواصل غناؤه غير المفهوم للجنود المحيطين بهم، ظل الشبان يتبارزان إلى أن تغلب خلف الله وألقى بعصا عامر على الأرض، وسط صياح العمال أفسح الجنود للكولونيل سميث وموريس وويليام المتقدمين وسطهم فتحاضن خلف الله وعامر والتفتا لتوقف ضارب الطبل، سميث يرفع كوبًا ويحتسي ما فيه دفعة واحدة وهو يبتسم للعمال المحتفلين ببقائهم إلى هذه اللحظة على قيد الحياة.

تقدّم ويليام إلى خلف الله ومد يده للعصا فتركها الشاب وهو يبتسم، رفعها الميجور الإنجليزي في وجه عامر الإسناوي فخشي غلاب ألا يحسن الشاب الصعيدي المزاح ويضرب القائد أو يوقعه ويثير غضبه فتقدّم طالبًا العصا من عامر فتركها له على الفور، شمّر غلاب أكمام جلبابه المدلاة ورفع العصا ومنصورة قلبها يدق للمبارزة التي لم تكن على البال أو الخاطر، ودت لو تقاتله هي وتعطيه درسًا ساخنًا فتوجع ظهره بالضرب، هز ويليام العصا وغلاب يرفع عصاته في هدوء، هجم ويليام فتلقّى غلاب الضربة، دار القائد الإنجليزي وهو يراوغ ويكر محاولاً أن تطول العصا الغليظة أي منطقة في جسم غلاب فيضحك عليه الجنود، فهمه غلاب وسمح له وسط قفزاته أن تصل العصا إلى ظهره فصفق الجنود وعلت أصواتهم فرحة في حين امتعض العمال وهم يشجعون فارسهم على النيل من ويليام المكروه منهم جميعًا، تهاؤن غلاب أغرى ويليام أن يعيد هجمته فرفع العصا نحو غلاب الذي فتح صدره وفي اللحظة الأخيرة تحاشاه مثبتًا طرف العصا بين قدمي غريمه فتعثرت وانهار على الأرض، دقت الطبلة في قوة واصطخب العمال ضاحكين وبالغ أحدهم في الصياح تشفيًا في موقف ويليام الذي لا يُحسد عليه وهو ممدد على الأرض، قبعتة ارتمت بين قدمي غلاب وبذلته العسكرية تمرغت في التراب، في تأفف ألقى سميث سيجارته وأشار إلى الجنود فخطا اثنان نحو قائدهم وأنهضاه منفضين سترته من التراب، نظرة تملأها كل صنوف الحقد ألقى بها إلى غلاب الذي انحنى ملتقطًا بأصابعه البرنيطة

العسكرية وقدمها إلى القائد المهزوم، نتشها وافترت شفتاه عن ابتسامة سامة ثم رفع يديه مصفقا فتبعه الجنود ولم يلبث أن تراجع منسحبا نحو صالة الطعام فأحاط العمال بغلاب مهنئين له انتصاره، سلم عليهم واحداً واحداً وفي قرارة نفسه ود لو يغرز العصا في رقبة ويليام لولا سوء العاقبة التي ستطوله هو وبقية العمال لو فعلها.

انتهت ساعة الغداء فتجمع قسم الله مع الأومباشي سعيد، وانضم إليهما غلاب وغنيم الشرقاوي، ساروا نحو مقر القيادة، طلبوا الإذن بالدخول وبعد فترة سُمح لهم فوقف أربعتهم أمام مكتب الكولونيل الذي اصطنع البشاشة وهو يرحب بهم:

- محارب ماهر أنت يا غلاب.

- أشكرك حضرة الكولونيل، كان مجرد لعب، لنا سؤال: هل سنرحل؟

- نعم سنرحل.

ومضت الفرحة في قلوبهم للرد السريع غير المتوقع من الكولونيل؛ فقد هينوا أنفسهم قبل مجيئهم للشد والجذب والاعتراض على بقائهم أياماً أخرى ما دام خط القطار انتهى العمل فيه، أيقن غلاب أن القائد الإنجليزي راضٍ عن إنجاز السكة الحديد وخط التلغراف من بلدة فوارون إلى شامبيري في هذا الوقت القصير وأن مهمتهم هنا انتهت، دق الجرس فدخل الحارس على الفور، طلب منه استدعاء القائد موريس، انشغل سميث في إشعال غليونه والعمال الأربعة ينتظرون منه أمر الاستعداد للعودة ولملمة مهمات رجالهم وتنظيم سفرهم الطويل إلى فوارون ثم جرونوبل ومنها إلى مرسيليا حيث سفن العودة إلى أي ميناء بمصر وسيعرف كل منهم كيف يرجع لقريته، دخل موريس وحادثه سميث في سرعة، فتح القائد الفرنسي دولاباً خشبياً كبيراً وأخرج منه صندوقاً، وضعه أمام الكولونيل ففتح قفله بمفتاح كبير، قدّمه إلى غلاب وهو يقول في صوت مشبع بالإغراء:

- وزع على عمالك هذه الفرنكات.

لم يستطع غلاب أن يكتف فرحته وأيقن أن مهمتهم انتهت فعليًا وها هم يقبضون أجورهم وشاركه غنيم الشرقاوي بشاشته، أما قسم الله وسعيد فظلا ساكتين ينتظران ما تفصح عنه طوية القائد الإنجليزي.

- نشرك حضرة الكولونيل، هل تأمر أن يستعد العمال للرحيل؟

- سنرحل كلنا حضرة كبير العمال غلاب.

- تقصد سيعود معنا الجنود؟

- سنرحل لكن.. إلى... إلى ليون.

- ليون؟ هي بلد في طريقنا إلى مرسيليا؟

- بل في طريقنا إلى باريس واطمئن لا توجد مشاق يتكلفها العمال بعد ذلك، فقط سنرحل إلى هناك.

سقط قلب غلاب بين ضلوعه وهو يتلقى أمر السفر إلى داخل فرنسا لا خارجها فهز رأسه واحتبس الصوت في حلقه فأدرك قسم الله ما يقاسيه غلاب فسأل:

- وإن لم يتبق لنا عمل سواء نحن الهجانة أو العمال فلماذا الرحيل إلى باريس أو أي بلد آخر؟

- نحتاج إلى العمال حضرة كبير الهجانة، العمل لم ينته بعد والحرب على أشدها، سنرحل بمجرد وصول جمالة وعمال آخرين يساعدونكم.

- لكن حضرة الكولونيل العمال تعبوا ويريدون العودة إلى ديارهم.

- لا عودة يا كبار العمال، يجب أن نتعاون كلنا في مواجهة العدو وهزيمته وبعدها يعود كل منا إلى بلده، فنش...

لا يدري غلاب ماذا يصنع وهو مكبل بالعجز وقلة الحيلة وقلبه مصروع بالخوف ويأس الفكاك من تلك الأحبولة التي أحاطت بهم من كل جانب، أقدم غنيم الشرقاوي على إنهاء الموقف بحمل صندوق الفرنكات والتراجع، بأصابعه قبض سعيد على ذراع غلاب وجره للخلف، خرجوا وقسم الله يفكر في الهجانة الذين سيقبلون في القريب العاجل وبعدها سيكون المنفى الذي ينتظرهم وخاصة بعد أن تناقل كل من بالكامب أخبار القتال الدائر بين الألمان والإنجليز والفرنسيين في معارك أخرى بعيدة لكنها لم تلبث أن تطولهم الحرب لا محالة.

ترك غلاب أمر توزيع النقود إلى غنيم الشرقاوي وقسم الله وعاد إلى العنبر واضعاً ذراعه على جبينه وهو يفكر في حاله وحالهم وموقف منصور التي زاد قلقه عليها رغم وجودها معززة في مطبخ ليमान، أغمض عينيه وأغفى وهو يجالذ اليأس، لا يدري كم من الوقت انقضى وهو على حالته من شلل التفكير، فتح عينيه للأصوات العالية خارج العنبر، نهض منتعلاً خفه وخرج فطالعه أحد العمال يشير إلى بعيد، قرص الشمس يميل نحو الغروب، المدى الفسيح يفرخ كائناتٍ تقترب، الدقائق تمر فتنجلي رءوس الجمال رويداً رويداً، استحلب أنفاسه في هدوء للقادمين لعلمهم ببردون صدره بأخبار عن مصر.

العتمة بدأت تطل بقتامتها على الكامب الكبير بشامبيري فأوقد العمال مشاعل كثيرة مرحبين بفرقة الهجانة التي تحمل روائح تراب بلادهم الغائبة، كانوا خليطًا من هجانة الشرقية والصعيد وحرفيين من مدينة رشيد فاستقبلهم العمال بحفاوة بالغة ورحبوا بهم بحميمية فتحاضنوا دون سابق معرفة ببعضهم، اشتموا من عرقهم الفائح عقب الحنين إلى العودة، انشغل الجميع في تجهيز العشاء للقادمين المتعبين من السفر المرير ودون انتظار أوامر من القادة الإنجليز أو الفرنسيين جهزوا لهم أماكن بياتهم وغلاب يتجول وسطهم وهو يحمل تلالًا من ضيق ويصابر الإحساس بالهزيمة ولا يدرى ماذا يصنع وقد دمر سميث بصيص الأمل في العودة فانمحت في نفسه أي رغبة في تبادل الكلام مع أحد الواردين، سار متصنّعًا تفقد أحوالهم وقلبه يعزف لحن اليأس، مرّ على إحدى الحلقات والعمال يقدمون الشاي إلى رفاقهم الجدد وما إن تخطاها حتى تنهى لمسامعه صوت أحدهم يهتف باسمه في خفوت وكأنه يسأل القاعد جواره عن حقيقة الكهل المبتعد عن جلستهم، لم يبال وواصل سيره لكن الصوت علا وكرر مناداته فتوقف ملتفتًا وعلى ضوء المشعل المثبت على الجدار اقترب الشاب منه وهو يبتسم في نشوة ويكرر اسمه:

- عم غلاب، أنا كامل، كامل بن عبدالله الجمال، جيرانك في الإسماعيلية.

كمسارين ثبتت قدما غلاب في الأرض وحملق متفرسًا قسماات وجه الشاب المتعبة، ازدرد ريقه في صعوبة وكامل لم تغب ابتسامته بعد، مادت الأرض من تحت قدمي غلاب، ترنح وكاد يقع؛ ها هو واحد يعرفه ويعرف أباه حق المعرفة، فعبالله هو أول إنسان فكر في أن يترك منصوره عنده حين قرر السفر إلى بورسعيد، تمالك نفسه وانفرجت ذراعاه مفسحًا حضنه لكامل فارتقى الشاب يتمرغ بجلبابه وكأن شجرة وارفة هبطت عليه من السماء وهو يسير في صحراء قاحلة، يربت على كتف كامل ويعب من أنفاسه حميم الجيرة الطيبة،

عجز عن منع دموعه فسالت مبللة شفثيه، برفق تباعدا، تماسك وتحولت سحنته إلى خليط من الفرح والترحيب:

- أخبار والدك ووالدتك وأختك فاطمة؟

- بخير، أختي تزوجت ابن عمنا في البلد وأمي تعيش في بيتنا هناك.

- وأبوك؟

- العمر الطويل لك يا عم غلاب.

قالها ورأسه مطرق، تداخلت أمارات الحزن بوجه كامل، فثبت غلاب عينيه في وجه الشاب الهادئ يريد أن يستفسر عن سبب موت أبيه فأجابه:

- صحبت أبي لنخدم الجيش في قلب الصحراء وقامت حرب كبيرة هناك ومات، رجعت بجملي للإسماعيلية وبعدها حاولت الاستقرار في الشرقية أزرع القراريط لكنهم جعلوني أتطوع مرة أخرى في الجهادية.

- جعلوك تتطوع؟

- أجبروا كل من يملك جملاً على التطوع في خدمتهم.

- التطوع ليس جبراً يا ولدي.

- ساقونا بالكرابيج يا عم غلاب.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، رحمة الله عليك يا عبدالله لكن...

- سأحكي لك يا عم غلاب، المهم أخبار بنتك منصوره، تركتها في مصر؟

في حدة التفت غلاب يمينة ويسرة وقبضت أصابعه على ذراع كامل ساحبًا إياه بعيدًا عن مسامع المتحلقين، قرّب شفّته من وجهه وهو يخبره في همس:

- لم أتمكن من إرسالها لبني عيش في جرجا، ولم أتركها في الإسماعيلية، منصوره هنا معي.

- في فرنسا؟

- نعم، صحبتها من الإسماعيلية لبورسعيد لمودروس لمرسيليا حتى هنا، رحلة طويلة ومضنية لكن...

- ماذا يا عم غلاب، أصابها سوء لا سمح الله؟

- لا، لكن من قبل رحيلنا وهي تحلق شعرها وتلبس جلباب الرجال وتسمى منصور لا منصوره، احفظ السريا كامل، الكل هنا يعرفها بمنصور وهي تعمل مع مساعدي طباخ فرنسي عجوز اسمه ليمان يرافقنا في كل بلد.

- فهمت يا عم غلاب.

سكت غلاب وأراد أن يدير دفة الحديث فدار رأسه يدقق النظر في الظلام إلى أن أشار إلى مشعل بعيد أسفله ثلاثة رجال، قاد كامل نحوهم وألقى عليهم السلام، جلسا قبالتهم وقدمه غلاب لقسم الله والأومباشي سعيد وغنيم الشرقاوي:

- كامل عبدالله، من الشرقية يا غنيم، أبوه رحمه الله كان صديقي.

- من الشرقية؟

- من أولاد صقر.

- مرحبًا بالصقور وأولاد الصقور، أنا عمك غنيم من هرية رزنة.

أفسح قسم الله مكانًا لجلوس كامل وصبّ كوبًا من الشاي الساخن ليدفئ صدره من البرد،
بادأه غلاب:

- تحب ألف حول كتفك بطانية؟

- لا، متعوّد على الجلوس في الطل.

- احك لنا عن مصر والحرب.

- لا حرب في مصر يا عم غلاب، كل الناس هناك منشغلة على العمال والهجانة البعيدين
عنهم.

- الحمد لله، فيه ناس فكرت فينا.

- سمعت أن الجرنالجية كتبوا عنا وعن سوء أحوالنا سواء في حرب رمانة مع الأتراك أو
الذين أجبروا على الخدمة في أوروبا.

- لكن الحرب مع الأتراك انتهت يا كامل وانتصر جيش السلطان محمد الخامس في
جاليبولي ووقعت في صفوف الإنجليز وحلفائهم مقتلة ما لها وصف، عشنا أخبارهم في
مودروس.

- أنت عارف يا عم غلاب أني وأبي وفرق كبيرة من العمال والهجانة عملنا ما لا يتخيله
إنسان في العالم كله، مهدنا الطرق في الصحراء، وحفرنا الآبار وأنشأنا الحصون والمخابئ
والسكة الحديد وخطوط التلغراف قبل الحرب.

- وفي الحرب؟

- في صيف العام الماضي وتحديداً يوليو وأغسطس تقدمت فرق الأتراك المتحالفة مع الألمان بقيادة جمال باشا والقائد كريس ثون، الإنجليز وحلفاؤهم قابلوهم عند رمانة وقاتلوهم أشد ما يكون القتال ومع الحر والعطش والصحراء مات من الألمان والأتراك الآلاف.

- والإنجليز؟

- بفضل مدنا لهم بالماء والمهمات والأسلحة واختبائهم في الخنادق حقق القائد موري النصر.

- وبعده؟

- انتهت الحرب وعاد من عاد منا ولكنهم أجبرونا على التطوع في الخدمة وخاصة الهجانة وتم شحننا في سفينة كبيرة إلى هنا.

- حمدًا لله على سلامتكم يا كامل، أكيد تبغي الراحة بعد طول السفر، اصطحبه يا عم غنيم للعنبر.

قالها قسم الله وهو ينهض فقاموا جميعاً في اللحظة التي أقبلت منصوره نحو أبيها واللثة من حوله.

- تخيل يا منصور، كامل ابن عمك عبدالله الجمال حضر مع الجد.

- مدّت منصوره يدها مسلمة وهي مندهشة من تقديم أبيها له على أنها منصور فسلم عليها الشاب الهادئ باليد وتأكدت أن أباه سبق بالتحذير فسألته منصوره في صوت جهدت أن تجعله خشناً أمام الواقفين:

- كيف حال أختك والحاجة أمك؟

- بخير يا منصور، نحمده على كل حال، يا رب تنتهي خدمتنا ونرجع لهم بالسلامة.

اصطحب غنيم وقسم الله وسعيد كامل الجمال نحو عنبر بعيد مجاور لزريبة الجمال التي سمعها غلاب تطلق رغاء الفرح برفاقهم المنضمين إليهم، فابتسم غلاب وهو يفكر في تلك الحيوانات وأنها أمم أمثالهم كما سمع من الشيخ محسون في خطب الجمعة فقد تسأل إبل فرقة الأومباشي سعيد الجمال الجديدة عن الأحوال في مصر وتشكو لها مشاق العمل، ابتسم لهذا الهاجس فقاطعته منصوره وهي تستفسر:

- جميل أنك فطمت كامل على الحقيقة قبل أن يخطئ بغير قصد.

- خفت أن يسأل عنك أمام الناس.

- المهم يا أبي، سمعت من جوليانا أن الكامب كله سيرحل في الصباح نحو بلد اسمه، اسمه، مولي، مولا...

- اسمه مولن وقبله نمر على بلد كبير اسمها ليون.

- صحيح، جئت أخبرك.

- من هنا إلى أن نستقر تلزمين المطبخ يا منصوره، أرجوك يا بنتي.

- حاضر.

غادرته نحو الغرفة الكبيرة الرابضة آخر الكامب فانتظر غلاب إلى أن دلفتها واستدار عائداً إلى العنبر وأنصال من ضيق تنغرز بصدره من انتصار الإنجليز على الأتراك برغم تحالفهم مع الألمان، وصل إلى سريره فمدد جسمه المنهك وسحب البطانية ليغطي وجهه، استدفأ بأنفاسه وهو يغمغم:

- هكذا الحرب، يوم لك ويوم عليك، لكن لو انتصر الأتراك ربما طردوا الإنجليز من مصر، لكن الألمان كانوا سيتقاسمون حكمها بدل الإنجليز، لا حول ولا قوة إلا بالله، إن تحالفنا مع الإنجليز ونصرناهم بقوا في مصر وإن ثرنا عليهم وساعدنا الأتراك والألمان احتلنا الألمان، آه لو نطرد الإنجليز ولا نسمح لغريب يحكمنا، سلطاننا موجود وهو أولى.

سكت غلاب وأوقف تفكيره مقنعا نفسه بضرورة إجبارها على النوم حتى يستطيع تحمّل الارتحال وإلا سينكفى من على ظهر الجمل وإذا أضيفت تلك الليلة شديدة البرودة فقد أغمض عينيه منتظرا انبلاج النهار ليتدبّر مع قسم الله وغنيم وسعيد أحوال الجمالة الجدد ويسمع منهم المزيد من الأخبار.

انفتقت العتمة ليطل النور الضعيف من نافذة مكتب الميجور ويليام وهو يتأمل بنايات الكامب الذي اتسع بحضور المزيد من هجانة المصريين، برغم الخدمات التي يقوم بها كل هؤلاء العمال والتي لا يقدر عليها غيرهم وتوفر للجيش الآلاف من الجنود إلا أن صدره يضيق بهم وفي قلبه تراكتت جبال من حقود على غلاب الذي أوقعه على الأرض ومرّغه في التراب، هزّ رأسه متوعدًا وهو يلقي عقب سيجارته، دقّ على الباب فاستدار منتظرًا دخول الجندي ألبرت في نفس موعده المبكر كل صباح، دون أن يتفوّه وضع ألبرت الذي يعرف العربية عدة أوراق على المكتب وأدى التحية لقائده وانصرف، جلس ويليام أمام التقرير الصباحي عن حالة الكامب بالليل وثبت على عينيه نظارة وأخذ يقرأ بصوت يسمعه:

“رحّب العمال المصريون بالهجانة وعاونوهم في التسكين، ومن يتعهد بفناء الجمال هيا الأماك للحيوانات الكثيرة ووضع لهم ما يكفي من علف وماء، أما العمال فقد تناولوا جميعًا العشاء وبعده سألوهم عن أحوال البلاد، من خلال تجوالي سمعت بعضهم يروي انتصارنا في معركة رمانة بصحراء سيناء ضد التحالف التركي الألماني أما عن المطبخ فالطاهي العجوز ومن يعاونه ملتزمون بأعمالهم والطعام لا شكوى منه والخبز متوفر، وكما أكدث في التقارير السابقة أكرّر ما ألاحظه أن الشاب منصور ابن كبير العمال غلاب الذي يعاون ليमान في تجهيز الوجبات يتصرف بطريقة غريبة فيتلفت كثيرًا قبل أن يخلع رباط رأسه ورأيت جوليانا ابنة الطاهي تمشط له شعره القصير وتحاول أن تضع قرطًا فضيًا في حلمة أذنه لكنه يمتنع ويعيد لف الرباط على رأسه مرة ثانية. انتهى.”

أعاد ويليام قراءة التقرير ولم يلبث أن أخرج ورقة بيضاء وقلمًا وشرع يعيد صياغته في نقاط محددة ومختصرة ليرفعها إلى رئيسه الكولونيل سميث بعد دقائق لكنه لم يدوّن ملاحظة ألبرت على منصور، أنهى تلخيص التقرير ومطّ شفتيه، نهض ليذهب إلى غرفة قائده الأعلى وهو يضم انتصارًا آخر سيحققه في الوقت المناسب على غلاب كبير العمال الذي تجرأ وبارزه وأوقعه على الأرض أمام ضباطه وجنوده.

رويداً نبتت الشمس من بين هضاب السحب فانشغل الطباخ ومعاونوه في تجهيز الإفطار وإعداد جرادل الشاي الكبيرة فيما نهض غلاب على صوت بعيد لإقامة الصلاة فتوضأ وهرول ليصطف جوار العمال، ما إن أنهى عبدالمعين الأزهري صلاة الصبح حتى صافح غلاب الراكع جواره وعرف أن اسمه سابق السمكري من بولاق، تم توزيع الإفطار مبكراً وفي داخل العنابر بعد الاستغناء عن صالة الطعام، على عجل شربوا الشاي وغلاب يبالح في إكرام ابن صديقه كامل الذي فرح به أيما فرح واستعاض بوجوده عن المعارف والجيران في الإسماعيلية، علت الشمس والكامب ينتظم في صفوف وطوابير ومهماتهم على ظهورهم والجنود يحملون المخالي والأسلحة والأثقال تحملها الخيول والبغال الكثيرة، فور سماع صافرة التحرك بدأت الأرجل تدب مغادرين كامب شامبيري والجنود يستحثونهم على المضي بلا توقف ومن أعلى حصانه يصوب ويليام نظراته نحو عربة ليمان الطباخ ويهز رأسه لمنصورة الواقفة في وسطها تتأمل أكشاك السكة الحديد العالية التي بناها المصريون ومن على جانبي القضبان تنتصب أعمدة التلغراف فهزّت رأسها حسرة على الجهد الجهد الذي نزفه رفاقها من عرقهم وسيتركونه لتلك البلاد هدية دون أن يشقى فيه أحد من أهلها، عضت شفتها وهي تقول في صوت مسموع:

- آه لو كل ما بنيناه هنا كان في بلدنا.

جلست جوار جوليانا التي انشغلت في حياكة ثوبها المفتوق، التفتت إلى منصوره وقالت في مرحها المعتاد:

- حين نصل إلى باريس يا منصوره، سترين أجمل مدينة في العالم، فليحفظها الرب من خراب الحرب ويبعد عنها الأعداء.

- فليحفظ الله كل بلادنا من الحرب نرجع لها سالمين يا جوليانا.

ظل الكامب بأكمله يسير إلى أن وقف غلاب على ظهر الجمل الذي يقوده كامل عبدالله يستطلع المياه الجارية التي يتجهون إليها، فارس يمتطي سهوة جواده يسرع إليه وهو يخبره بعربية متكسرة:

- سنستريح الليلة على شط الـ"ريقر" أقصد النهر.

- أي نهر؟

- هناك على شط نهر الرون قبل الاتجاه نحو ليون.

تركه الفارس وعاد إلى عربة القائد موريس في الأمام، مالت مقدمة الراجلين نحو الشمال تبعثها جموع العمال والهجانة إلى أن بدا النهر، هبت من فصوص الطين المتناثرة روائح الحنين إلى النيل، وقفت منصوراً لتشاهد مياه النهر الجارية ودار في مخيلتها أن تحصل على صنارة وتربطها في خيط ثم تلقي بها في الماء وما إن يهتز عود الغاب الطويل حتى ترفعه في سرعة وقد اصطادت سمكة بلطي كبيرة كما كانت تفعل وهي صغيرة على ضفة النيل في عيد شم النسم. تدريجياً توقفت فرق الهجانة تبعثها فرقة العمال والنهار قد انقضى بطوله في الرحيل، دارت عينا غلاب تمسح شسوع الأرض المطلة على النهر وكأن سميث وموريس يعرفان تلك المساحات حق المعرفة، فأمرُوا بنصب الخيام اتقاء موجة البرد فلم يبال الكثير من العمال بتناول الطعام قدر اقتناصهم لساعات من النوم متلاصقين داخل الخيام السميكة وكل منهم لف جسمه بالبطانية فلا تبين سوى وجوههم، جوار منصوراً وقفت جوليانا وهي ترفع ياقة المعطف الثقيل لتدفي رقبتها:

- سمعت أن النيل أجمل أنهار الدنيا.

- وخيراته كثيرة يا جوليانا، آه لو أصطحبك لمصر ونسافر معًا للجنوب، قرينتنا هادئة والحمام فيها يرفرف والناس طيبون لا يعرفون سوى الأرض وحيواناتهم.

- جميلة تلك الحياة الهادئة، كهدهء ضاحية وهران التي كنت أعمل في أحد فنادقها أنا وأبي، أكيد القرى العربية تتشابه.

صمتت جوليانا فوقفت الفتاتان ترقبان العتمة التي تتسحب رويدًا على ساحة المعسكر الكبيرة، لفت جوليانا ذراعها على كتف صاحبتها وقادتها نحو عربة أبيها، رآته ينهي نصب خيمة صغيرة جوارها، فرشت منصوره لنفسها مرتبة قديمة أسفل العربة بينما دخلت جوليانا الخيمة، كبقية العمال شعرت منصوره بالوهن يدب بأوصالها فتركت نفسها للاسترخاء، نامت وهي تهيئ نفسها لرحيل طويل عند بزوغ شمس النهار.

رذاذ الأمطار يدغدغ وجه منصوره والعربة تسير في مؤخرة فرق العمال في طريقهم إلى ليون، شعرت بسرعة العمال في السير مخافة هطول الأمطار بغزارة لكن السماء رحمتهم وتوقف الرذاذ والشمس لا تزال محتجبة خلف ركام من السحب الكثيفة، انقضت الساعات وأقدامهم تدب ولا عمل لهم غير إرسال نظراتهم إلى بعيد يستطلعون الأمكنة الغريبة إلى أن قادهم موريس نحو أشجار عالية ففزعت منصوره لليل الذي قد يمضونه في غابة موحشة والأمطار ستهطل بعد قليل، لكن موريس يدري أين يلجأ فاتجه نحو حافة الأشجار وهناك ظهرت من بعيد بناية كبيرة أشبه بسور طويل من الخشب لكنه مسقوف فجاء العمال للوصول إليه وقد بدأت السماء ترعد، لم ينتظر غلاب وقسم الله أمرًا للتوضيح فاللجوء للمخزن والمبيت فيه لا بد منه اتقاء الأمطار وصعوبة مواصلة السير فاقترح العمال الهنجر الكبير ولم يكن يتخيل غلاب أنه بهذا الاتساع وكأنه محطة فسيحة فلم تبال فرقة الجنود بتقدم العمال فالكل يهتم الآن بدخول العنبر والاحتماء به من المطر الذي بدأ يهطل، رفع غلاب عينيه نحو السقف فوجد أخشابه متراصة واطمأن لعدم تسرب الماء فالأمطار على

سطحه ستنزلق على الجانبين بعيداً عن الجدران الخشبية، ظل واقفاً والعمال بالعشرات يتوافدون حتى دلفت عربة ليমান، بقيت فرقة الهجانة وكل منهم نزل من على فحله وقاده للداخل فاحتواهم المخزن بأكملهم لكن فتحته العريضة بلا باب واستراح غلاب لعلو العتبة التي ستحول دون تدفق الماء نحوهم، بكعب حذائه دقّ غلاب الأرض فوجدها مكسوه بالخشب ودون أن يسأل طالعه القائد جوستاف وهو يطمئن على احتماء أفراد الفرق بالهنجر الكبير.

- إنه من أكبر مخازن المهمات القريب من ليون.

هوّم غلاب برأسه أمانة الفهم وأعطى لجوستاف تمام وجود كل العمال، فغادره وغلاب واقف أمام الباب ورآه يهرول نحو غرفة أخرى ملحقة بالعنبر الكبير فأيقن أنها ملجأ القادة، انشغل العمال في تهيئة المطرح للمبيت وأخرج بعضهم الخبز والإدام للعشاء، نقرات الأمطار تتتابع والظلام يدمس الهنجر فأوقد الجند المشاعل وثبتوها على الحيطان، سيل من الماء انهمر آخر العنبر ففرع العمال وتزاحموا تاركين البقعة التي يتساقط منها المطر وأصواتهم تتعالى، أيقن غلاب أنه يجب إصلاح ألواح السقف وإلا ستظل المياه تتدفق طوال الليل وتشق مجراها ثم تفرش أرض العنبر فلا يهنا كل من به براحة، التقط من كيسه القدوم، خرج والأمطار تغرق معطفه الثقيل، تبعه عبدالمعين الحداد وعامل آخر، علا صوته وهو يسأل:

- كيف نصل إلى أعلى؟

- يوجد سلم حديدي في نهاية العنبر قرب شروخ السقف.

- لنصلحه.

- وراءك يا عم غلاب.

لم يبال غلاب بالخوض في الأوحال والمطر يشتد هطوله، ظل سائرًا إلى أن وصل إلى السلم الحديدي فقبض عليه وصعد خلفه عبدالمعين والشاب المثلثم، جاهد كي يصل إلى الألواح فوجدها منخلعة من طرف والطرف الآخر يقاوم زخات المطر، بكفه ضرب جبينه لنسيانه بعض المسامير لكنه فوجئ بالشاب الواقف على درجات السلم يقدم له المسمار الحديدي الطويل فيتناوله منه، عبدالمعين يثبت الألواح وغلاب يدق في سرعة، ظل يناوله الواحد تلو الآخر إلى أن سد الشرخ تمامًا فنزل الشبان تبعهما غلاب، وصلوا والماء يرتفع إلى قصبة رجله، عادا إلى العنبر فخلع الشاب لثامه فإذا به السمكري سابق البولاقى فابتسم له غلاب ومد يده مسلمًا وهو يقول:

- دائمًا تسبقنا في الخير يا سابق.

تركه سابق إلى نهاية العنبر فوجد أحد العمال يحمل حزمة كبيرة من القش ويفرشها على الأرض المبتلة وعليها ألواح أخرى من الخشب لم يمنع ذلك من بلل ملابسهم فقعدها حولها متلاصقين وأجسادهم ترتعد، هدأت أصواتهم فلا يسمع إلا همس شكواهم، اعتصموا بحبال الصبر وتواطأ البرد مع إرهاق الرحيل فنام معظمهم عاقدين أملهم على شمس الصباح التي ستبدد وحشة ليل الغربة وضراوة الارتحال.

لكثرة اعتياده على مثل هذه الظروف، فرد ليमान على العربة قطعة قماش سميكة فغطتها بالكامل واستلقى بمقدمتها تاركًا جوليانا تنام آخر العربة ومنصورة استعصمت بعنمة المطرح والتصقت بصاحبها وهي مطمئنة أن أحدًا من العمال لن يلتفت إليهما أو يستنكر نوم الولد منصور بن غلاب مع ابنة الطباخ، أنفاس الفتاتين متقاربة وكل منهما تشم من أنيستها رائحة الزنخ من طول السفر وقلة المياه وعدم تغيير الهدوم، همست جوليانا وهي تعطس:

- عندما نصل إلى ليون لك عندي مفاجأة يا منصوره.

- ينتهي المطر وبعدها نصل إلى أي مكان ولكن وجهتنا إلى مولن.

- ليون في طريقنا.

- نأكل في فندق هناك؟

- بل ما هو أفضل.

سكنت جوليانا واستحسنت النوم فمددت منصوره جسمها أكثر فاردة البطانية الثقيلة عليه ومن حين لآخر قطرات من المطر تنفذ من بين ألواح الأخشاب وتنقر البساط في خفوت، أغمضت عينيها ونامت وهي لا تتخيل أن تلك الليلة التي لم تر مثل مطرها ستنتهي.

لا يدرون متى أقلعت السماء أو كيف انقضت ليلتهم فبدد صوت البوق القوي السكون الذي ران على العنبر وكل من فيه من بين راقد وقاعد وملكى على مخلاته، نهض غلاب وغير ملابسه المبتلة بأخرى أخرجها من الكيس، تجمّع حوله قسم الله وسعيد وغنيم الشرقاوي، هموا بالخروج فحجز اثنان من الهجانة بينهم وبين الجمال الباركة في فم العنبر، خرجوا يستطلعون المكان وقسم الله ينتفض من شدة البرد، المطر توقف وما زادهم اطمئناناً أن الماء سال نحو الأشجار فالعنبر مبني على مرتفع يعلو الغابة لم يلاحظوه عند وصولهم في الليل، لم يكن حال سميث وموريس المتقدمين نحوهم بالأفضل فعيونهما متكسرة من قلة النوم والبلل طال سترة ألبرت وجوستاف المرافقين لهما، وقفوا في مواجهة غلاب ورفاقه:

- سواصل الرحيل يا غلاب، أعرف مدى التعب وقلة الطعام لكن سنعسكر بالقرب من ليون وسنتزوّد منها بكل ما نحتاجه، هيا لا وقت لدينا.

لم ينتظر سميث أي تعليق أو رد أو اعتراض فاستدار ليتهيأ مع قادته لمواصلة الرحيل وفي غضون نصف الساعة كانت الفرق على أهبة الاستعداد لاستئناف المسير، وانتاب العمال جو من التعاون فجاد كل منهم بما عنده من زاد متقاسمين كسرات الخبز المبلول والجنود الفرنسيون يرمقونهم بنظرات الإعجاب تارة والحسد تارة أخرى وهم يرون موريس وغيره من كبار قادتهم يختصون أنفسهم بالإفطار دونهم.

ظلوا مرتحلين طوال النهار والشمس الفتية تحوطهم بالدفء وتجاهد لتنشيف الأرض الموحولة إلى أن لاحت لهم من بعيد بنايات كثيرة فمالوا مقتربين منها مع ميل الشمس نحو المغيب، وصلوا بمحاذاة ليون وأمر سميث وموريس بنصب الخيام للمبيت، من أعلى عربات المهمات تم توزيع الخيام المطوية وجدّ العمال في دق الأوتاد بالأرض وإقامة أعمدتها، أمر سميث بأن يرافق موريس الطباخ ليमान وعشرة من أفراد الجيش إلى ليون لإحضار الأطعمة للعشاء، قبل أن يذهب ليमान رفع أمام جوليانا ميدالية معلقا بها عدة مفاتيح ومنصورة لا تدري ماذا يقصد، حرّرت جوليانا أحد البغليين وثبتت عليه برذعة طويلة ووقفت تدعو منصورة للركوب:

- هيا يا منصورة، سأركب خلفك وأوجهك.

- إلى أين؟

- لدينا بيت هنا في ليون وسترافقينني إلى هناك.

برقت عينا منصورة لفكرة ذهابها إلى بيت وحنّت إلى النوم على فراش مريح بدل الرقود على الأرض داخل خيمة أو خشب العربة المؤلم لضلوعها، غير ضمان حمام نظيف وهي التي كانت تخطط وتحتال لتستتر عن أعين العمال وتتجشأ ما بجوفها حين كانت تقضي حاجتها بدورة مياه الرجال وهم غير مباليين بفعالها في المكان المخصص لها وتحاذر أن يلتصق الخراء بخفها الجلدي فتحمّست للفكرة.

- أستأذن أبي.

- في انتظارك لكن بسرعة قبل الليل.

غابت منصوره قليلاً وعادت، الابتسامه تشرق وجهها لإقناع أبيها بالذهاب لبيت ليمن في ليون، قالت في حماس:

- أركب وراءك يا جوليانا.

- لا يصح يا منصوره أن يرى العمال والجنود شابا يركب ورائي فالأفضل أن أركب أنا خلفك وأوجهك، هيا.

اقتنعت منصوره برأي صديقتها، ركبت البغل الهادي وخلفها جوليانا، على غير المتوقع لم يهتم أحد من العمال والجنود ببغل ليمن الذي يقوده منصور وتتركب خلفه ابنة الطباخ ويغادر معسكر الخيام غير الميجور وويليام الذي حدّق فيهما وتأرجح في نفسه شك حول شخصية منصور ابن غلاب.

وجهت جوليانا البغل نحو مدق يتسع كلما تقدمتا نحو المدينة إلى أن أفضى إلى شارع كبير وأهل الضاحية يحتمون ببيوتهم من برد الليل وتوقّع هطول الأمطار مرة أخرى كالليلة الفائتة، قطعت جوليانا الشارع إلى آخر أضيق منه أفضى إلى حارة صغيرة مظلمة، نزلت من على صهوة البغل وخطت في سرعة نحو باب مغلق في نهاية الحارة، شبهتها منصوره بحواري الحسينية وخان الخليلي التي تجولت فيها مع أبيها منذ سنوات، فتحت الباب على مصراعيه وقبضت على لجام البغل تجره إلى الداخل وعليه منصوره التي نزلت بمجرد إغلاق جوليانا الباب، أشعلت مسرجتين مثبتتين بالجدار، جرّت البغل نحو حظيرته وأفرغت كيس العلف أمامه وقدمت له ماعون الماء ثم التفتت إلى منصوره مرحبة:

- مرحبًا بك يا منصوره يا مصرية في بيتنا.

بادلتها منصوره الابتسام وانهارت على أريكة قديمة أسفل جدار الصالة المربعة، في نشاط متناه أفرغت جوليانا كيسًا أمام المدفأة، أشعلت النيران وطفقت تغذيها بقطع الفحم، من صنوبر للماء ملأت إناء كبيراً وعاونتها منصوره في تثبيته أعلى موقد كبير يشبه الكانون، ألقت جوليانا بين دفتيه الفحم وقطعا من أخشاب وغادرت البيت لحين تسخين الماء، بقيت منصوره بمفردها تراقب الكانون الكبير، تعود بذكرياتها إلى بيتهم في بني عيش إنه لا يختلف كثيرًا عن هذا البيت الذي تمكث فيه ليلتها وهي في كبرى المدن بفرنسا بعد باريس التي سمعت أنها أكبر مدينة في العالم، شعرت بدفء الغرفة فتحتررت من المعطف الثقيل برائحته التي لا تُطاق، أفرغت ما في جيوبه من فرنكات قبضتها مع العمال ومناديل متسخة ورسالة جندي مودروس، دست أصابعها في صدرها وأخرجت مسدس ميخائيل، لم تركنه مع بقية الأشياء فدسته أسفل مرتبة السرير، انتظرت قدوم جوليانا التي دفعت الباب وأغلقت خلفها، على المنضدة ركنت لفتين وتحتررت بدورها من نثانة معطفها المطبق على جسمها منذ أسابيع، مدت أصابعها في الإناء، الماء لا يزال يحتاج إلى المزيد من التسخين فألقت بقطع الفحم بين فخذي الموقد فاشتد أوار النار.

- بيتنا قديم لكنه دافئ وإحدى جارائنا تنظفه كل عدة أيام.

- يكفي أنه بيتكم يا جوليانا وفي بلدكم.

- عن قريب تنتهي الحرب وترجعين لبلدك وبيتك، المهم أغرف لك نصيبك من الماء لتستحمي.

في ماعون آخر دلقت جوليانا الماء الساخن وأدخلته الحمام أسفل السلم المؤدي إلى الدور العلوي، خلعت منصوره الجلاب ودخلت، راققتها نظافته وعلى الحوض قطعة صابون متوسطة يبست من عدم استعمالها، لأول مرة تقضي حاجتها في مرحاض نظيف لم تتقزز من رائحته ولم يؤذ عينيها العمال وهم يتبولون واقفين كاشفين أنفسهم، نهضت وتحتررت من كل ملابسها، لم تبال بالبرد فتأملت ثدييها اللذين نسيتهما، تمت أن تزيل الشعر النبات في أجزاء جسدها ويسبب لها روائح كريهة، لم تهتم وأهالت على جسمها الماء وبالصابون

دعكته، استعذبت الماء الساخن والحمام يزيل عن كاهلها تعب عامين كاملين من الرحيل، بفوطة طويلة نشفت جسمها لكنها جحظت عينيها لعدم وجود غيار نظيف، فوجئت بيد جوليانا تمتد من خلف الباب بحمالة صدر وسروال قصير، ارتدت في سرعة ولبست قميصاً آخر من الصوف الثقيل تسميه جوليانا "بلوقر"، خرجت من الحمام وارتدت على "البلوقر" جلباباً، لم تضيع جوليانا الوقت ودخلت بدورها ومنصورة تمشط شعرها القصير المبلول وتدندن بأغنية قديمة، ثبتت الطاقيّة على رأسها ولفت حولها الشملة، شعرت أنها يمكن أن تُحلّق في الفضاء، تطير حتى تعود إلى مصر، خرجت جوليانا وروائح الحمام تزكم أنفي الفتاتين ومنصورة تحمد ربها على مصاحبته هذه الفتاة البسيطة الرائعة.

أمام المدفأة جلسنا متقابلتين ففردت جوليانا الورقة لتظهر عدة أرغفة وقطعتان من الجبن وطبق به عسل أسود، أكلتا في نهم إلى أن شعرت منصوره بالامتلاء، على الجمار الهادئة وضعت جوليانا إبريق الشاي المفحوم قعره، لحظات وسمعت فوران الماء فسكبت الشاي الساخن في كوبين.

- آه، لو قلت لك أنني أتمنى العودة إلى وهران، هناك الجيران ومحبتهم لبعضهم، هنا كل إنسان في حاله، لو مات رجل في بيته يظل مجهولاً إلى أن يتعفن.

- في قريتنا بني عيش بالجنوب، كل بيت فيها بيتي، يعرف كل أهل القرية بعضهم وكلهم ستر وغطاء على أنفسهم، حين تخبز الجدة كرمة أم الشيخ محسون كانت تأتي لنا بالأرغفة الطرية لتتعشى بها.

أنهتا شرب الشاي، نهضت جوليانا تتبعها منصوره نحو الفراش فنفضته، تمددتا في حميمية وأغمضت كل منهما عينيها وهي تحلم بالعودة إلى أحبابهما؛ فتشعران معهم بطيب الحياة وطمأنينة لا يضارعها شعور آخر.

كوة بأعلى الجدار تنفذ منها أشعة الشمس بقوة، الذباب يحط على خد منصوره فتسحب الغطاء على وجهها، لا تزال رائحة الصابون تريح أنفها، كشفت وجهها وحملت، لأول وهلة لم تدر أين تنام وكيف حضرت لهذا المكان والمطرح نفسه غريب فلم تره من قبل أهي في الإسماعيلية أم في بطن السفينة ببورسعيد، لا تزال في عنابر مودروس أم في فوارون وشامبيري، هذا السقف وتلك العروق الخشبية تشبه فلوق سقف بيتهم في بني عيش، تزاومت الأفكار في رأسها فأغمضت عينيها وومضت وقعات أيامها الأخيرة لكن رفيقتها جوليانا غير موجودة، نهضت إلى الكنيف النظيف وحين خرجت لم تجد المعطف أو جلبابها البلدي أو حتى سروالها الداخلي والنطاق الذي تلفه حول صدرها، على الكرسي الكبير جلست والمدفأة لا يزال بها بقية من جمار تومض النيران الهادئة بها، نهضت ولا تدري كيف تفعل وهي معزولة في هذا البيت الغريب في شق ضيق بمدينة كبيرة تسمى... تسمى... نسيت اسم البلد الذي يعسكر العمال خارجه للتزود بالأقوات لمواصلة السفر حتى باريس، جوليانا تأخرت والشمس تراها من خلال النافذة العالية في وسط السماء، فكرت في فتح الباب لتستطلع الزقاق الضيق وساكنيه فأحجمت مخافة أن تتعرض لتساؤل من قاطني الشق وهم يعرفون أن البيت مغلق والطباخ العجوز يهجره أوقاتًا طويلة، بددت حركة المفتاح قلق نفسها وحلّ محله الخوف للحظات من القادم لكن جزعها انمحي لدخول صاحبها ويدها صرّة كبيرة، دون أن تسأل بادأتها جوليانا برشاقتها المعتادة:

- أبي حضر في الصباح واطمأن علينا وعاد إلى المعسكر، من ساعتها وانشغلت في غسيل ملابسنا ونشرها فوق السطح، دقيقة أدخل الحمام، عندي لك أخبار.

على السرير جلست منصوره واستكان قلبها، عادت تتأمل البيت الصغير ذا الطابقين، لا يختلف كثيرًا عن دارها في بني عيش ما عدا السطح المائل كبقية بيوت فرنسا التي يكثر فيها هطول المطر والثلج وهذه المدفأة التي تناسب جو بلادهم شديد البرودة، همّت أن

تسألها عن البلد الذي هما فيها الآن فخشيت أن تتندّر عليها جوليانا، أمالت رأسها إلى الوراء، بطرف عينها لمحت ما يشبه الظل يتمدّد ببطء على درجات السلالم، خفق قلبها في شدة للشبح النازل في تؤدة وحذر، قدما تبتلعان خفين كبيرين، طرف جلاباب طويل أسود، انتصبت قامة منصوره وصدورها يعلو ويهبط، احتبست الصرخة داخل حلقتها وعكاز عتيق يتقدّم صاحبه، العرق يتفصّد من على جبينها وسيدة عجوز تنهي درجات السلم وتقف على العتبة الأخيرة فلا يفصلهما سوى أقدام، حملقت في الوجه ذي البشرة القمحية وملفعة سوداء تغطي نصف رأسها والشعر الأبيض يظهر من أسفل البرنيطة التي تعلق الملقعة، بأصابعها العجفاء تقبض على سلة بها بيض، العجوز تقف في مرمى أشعة الشمس النافذة من كوة الجدار فتوهج وجهها المستدير وبدت ملامحه شديدة الحدة:

- جو.. جولي.. جولياااا ناااا...!

هتفت منصوره وانعقد لسانها فلم تنبس بكلمة بعد أن نادى صديقتها، انفتح باب الحمام وخطت جوليانا والفوطة على شعرها، اتسعت ابتسامتها وانتشرت كلماتها سريعة وهي تحتضن العجوز وتجلسها على الكرسي، تفرد كفها نحو منصوره وتنطق اسمها وتعود لتوجيه الخطاب للعجوز في سرعة ومنصورة لم تفهم كلمة مما قالت صديقتها وتنتظر:

- هذه عمّتي أميمة يا منصوره.

- أميمة؟ أهي عربية؟ وكيف تكون عمّتك؟

- كل من بالحي يناديها بعمّتي أميمة، على الرغم من سنّها الكبيرة فإنّها تكره أن يناديها أحد بجديتي فقد مات أبوها وهو صغير وتولّى جدها تربيته وكان لها أخ مات طفلاً؛ فاعتبرتنا كلنا أبناء أخيها وجميعنا يناديها بعمّتي.

- أميمة؟!!

صاحت بها منصوره فابتسمت جوليانا وحوّلت رأسها للعجوز التي قدّرت منصوره عمرها بالسبعين أو أكثر لكنها قوية وهي تجلس مستكينة على الكرسي برغم ظهرها المحدودب، باغتهما برفع سلة البيض فتناولتها جوليانا ولم تكف عن الحديث معها.

- عرّفتك عليها يا منصوره وستتكلم معك وتعرفك على نفسها.

- تعرفني على نفسها؟

- أنا أعرف ما تكرره وخصوصًا أمام الغرباء، العمه أميمة ولدت وتربّت وتزوجت هنا في ليون ولم تغادرها مطلقًا بل نادرًا لو تركت الشارع وهي تحب أن تتكلم وسأنقل لك ما تقول.

ضمّت العجوز أصابعها على عقصة عكازها وأراحت ذقنها المستدير على قبضتها، هذه المرة تأملتتها منصوره متفرّسة وجهها وأخايدده التي تخفي جمالًا هادئًا أفل ولم يتبق منه سوى ذكرى كارتعاشات النجوم، طفر وجه الجدة كرمه أم الشيخ محسون، العجوز الفرنسية تشبهها إلى حد كبير، بصوت مشحون بالقوة تكلمت وهي تخرج لسانها مرات وجوليانا تهز رأسها وتردد بعض الكلمات معها وكأنها سمعت هذه الجمل مرات ومرات من قبل ومنصوره ترفع حاجبها للغتها المطعمة بكلمات خمّنت أنها تكون عربية فطرقت أذنها أكثر من مرة كلمات: القاسم، وسيف وهكم وفهمت أنها حكم، وما جعل أذنيها تنتصبان هي عبارة: بلد الوليد التي نطقتها العجوز بشكل صحيح.

اختلفت الأمور على منصوره وكأنصال الخناجر تداخلت الأسئلة في رأسها فكيف لعجوز فرنسية لم تبرح المدينة التي ولدت ونشأت وتزوجت بها ويكون اسمها أميمة وتعود كلماتها العربية القليلة وسط بحر حديثها بلغتها الفرنسية السريعة، لم ترهق نفسها بالتفكير وانتظرت حتى أطبقت العجوز شفيتها وبقية من ابتسامه ارتسمت على وجهها المغضن، برقت عيناها وانتظرت أن تنهي جوليانا حديثها:

- تريد عمتي أميمة أن تخبرك كما كانت تروي دومًا أن جدها الكبير، الكبير جدًا قدم من إسبانيا التي كانت تسمى الأندلس قديمًا، كان اسمه الحكم تاجر من بلد الوليد، هاجر إلى سان ميلان ومنها إلى بنبلونة وعبر الجبال إلى فرنسا واستقر في ليون ولم يبرحها إلى أن مات.

- وكيف تحوّلت ذريته إلى.. إلى المسيحية.

- تزوّج جدها الحكم من ابنة كبير التجار هنا وأنجب منها ولدًا كان اسمه القاسم ومات الحكم وتربّى القاسم وسط أخواله وتزوج من ابنة خاله ومات شابًا في إحدى المعارك بعد أن أنجب ولدين هما الهزن أي الحسن وسيف الدين لكن اسميهما تغير وكانا آخر اسمين بالعربية.

- وجدها الذي رباها؟

- اسمه شارل، مات وهي في الخامسة والأربعين وكان في التسعين من عمره وتحكي عنه أنه كان كثير الحكايات التي سمعها من الأجداد عن جذوره العربية وأن له أبناء عمومة هاجروا عبر البحر إلى الجزائر وتونس وهو يعتز بأصله القادم من الأندلس ويتمنى الرجوع إلى "قُلد" وليد أي بلد الوليد.

- وأبوها؟

- أسماه جدها جاكوب أي يعقوب بالعربية.

- وهو الذي أسماها أميمة؟

- نعم وكان لها أخ كما قلت لك اسمه جوزيف لكنه مات صغيرًا.

- أي يوسف؟

- نعم يا منصوره، عائلة شارل المعروفة هنا في ليون تتميز بأنها تعرف نسبها منذ قديم.

- واسم أميمة؟

رفعت جوليانا حاجبها لسؤال منصوره الذي ألقته بتلقائية وذكاء، برغم كثرة كلام العجوز عن أصلها لكن جوليانا لم تتذكر منذ أن عادت من وهران مع أبيها وتعرفت عليها أنها سألتها عن سبب تسميتها، حادث العجوز وردت عليها في سرعة، التفتت إلى منصوره وهي تترجم:

- أميمة اسم لأخت الحكم الذي قدم من الأندلس فقد كان له أخت بقيت هناك مع زوجها وأبنائها ولم تهجر إسبانيا وانقطعت أخبارها عنه حين سكن ليون وتمنى أن ينجب فتاة يسميها أميمة كعمتها لكنه أنجب القاسم فقط ولأن جدها شارل كان يعتز بأصله العربي فقد أسماها.

- أميمة بنت يعقوب.

- عمتي أميمة طوال غيبة أبي في وهران استعارت الدور الأعلى وربت فيه الطيور وتنظفه دومًا وها هي تزودنا بالبيض وتأتي عبر باب مشترك بين بيتها وبيتنا.

لزمت منصوره الصمت تاركة لنفسها فرصة لفهم حكاية أميمة العربية الفرنسية التي تفاجأت بها في هذا البيت الكائن بتلك الحارة الضيقة في مدينة كبيرة مثل ليون، التفتت لجوليانا وألقت عليها السؤال:

- وزوجها وأولادها وأكيد لها أحفاد؟

- سؤالك ذكي يا منصوره، نعم زوجها مات منذ سنوات ولها ابن وحيد يعمل في سفينة، تخيلي اسمه يا منصوره؟

- أكيد اسمه الحكم.

- خانك التفكير هذه المرة، بل أسمته كامير، أي عامر وهو ليس له أبناء لأنه لم يتزوج بعد وهي حزينه لعدم زواجه برغم أنه في منتصف الأربعين وتتمنى بين يوم وليلة أن ترى أحفادها.

- لكن السيدة ساكنة فكيف عرفت؟

- عممتنا أميمة دائماً تشكو زهد ابنها عامر في الارتباط الذي يبرره هو بعمله في البحر وسفره المتكرر البعيد.

نهضت العجوز وقبالتها وقفت الفتاتان، اتسعت ابتسامتها لمنصورة التي أنصت لها ولبعض الكلمات العربية التي تلفظها بطريقة متكسرة فالتفتت جوليانا وهي تترجم:

- تقول: إن جدها شارل كان له أخ أكبر منه اسمه روبرت تم تجنيده في الجيش وغادر فرنسا في حرب نابليون على مصر وعندما عاد زملاؤه حكوا أن روبرت مات بأيدي المزارعين في جنوب مصر وفي بلد اسمها فارا شوت.

- تقصد فرشوط، بلد كبير يقع بعد بلدنا جرجا، يوجد عمال في الكامب من فرشوط، واحد منهم اسمه عبدالصمد الفرشوطي.

استدارت العجوز واتجهت نحو السلم، صعدته وخلفها جوليانا تمسك بيد منصوره حتى البسطة الأخيرة، من كيس قماشى تغترف العجوز بقبضتها وتنثر الحب للطيور وهي لا تكف عن الكلام، أهدت الفتاتين ابتسامه عريضة، رفعت ذراعها لمنصورة وحيثها، دلفت باب الدور الثاني وغابت، صعدت جوليانا السطح تتبعها منصوره، لامست الملابس التي نشرتها بحبال الغسيل منذ الصباح فوجدت بعضها لا يزال مبلولاً، جلست على الزيار والشمس تحوطهما بالدفء.

- قلت لك عندي أخبار، ستتحرك فرق العمال بالليل.

- اعتدنا السفر بالنهار.

- هذه المرة أمر القائد موريس بمواصلة السفر بالليل فلا شيء يمنعنا من سرعة الوصول إلى باريس.

نهضت جوليانا وخلفها منصوره ونزلتا السلم إلى صالة البيت، أمام المدفأة جلست منصوره ولا شيء يشغل تفكيرها سوى حكاية أميمة وأصلها الذي ترويه من حين لآخر، مارست اجترار ذكرياتها حين كان الشيخ محسون يجلس على المصطبة أمام بيت جارهم الأفندي مقبل الذي كان يعمل خوجة في إحدى مدارس أسيوط ويأتي القرية كل أسبوعين أو شهر، كانا لا يكفان عن الكلام مع غيرهم من فلاحى بني عيش ومرة حين وضعت أمامهم صينية الشاي سمعتهم يتداولون سيرة الأندلس والمسلمين الذين حكموها وما طردوا منها إلا بعد أن تفرقوا وضعفت كلمتهم.

أفاقتها جوليانا من سرحانها حين وضعت على المنضدة أمامها طبقا به فرخة محمرة وأطباقا أخرى بها أرز، قسّمت جوليانا الفرخة الساخنة وأكلتا صامتتين وحين نهضت منصوره لغسل يديها لملمت جوليانا بقية الطعام ووضعت الإناء بين جمار المدفأة وماعون آخر سلقت فيه البيض، استلذت منصوره طعم الشاي المغلي على نار هادئة، تارة أخرى رفعت عينيها نحو السلم حين سمعت رفرفت إحدى الدجاجات والتفتت في حدة كأنها تذكرت شيئاً:

- ولم تأتي عمّتي أميمة من أعلى؟

- أفضل بالنسبة لها؛ فهي تعجز عن السير في الشارع وتكره أعين المتطفلين.

أنهت جوليانا كوبها، استلقت على السرير، فردت على جسمها البطانية وهي تنصح منصوره:

- لازم نستريح إلى قرب عودتنا إلى المعسكر؛ لتحمّل السفر ليلاً.

وجدتها منصوره نصيحه في محلها فنهضت بدورها واسترخت جوار رفيقتها، تعمدت جوليانا التزام الصمت والنوم فقلدتها منصوره وهي لا تزال تنظر من طرف خفي نحو درجات السلم وتتمنى أن تنزل أميمه مرة أخرى فقد أحببت الكلام معها وراقها حديثها عن الأجداد، طاف في ذاكرتها الجده كرمه وعادتها بتحليه حنكها بالسكر وأقماع العسل التي كانت تأتيها من قنا.

للمرة الثانية أتاحت جوليانا الفرصة لمنصوره لتنال نصيبها من الراحة فنهضت بعد ميل الشمس وفي سرعة جمعت الغسيل اليابس من على السطح وانشغلت في ترتيب الخرج بما فيه، نهضت منصوره فوجدت جوليانا قشّرت لها بيضتين وانتظرت حتى تنفض من أجفانها بقيه النعاس، أكلتا في سرعة، ودّع ثدياها حريتهما المؤقتة فشريط القماش العريض زمّ صدرها بعد أن أحكمت لفه وبينهما ثبتت المسدس الذي تخفي حقيقه وجوده معها حتى عن جوليانا، ارتدت جلبابها البلدي ولفت العمامة على رأسها، لبست البالطو، في الجيب أعادت رساله الجندي والمفلاة الصغيره والفرنكات القليله، وقفت منتظرة جوار الباب فأسرعت جوليانا بفتحها، سحبت البغل من الحظيره وألقت عليه الخرج، أركبت منصوره، في حركة واحده رفعتا رأسيهما وأيديهما مودعتين العمه أميمه التي وقفت بين بيتها وبيت ليمان الطباخ، بكعبها نخست جوليانا بطن البغل فتحرك والشمس في طريقها للغروب، رفعت العمه أميمه عكازها مودعه البنيتين وظلت منصوره تلتفت للخلف حتى انعطف البغل خارجاً من الزقاق الضيق إلى الشارع الكبير في طريقه إلى معسكر العمال.

غلاب يقف خارج المعسكر يضرب كفاً بكف لتأخر منصوره وقد التحفت سماء ليون برداء العتمة، يهيم أن يسأل ليمنان لكنه يرى من بعيد الركوبة تقبل عليه في سرعة حتى اقترب البغل وجفل أمامه، نزلت منصوره فلم يعاتبها فإنه يعلم أن وصولها مرهون بصحبة جوليانا التي عرف أنها ذهبت بها إلى بيتها داخل المدينة، ابتلع ريقه ودون أن يعلق استدار نحو المعسكر المهيأ للرحيل، قادت جوليانا البغل إلى العربة التي لم يكف ليمنان عن صيانتها طول ساعات توقفهم، ركنت منصوره الخرج داخل سور العربة الخشبي في حين أعادت جوليانا البغل مكانه، وقفت منصوره ولا يزال أنفها يستطيب رائحة الحموم، ودت أن يكون لجوليانا بيت في كل مدينة تمر بهم لكنها أعجبت بليون المدينة الكبيرة أكبر من أي بلد دبت على أرضه أقدامهم حين تجول بهما البغل في الشوارع الواسعة وراقها رهبة كنيسة القديس يوحنا المعمدان.

تهيأت للسفر الطويل والنوم على خشب العربة الناشف وتغطية جسمها ببطانية زنخة لكن فوجئت كما فوجئ العمال بالأمر الذي تلقوه بالاتجاه إلى داخل ليون في صفوف منتظمة والسير إلى محطة قطارها فخفق قلبها سعادة وتقافزت جوليانا حاضنة صاحبته، ركبت الفتاتان العربة وقادها ليمنان خلف طوابير العمال والجنود إلى قرب المحطة الكبيرة والقطار بصوته يرج المكان مثل فابريكة السكر التي شاهدتها منصوره في الجنوب وماسورته في الأعلى تنفث الدخان، هدأت جلبة القطار وتوقفت مدخنته عن ضخ الدخان الأسود، أقتيد العمال نحو براح كبير، تبينت منصوره أن العربات الأمامية مغلقة والخلفية مفتوحة، على غير العادة أمر القائد موريس بشحن العمال أولاً فتوافدوا يصعدون العربات الكبيرة وأمام العربة الأخيرة وضعت عدة ألواح عريضة فساق الجند عدداً من الخيول ثم جاء الدور على عربة ليمنان فشد لجام البغليين ومنصوره وجوليانا تضربان من الخلف إلى أن صعدا وجرا عربة معدات الطبخ خلفهما، أغلق ليمنان باب عربة القطار الكبير فشعرت

منصورة بالرهبة لعتمتها وإذا أضيفت حركة الخيول في المؤخرة وصهيلها فقد جعلها تصعد العربة الخشبية وتلف حول نفسها البطانية.

- لا تخافي يا منصوره، بيننا وبين الخيول حاجز خشبي.

- لو أردت الخروج لساعة فلا ضير فالقطار لن يتحرك قبلها.

قالها ليमान وهو يهيب لنفسه مكاناً للنوم فدفعت جوليانا الباب فانفتح وقفزت منصوره مرة أخرى خارج عربة القطار خلفها جوليانا ووقفتا تراقبان الهجانه وهم يشحنون جمالهم، لاحظت جهد العمال في إناخة الجمال المعترضة على ضيق المكان فاستعسر على كثير منهم ترتيب الأجسام الضخمة وحين بركت أحاطوا ظهورها بالحبال الغليظة فاستغرق شحن الجمال وقتاً أكثر من ركوب فرق العمال والجنود أنفسهم، نحو العربتين الأماميتين التي خلف الجرار مباشرة تقدم الكولونيل سميث حوله ثلة من القواد الفرنسيين والإنجليز ودعوا كبار العمال والهجانه لمشاركتهم لكن قسم الله والأومباشي سعيد رفضا وركبا جوار الجمال في العربة المكشوفة أما غلاب وغنيم الشرقاوي فمكث كل منهما مع فرقة عماله، البنتان تقفان أمام عربة القطار، تيار هواء الليل الساقع يشتد فرفعت جوليانا ياقة المعطف حول أذنيها أما منصوره فأعادت لف الشملة الثقيلة على نصف وجهها وصعدت تتبعها صاحبته.

- لم يركب أحد من الناس بالقطار.

- منذ بداية الحرب والجيش يستخدم كل القطارات لنقل الجنود.

قالها ليमान المنشغل في تثبيت كيسي العلف أمام البغلين وماعون الماء، استلقى على بطانية أسفل العربة بينما صعدت الفتاتان جوار أواني الطبخ، استكانت منصوره حتى تلاقت رموشها وما بين الإغفاء والصحو زارت صافرة القطار فهبت مذعورة وتعلقت برقبة جوليانا التي تحاول تهدئتها وهي تضحك فجلست مقوسة ذراعها حول ركبتيها:

- أنت جبان يا ولد يا منصور.

قالتها جوليانا وهي تهزّر فابتسمت لها منصور، والقطار بدأ يهتز ويتحرك ثم شعرت أنه علا فجأة وهبط من قوة احتكاك عجلاته الحديدية بالقضبان، استمر جريان القطار ومن حين لآخر يشق ضجيج المألوف صوت صافرته المتوحشة، تنطوي ساعات الليل فلحظت منصور التي لم يغمض لها جفن نور النهار ينفذ من بين ضلفتي الباب وشعرت معه ببطنها يكاد ينفجر من احتباس البول فنفضت عنها الغطاء ووقفت في اللحظة التي هبت فيها جوليانا أمامها، ابتسمتا لشعورهما الواحد:

- الحمام يا جوليانا.

- أحতاجه أكثر منك، مصيبتني مصيبة.

فتحت جوليانا الخُرج وأخرجت كيسا به قطع من قماش سميك، دارت بعينها نحو آخر العربة إلى ما بعد حظيرة الخيول وخشيت أن يكون الحمام هناك لكنها استراحت لرؤية باب جانبي مغلق في الأمام، خطت تتبعها منصور التي دلفت أولاً، امتعضت للمصطبة الحديدية المربعة وفي وسطها دائرة، أطلت منها فاتسعت عيناها للأرض التي تجري أسفل الفتحة ولا يوجد ماء تستبرئ به، ألمها يزداد فأسرعت بقضاء حاجتها وانتزعت نفسها من رائحة الصنان المطبقة لتدخل جوليانا وتتأخر قليلاً ثم خرجت، قدمت لأبيها المسند ظهره على عجلات عربته رغيفاً به بيضتان وأكلت مع منصور بقية البيض المسلوق، قفزت جوليانا نحو باب العربة، بحذر فتحت فصفع الهواء وجهيهما لكن منصور استراحت للهواء الذي جدد العربة برائحتها العطنة من طول غلق الباب وروث الخيول.

غيطان خضراء وفلاحون يرتدون ملابس كالعامل يخدمون أرضهم، أكواخ متناثرة وأطفال يلوحون بأذرعهم للقطار وهم يضحكون على الجمال الباركة في العربات المكشوفة، ظلت الفتاتان تراقبان الأرض المسرعة والشمس تنشر أشعتها الفتية، هداً القطار سرعته للمحطة

القادمة فحسبت منصوره أن ركباً آخريين سيستقلونه، رأت من بعيد أكياساً كثيرة مرصوة هي التي نقلها العمال في عربة القيادة.

- إنهم يزودون القطار بالفحم.

- والركاب؟

- لا يوجد ركب فالقطار بأكمله لنقل العمال والجنود.

ما إن أنهى العمال شحن الأكياس السوداء حتى علت الصافرة تعلن التحرك فأغلقت جوليانا الباب وعادت إلى عربتها جاورتها منصوره تريح ظهرها للوراء وتشبك أصابعها خلف رأسها وهي تفكر في الانتقال السريع والبعيد عن مصر إلى حيث لا تدري؛ فالعودة أضحت شبه مستحيلة فإما الاستمرار أو الموت فرسخ في نفسها التثبت بالحياة والصبر والمحافظة على أبيها حين يرسو القطار في محطته الأخيرة وفكرت أن تستأذن جوليانا وتغادر المطبخ لتتحقق بالعمل جوار أبيها كما كانت في مودروس لكنها تعرف أباهها فهو مطمئن عليها وهي مع جوليانا فلولاها لما تمتعت بيومين من الاسترخاء والاستحمام وتنظيف الملابس في بيتها بليون والتعرف على الجميلة العمة أميمة فاعتبرتها من مفاجآت الرحلة التي ستروي حكايتها حين عودتها لكل من تعرفه.

ظل القطار بصوته المكرور يمخر وسط الغيطان ولا يتوقف عند اقتراب محطات القرى الصغيرة حتى مالت الشمس نحو المغيب وليمان من أن لآخر يرتاد الكنيف العفن ويعود فيدخن الغليون ويجلس أسفل العربة تارة وتارة أخرى يمدد ظهره، انقضت الساعات والقطار لم يكف عن نهب الطريق حتى هدأت حركته في منتصف الليل فلم يفكر أحد أن ينهض ويستفسر عما أوقفه بجميع العمال والجنود اللائذين بدفء البطاطين والالتصاق ببعضهم بعضا حتى الخيول والجمال استكانت منتظرة مصيرها المقدّر مع أصحابها، هدأت جلبة القطار تماماً وفُضّل القائدان الكبيران سميث وموريس الانتظار بقية الليل حتى الصباح لتفريغ القطار من الجند والعمال وتوزيعهم على العنابر في المكان الجديد.

رويبدأ طارد النور فلول العتمة فنفض المسافرون النوم حتى الجمال حاولت التملص من الحبال والنهوض وهي تطلق رغاء الاعتراض على بقائهم باركين طوال الساعات الطويلة الفائتة، بدأ العمال في لملمة مهماتهم الشحيحة والنزول من العربات بسرعة وقسم الله وسعيد فتحا أبواب العربات المكشوفة من الجانبين واستجابت الجمال المطواعة للنزول بسرعة تخلصاً من محبسها المجرورة عليه، تم إعطاء الكولونيل سميث والقائد موريس إشارة إتمام إفراغ القطار فأعطى أمره لمن بغرفة التحكم فأطلق القطار صافرته ودارت عجالاته مبتعداً نحو الشمال في خفة بعد أن تخلص من حمولته الثقيلة، على عربة المطبخ جلست جوليانا جوار منصوره التي اقشعرّ جسمها لبرد الصباح فتكومت حول نفسها منتظرة ما سيؤمرون به.

- نحن على بُعد ثلاثين كيلو مترا من باريس، وعلينا تمهيد طريق بري من هنا حتى مدخل العاصمة، عنابركم جاهزة فلنتناول الإفطار وسيبدأ من اليوم توزيع الأعمال عليكم.

لطول تمرسهم في مثل هذه الأمور، تم تسكين العمال في سرعة بالعنابر وانهمك ليمان في المطبخ، لم يكن تعبيد طريق عرضه ستة أمتار مستعسراً على العمال والهجانة الذين نهضوا بما هو أشق في كل مطرح يحطون فيه فانشغلوا طوال أسبوعين في نقل الأحجار والصخور الكبيرة والجمال شدت الزحافات الخشبية ورش الأرض بالماء حتى امتدت المسافة المستصلحة نحو الشمال ومعها انتقل العمال والهجانة لاستراحات أخرى جنوب باريس فظهرت معالم المدينة الكبيرة على نهر السين.

- آه يا جوليانا، هذا العمود الكبير يشبه الهرم.

- برج إيقل في حديقة شامب دي مارس على نهر السين، رأيك لو نزوره؟

- يمكن يا جوليانا؟

- يمكن ولكن الأمر يحتاج لتدبير فالبلد في استعداد دائم لصد هجوم الألمان.

نزل العمال بالعنابر الجديدة وكانت أوسع من أي عنابر أخرى لتستوعب المجندين لكن ليمان ومساعديه اختصوا بإطعام العمال والهجانة فقط الذين تم توزيع الأعمال عليهم بنقل المهمات في المخازن من وإلى باريس وجر المدافع الثقيلة وإفراغ وشحن المراكب الكبيرة الراسية في أكثر من مرفأ على نهر السين، عاد غلاب لمهنته الأولى في صناعة صناديق الذخيرة والأسرة الخشبية وغيره من العمال حفروا الخنادق حول أماكن محددة في باريس ومدوا أنابيب المياه وحفروا آبار الصرف الصحي وأقاموا العديد من الاستحكامات في معسكرات الجند الذين ازداد عددهم بشكل كبير حتى أصبحت هذه الضاحية خلية نحل تعج بكل صنوف العاملين بالجيش.

- سمعتِ آخر الأخبار يا جوليانا، قال أبي أننا سنرحل نحو الشمال.

- إلى أميان وبعدها شمالاً إلى بابوم.

- ممكن نزور البرج قبل الرحيل؟

- إذن لا نضيع الوقت فليكن الآن.

- أستاذن من أبي.

- لا وقت يا منصوره فإن أمر القائد موريس بالرحيل فلن نستطيع دخول باريس.

ركبت جوليانا البغل وقادته نحو الضاحية التي بها حديقة شامب دي مارس وفي غضون الساعة وصلتا أسفل البرج الحديدي الكبير فرفعت منصوره رأسها حتى كادت تقع من على ظهر البغل الواقف في هدوء يلتقط بمشفره الحشائش النابتة، نزلت منبهرة بمشاهدة البرج العالي وتمنت أن تتسلقه لتصل إلى قمته فتشاهد فرنسا بأكملها وقد يمتد نظرها إلى ليون أو حتى مرسيليا، ابتسمت لأحلامها في العودة ورأت جوليانا تشير إلى رجل يحمل صندوقاً له ثلاث سيقان رفيعة، لم يلبث أن ثبت صندوقه على الأرض فوقفت جوليانا جوار منصوره وخلفهما يشمخ برج ايفل.

- ماذا سيفعل؟

- يلتقط لنا بكاميرا فوتوجونيل صورة أو صورتين واحدة لي والأخرى لك.

التقط المصور لهما أول صورة، في عنف دق قلب منصوره وتمنت لو تخلع المعطف والجلباب والشملة وتظهر في الصورة كفتاة وتحولت أمنيته لحقيقة حين أشارت جوليانا للمصور الكهل أن يتوقف فساعدها على فك أزرار المعطف وخلعت خلفه الجلباب البلدي، فكّت رباط الشملة وانتزعت الطاقية الصوف فظهر شعرها قصيراً، مدت لها جوليانا مشطاً

فساوت شعرها ووقفت وذراعها يتقوّس حول كتف جوليانا، أقحم المصور رأسه داخل القماش الأسود ورفع يديه لتثبت حركة الفتاتين، التقط صورة تلو الأخرى حتى أكمل أربع صور متغيرة الأوضاع فنقدته جوليانا عدة فرنكات واتفقت معه أن ينهي استخراجها في أقرب وقت ويأتي بهم خارج باريس، هومّ المصوّر وابتسم لهما وعلى وجهه تنضح طيبة استشعرتها جوليانا من بساطته في التعامل معهما، ارتدت منصورّة الجلباب والمعطف وركبتا البغل في الطريق المؤدي إلى المعسكر، على ضفة نهر السين توقفت جوليانا ومنصورة تعبت بجيب المعطف فأخرجت خطاب الجندي الفرنسي المجهول، ابتسمت وهي تقول:

- آه لو نعرف من هي ماري لأعدنا لها الخطاب.

- لديّ فكرة.

خطت نحو كوم من القمامة وبحثت حوله وحين وجدتها التقطتها على الفور وعادت إلى منصورّة رافعة الزجاجة الفارغة أمامها:

- ضعي الرسالة هنا ونعيد الغطاء ونلقئها في النهر.

ابتلعت منصورّة ريقها للفكرة الجديدة واقتنعت بها فقد لا تعود لمثل هذا المكان مرة أخرى ففردت الرسالة وأعدت لفها ثم أقحمتها داخل الزجاجة وأدارت الغطاء بإحكام، رفعت ذراعها وطوّحت الزجاجة في السماء فطارت وأنهدت قوس هبوطها بالاصطدام بالمياه الجارية ورأتها الفتاتان تطفو مبتعدة نحو عرض النهر.

عرف الجميع أن فيلق العمال والهجانة سيرحل نحو الشمال حتى مدينة أميان دون توقف فإنهم يحتاجون كل الأيدي العاملة هناك، تأهبوا للرحيل دون قطار وطمأنهم سميث بأن المسافة لا تزيد على مائة وخمسة عشر كيلو مترا لكن السير يهلك العمال فقرر غلاب وغنيم اقتراحًا على سعيد وقسم الله أن يشارك الراجلون غيرهم من الهجانة في ركوب دوابهم فالجمل قد يحمل خمسة أفراد ويعمل العمال على تقسيم المسافات فيما بينهم ويتبادلون الركوب حتى الوصول إلى كامب أميان، رحّب سعيد وقسم الله وبقية الهجانة بل وهياً بعضهم الجمال لحمل رفاقهم، ذهبوا إلى حجرة القيادة وعرضوا الأمر على الكولونيل سميث لكن الميجور ويليام بفظاظته المعتادة اعترض وأعطى سبب اعتراضه أن ذلك سيبطئ من سرعة الوصول أما سميث وموريس فتشاورا ووافقا على اقتراح كبار العمال ما دام الأمر فيه سلامة وصولهم مستريحين بشكل ما حتى يمكنهم تنفيذ مهامهم المعقودة عليهم في الشمال القريب من هجوم الألمان.

المعسكر على أهبة الاستعداد للتحرك فشعرت جوليانا أن المصوّر لم يفِ بوعدده في الحضور وتسليمها الصور التي التقطها لها ولمنصورة أسفل برج إيقل فأسفت لذلك وقررت أن تبحث عنه بعد العودة في منطقة البرج أو حديقة شامب دي مارس وستجده هناك لكن عينها جحظتا للكهل المقرب في حذر من المعسكر فيوقفه أحد الحرس ثم يسمح له بالتقدم مرافقًا إياه إلى الميجور ويليام الواقف في المؤخرة، يلقي عليه التحية وتزاهما جوليانا يتحاوران وهي تهزل حتى تستلم صورها قبل أن يراها أي إنسان آخر خوفًا على سر منصورة، وصلت في اللحظة التي تناول فيها ويليام الصور وقلبا يخفق بسرعة، مدت يدها وويليام يقلب في آخر صورة ثم هز رأسه وهو يعطيها لجوليانا التي أهدته ابتسامة صفراء قبل أن تعود إلى العربة وحتى لا تُقلق صديقتها أسرت الأمر في نفسها، حين عادت منصورة من عند أبيها وركبت جوار جوليانا فردت لها الصور وأعجبت بها منصورة أيما

إعجاب وفضلت أن تحتفظ بصورة لها وهي بملبس العمال والأخرى وهي تفرد شعرها القصير بعد أن تخلصت من المعطف والجلباب.

في همة نفذ العمال خططهم وامتطى كل فحل أربعة رجال بالإضافة إلى قائده فركبوا ملتصقين والباقون تهيأوا للسير مسافة ثم يتبادلون الركوب، في الخلف ركب ويليام تروسيكلا تجره دراجة نارية خلفه عدد من الدراجات الأخرى المزودة بمدافع رشاشة وفي المقدمة ركب موريس وسميث العربات وجنود تأمين القائد يرفعون بنادقهم، بدأ الفيلق الكبير في التحرك وويليام أعجب فعليًا بقدرة العمال المصريين على تنظيم التعاون فيما بينهم ودار في خواطره مرة أنه فقد حصانه فرفض زميله أن يشاركه ركوب فرسه وظل ماشيًا لمسافة عشرة كيلو مترات حتى كاد يقع من فرط الإعياء، دارت عيناه تستطلع الفرق في بداية تحركها، صوّب نظراته على عربة الطباخ في المنتصف وافتتحت شفتاه عن ابتسامة خبيثة، حادث نفسه بصوت مسموع: "شي إز جيرل نوت بوي"، كرر عبارته وهدير الدراجة النارية يعلو على صوته.

منتصف الليل وبعد أكثر من خمس عشرة ساعة من الرحيل المضني وتبديل ركوب العمال على الجمال وتزويد العربات والدراجات البخارية بالوقود يصل فيلق العمال جنوب مدينة أميان لكن هذه المرة هي الأسوأ في مبيتهم فقد اقتحموا حوشًا كبيرًا مسيجًا بسور من كتل الأخشاب دون سقف يحميهم، طلب منهم سميث قضاء بقية الليل وتدبر الأمر في الصباح فانتشرت موجة السخط بين العمال الذين تمنوا الراحة بعد عناء السفر نهارًا بأكمله ومعظم الليل لكنهم في النهاية أناخوا جمالهم واستحسنوا بها مفترشين البطاطين الزنخة ومن شدة الإنهاك استسلم أكثرهم للنوم زاهدين في أي شيء غيره.

- الأسبوع الأول من مارس ولا يزال البرد شديدًا.

- في الشمال يطول البرد يا منصوره.

- نامي يا جوليانا أنتِ ومنصوره، لدينا عمل كثير قبل شروق الشمس.

أمرهما ليتمان وهو يحاول أن يتمدد في مقدمة العربة لكنه تكور على نفسه ولم يلبث أن سمعت منصوره صوت شخيره فلم تبال ورقدت مثنية الساقين جوار صديقتها ومن حين لآخر تهش بيدها هوام الليل، عند تباشير الصباح تنهى لجوليانا صياح الديكة البعيد من أسطح البنايات المتوارية خلف ضباب خفيف، لا تدري لِمَ شعرت بخطوات تحوم حول العربة فأزاحت الغطاء من على رأسها وجحظت عيناها عن آخرهما لقامة ويليام وعينيه المطلتين على العربة وعصا رفيعة تحت إبطه فشهرها وأشار إليها في سخرية ثم مضى في طريقه فخفق قلبها في قوة وتأكدت أنه عرف بأمر منصوره ويحوم حول العربة ليعبث بهما، ابتلعت ريقها ونهضت في تناقل وقد ابتعد تمامًا عنهما، لاحظت حالة العمال المزرية وهم ملتصقون ببعضهم وبإبلهم من شدة البرد فضاقت صدرها لعدم وجود عنابر تحميهم، ارتفعت صافرة أحد الجنود فنهض العمال وعيونهم متكسرة من سوء المبيت، هاتفهم غلاب بأن العنابر الكبيرة تقع شمال المدينة وعلينا التحرك نحوها من الآن، لم يهتم العمال بإعادة تنظيم ركوبهم فساروا جميعًا مسافة خمسة كيلو مترات حتى بانث لهم عنابر وهناجر كثيرة ممتدة على مرمى البصر تضم آلاف الجنود يتحركون في شتى الاتجاهات وأبراج المراقبة الخشبية تسمق من أركان المعسكر الأربعة المحاط بأكمله بأسوار من الأسلاك الشائكة.

دخل العمال بجمالهم الثكنة الكبيرة للجنود وسمح لهم سميث بالراحة لبعث تناول الغداء وبعدها ينتظرون أمر العمل، التزم العمال أماكنهم وعاد أكثرهم للنوم حتى موعد الغداء فأكلوا في نهم واستراحوا يشربون الشاي حتى ميل الشمس حين تم جمعهم من جديد وهذه المرة وقف غلاب في المنتصف، مسحت نظراته عماله بجسومهم الهزيلة، رغب في أن يحدث سميث في أمر إراحة العمال ليومين أو يوم على الأقل؛ ليستعيدوا نشاطهم لكن العزيمة تكلمت داخل نفسه، هز رأسه وهو يرفع صوته:

- المطلوب إقامة الأعمدة ومد خط للتلغراف.

دون كلام كثير وبديمومة ترويض أنفسهم على الانصياع للأمر، قام نفر منهم بقياس المسافات بين الأعمدة وتحديد أماكن حفر النقر، غيرهم أفرغوا العربات الكبيرة من الكتل الأسطوانية، عبدالمعين الأزهري وغيره من الحدادين والنجارين ثبتوا في الأعمدة المسامير الكبيرة ودرجات تشبه السلم، انتهت نوبة العمل فعادوا إلى عنابرهم للعشاء، استمرت أيامهم على هذه الوتيرة وكأنهم يريدون طي مهمتهم ووقتهم آملين في العودة فاجتهدوا بشكل أدهش الكولونيل سميث نفسه وما زاد أنهم عملوا على توسعة الطريق مترين آخرين فسمح بمرور الدبابات الكبيرة والعربات الخاصة بجر المدافع ذات المواسير الضخمة فامتدت أعمدة التلغراف متحاشين مستنقعات وادي نهر السوم.

في غمرة الاستعداد للهجوم على مدينة أراس تناست جوليانا أمر الميجور ويليام الذي لم يعد يظهر إلا بصحبة الجند الإنجليز وانشغلت في عملها الدائم في تجهيز الوجبات سواء للعمال أو الجنود برغم أن الكولونيل سميث والقائد موريس أمرا بإنشاء مطبخ وصلات أخرى للطعام في الناحية الأخرى من المعسكر الكبير، في استراحة القيلولة اندهشت منصوره للآليات المرعبة التي تم استقدامها بأعداد كبيرة خارج المعسكر:

- أعرف أن التي هناك مدافع لكن ما في الناحية الأخرى؟

- اسمها دبابات يا منصوره، دبابة رينو إف تي، ودبابة مارك فور، كلها من الحديد ويظهر من فتحاتها المدافع الرشاشة التي تطلق الرصاص.

- الألمان قادمون.

التفتت الفتاتان للعجوز ليमान الذي ينفث دخان غليونه في عصبية وأصابعه ترتعش من فرط وقع الخبر الذي علمه من قيادة الفرق، زفر نفسًا حارًا وعيناه تزيغان في أنحاء الحجرة الضيقة:

- من الغد نرحل إلى قرب أراس لصد هجومهم المحتمل، فلنكن جميعًا على حذر.

- لكن العمال والهجانة لا شأن لهم بالحرب.

- يا منصور يا ابنتي، الرصاص لا يفرّق بين أحد، المهم ألا نكون في مواجهة العدو، غير أنني سمعت أن الألمان يطلقون غازات تسمم الناس.

صمت الفتاتان للعبارة الأخيرة التي فاه بها ليان واحتارت منصور في أمر وجودهم الحرج بين رحى تلك الحرب فقد يحتمون داخل العنابر أو حتى في الخنادق التي يحفرونها بأيديهم لكن كيف يبعدون الهواء والدخان الذي يستنشقونه ويسمم الناس كما قال الطباخ، نهضت من فورها واستأذنتها لضرورة مقابلة أبيها، سارت ولحقت بها جوليانا حتى عنابر العمال، وجدت معظمهم خارجين منها وقاعدين في حلقة كبيرة يتوسطها أبوها وقسم الله وسعيد، ابتلع غلاب ريقه في صعوبة ودار في ذاكرته اجتماعه بسميث وأوامره الصارمة بضرورة إطاعة الأوامر مهما كانت وإلا لن يتورّع القادة عن قتل من يتخلف أو لا ينفذ الأمر؛ فالمواجهة المرتقبة لا تحتل أي شكل من الاعتراض، صارح رفاقه بالموقف وأبدوا أنه لا خيار لهم حتى تنتهي الحرب وبعدها يكون ما يكون، التقط نفسًا ممطوًا وهو يرفع قامته:

- سنسافر نحو الشمال، مهمتنا حفر الخنادق وجر المدافع ونقل الطلقات الثقيلة وتزويد الجيش بكل ما يلزمه من معدات وماء تجعله قادرًا على الثبات.

تناهى لسمعه همهمات العمال لكنهم نهضوا إلى عنابرههم وانشغلوا في التجهيز للرحيل، منصور سارت وراء أبيها وجوليانا معها وحين اختلى بهما ربّت على كتف ابنته وهو ينصحها:

- منصور، أرجو أن تحذري فقد تقوم الحرب في أي لحظة.

- عرفنا يا أبي أن الألمان سيهاجمون.

- وكل ما ترينه من جنود وآلات عسكرية لصد هجومهم الذي نرجو ألا يحدث.

- سأعود مع جوليانا وألزم العمل بالمطبخ.

- نعم عودي.

ألقت منصوره بنفسها بين ذراعي أبيها فقبلها بين عينيها وأبعدها برفق ليباشر تنظيم العمال استعدادًا للسير فقوّست جوليانا ذراعها حول كتف رفيقتها واستدارتا عائدين إلى عربة المطبخ، خرج غلاب من العنبر وتلفت يبحث عن كامل عبدالله الجمال وحين تلاقت نظراتهما أشار إليه أن يحضر فقاده نحو نهاية العنبر وتأكد من عدم وجود شخص:

- كامل يا بني، ربنا يحميك ويحفظك، أنت الوحيد العارف بأمر أختك منصوره، أرجوك، عينك عليها ولو مت وربنا كتب لك النجاة احرسها واحفظها وارجع بها لمصر.

- العمر الطويل لك يا عم غلاب.

- لا وقت للمجاملة، الحرب وشيكة ولا تدري نفس بأي أرض تموت، أرجوك تنفذ وصيتي.

- حاضر يا عم غلاب وإن شاء الله ترجع بنا كلنا لمصر.

- يا رب يا كامل، والله أنت تذكرني بشاب مات في مودروس كان اسمه صالح، مثال للتدين والالتزام لكن الله يرحمه.

- ويرحمنا يا عم غلاب، وربنا ينجينا ونرجع كلنا سالمين.

البوق أطلق صافرته الطويلة فأهداه غلاب ابتسامه مرتبكة وخرج من العنبر فاتجه الشاب إلى جملة البارك وسط رفاقه فأنهضه من فوره وساقه إلى المعسكر، كغيره من الهجانه رُبطت المدافع الثقيلة بالحبال وجرتها الفحول المنهكة إلى الأمام وانخرط غلاب في تنظيم

مسير العمال وقلبه يأكله على منصوره برغم وجودها مع العجوز وابنته ووصيته لكامل أن
يحوطها برعايته.

لم يتوان العمال والهجانة عن حفر الخنادق بمختلف أطوالها واتجاهاتها، قطعوا الأشجار في مناطق وأقاموا التحصينات في أماكن أخرى وفقاً لخطة وتوجيهات القادة حتى إذا ما اكتمل وصول القوات المدافعة تم توزيعها على طول خط جبهة أراس والجمال لا تفتقر في حمل المؤن لهم وجر المدافع ونصبها في مخابئها بين أسيجة الأشجار وفي الحفر أو خلف الحوائط الواقية وإيصال الذخائر إلى مراكز الدفاعات بالإضافة إلى حمل صناديق طلقات المدافع الضخمة.

منتصف الليل والهواء البارد يغزو المعسكر، انطلقت أعيرة نارية كثيفة سمعتها منصوره وهي في المطبخ ففزت واقفة وكادت تفعلها على نفسها من فرط المفاجأة، لوهلة تحسست المسدس وابتلعت ريقها في صعوبة وهي ترى جوليانا تغط في نوم عميق بعد عناء نهار بأكمله في تجهيز الوجبات وتوزيعها على المئات من الجنود فلم تقاوم النوم منذ أن لامس رأسها الفراش، طلقات الرصاص تزداد، من بين خصاص شيش الشباك دقت منصوره النظر فلم تر سوى ومضات بعيدة تتوهج وتنطفئ يصاحبها أصوات مكتومة لا تتبين لمن، توقف تبادل إطلاق الرصاص فبقيت بقية الليل في مكمنها وأسنانها تصطك من شدة الخوف، نهضت جوليانا لإعداد الإفطار المكون من رغيف وقطعة جبن واحدة.

القواد وغيرهم من الجند تسلموا عشرات المئات من الوجبات التي سيتولون بأنفسهم توزيعها على جنود الجبهة، أما إفطار العمال والهجانة فسيكون في صالة الطعام بالعنبر الخلفي البعيد عن مرمى النيران، أثناء إعداد قطع الجبن حكمت منصوره لجوليانا وأبيها سماعها لأصوات طلقات الرصاص البعيدة وحين انتهت اقتحم كامل المطبخ للاطمئنان على منصوره:

- أبي يا كامل؟

- بخير وهو الآن في مهمة مع العمال لحفر خنادق في الجانب الآخر شمال المدينة.

- يا رب احفظهم.

دعت من أعماق قلبها فغادرها كامل في سرعة بعد أن شملهم بنظرة عجلى واطمأن على منصوره كما وعد أباه، انقضى النهار ولم تُسمع أصوات أخرى حتى ميل الشمس وكان بركانًا تفجر فقد دوت طلقات المدافع الكبيرة وتبادل إطلاق الرصاص وجاء كامل بعد المغرب يحذر منصوره من الخروج أو تطل برأسها في أي مكان به نور لأنها ستكون معرضة للإصابة.

احتاط العمال وحفروا الخنادق حول معسكر مبيتهم، اختار الكولونيل سميث عددًا منهم وتم تدريبهم بإشراف الأومباشي سعيد وقسم الله على إطلاق النار تحسبًا لأي هجوم غادر للقوات المعادية على المؤخرة ولأول مرة ترى منصوره أباه غلاب النجار وهو يحمل بندقية ويختبئ في خندق طويل والتراب على جانبيه ويطلق النار على أهداف ثابتة ومتحركة فودت لو تشارك في التدريب معهم لكن غلاب أصر على أن تبتعد وتبقى لمعاونة الطباخ في تجهيز الوجبات السريعة للجنود والتي يلتهمونها وهم في مواطن دفاعهم وبين الحفر وفي الخنادق، انقضى يومان على هذا الحال وتقدمت فرق من القوات الألمانية واجهتها كتائب تحالف الإنجليز مع الفرنسيين بكل قوة حتى تحول بينها وبين تقدمهم لمدينة أراس، قدم عشرات المسعفين والمسعفات فاستقبلوا الجرحى في العنابر الخلفية واشتاقت منصوره إلى الاشتراك في إنقاذهم لكن الممرضات كن من الكثرة بحيث لم يحتجنها وبقيت في المطبخ مع جوليانا التي أكثرت من صلواتها ودعائها ليبعد عنهم أذى الحرب.

طوال ثلاثة أسابيع استمرت الهجمات حتى نجحت طائرات ألمانية في اختراق فضاء المعسكر على ارتفاعات منخفضة ورشق مقاتلوها البقعة برصاص مدافعهم الرشاشة فلم تسمع منصوره سوى صيحات وحشية تحملها الريح، اختبأ معظم العمال والهجانة في العنابر وفي خنادقهم التي حفروها لأنفسهم فأمست نهاية اليوم قبورًا لعدد منهم.

مع إشراق يوم جديد مشحون بالخوف، أطلت منصوره لتمسح المعسكر ببصاتها المرتابة فحدقت نحو عدد من العمال يحفرون بالقرب من العنبر الأخير، استولى عليها الاستغراب فليست تلك منطقة لحفر الخنادق، اتسعت حدقتا عينيها وتجرات فخرجت من المطبخ نحو أبيها، اقتربت منه فوجدت عبدالمؤمن يجتهد في لف الجثث وعامر الإسناوي يسابق الوقت كي يهيئ لهم مدفئهم، في سرعة رسوا الأجساد الملفوفة وأهالوا عليها التراب، عدتهم منصوره فوجدتهم قرابة العشرين وغنيم لسانه يلهج بالدعاء لهم وعيناه تذرفان الدموع على عماله، رغاء بعيد فالتفتت إلى أربعة جمال ثكلت رفاقها وتودعهم عيونها المؤرقة، ضربت منصوره كفاً بكف وعلا صوتها في هذيان:

- حرام، كلهم لهم أهل ينتظرون رجوعهم.

حدجها أبوها بنظرات صارمة أما كامل فجدبها من ذراعها مبتعداً عن بقية العمال والهجانة فقادت جوليانا نحو المطبخ ومنصورة تبكي، قدمت لها كوباً من الماء فشربته، سكنت قليلاً ورائت على عينيها سحابة ثقيلة من الحزن:

- لما مات العمال في مودروس، قلنا أنهم في عملهم، لكن تهلكهم رصاصات الألمان ولا ذنب لهم.

- إنها الحرب يا منصوره، الحرب تقضي على الأخضر واليابس.

- كلهم عمال أغراب يا عم ليमान، ما لهم والحرب.

- الحرب قاسية يا بنتي، قبل مجيئكم حدث نقص شديد في الغذاء بعد معركة السوم فأمر الماريشال فوش باقتحام القرى التي هجرها أهلها واستولى الجند على مخزون الجبن وساقوا الأبقار ومن يعترض من بقية أهل هذه القرى يقتلونه.

- وذبحوا كل الخيول المصابة، افكرت يا أبي وحدث أن منعهم مزارع فرنسي فحذروه ولما اعترض طريقهم أطلقوا عليه النار.

كفكفت منصوره دموعها وظلت صامته، عرفت أن من بين المقتولين عبدالصمد الفرشوطي، شاب في الثلاثين شاربه منتصب كخنجرين ووجه يشعرك بالخوف حين تطل عليه لكنه طيب القلب، صموت ولا يرد سائلاً حتى لو طلب منه اللقمة الوحيدة بيده، ترجرج في ذاكرتها وجه عوض المنفلوطي حين كان يردد أغنيته بمجرد إقبال عبدالصمد عليه: نفسي أزورك يا نبي، في بلادك البعيدة، فيها أحمد وحميدة، حميدة ولدت ولد، كان اسمه عبدالصمد.

فيضحك عبدالصمد وتظهر أسنانه العريضة، من بين فواصل الحزن والكبت حامت في نفسها تساؤلات: لو أمه حقاً اسمها حميدة وأبوه أحمد هل هما في انتظار عودة عبدالصمد؟ استفاقت من سرحانها على صوت ليان وجوليانا يجهزان أرغفة بها جبن فمسحت دموعها الذارفة على خدها وشغلت نفسها معهم حتى إذا ما اكتمل العدد المناسب دخل خمسة جنود وحملوا الطاولات الخشبية نحو عنبر المصابين، رافقتهم الفتاتان، لأول مرة تدخل منصوره العنبر المكتظ بالجرحى والمرضات يتحركن في سرعة بين الأسرة، ظلت توزع الوجبات لكنها لم تطق روائح الجروح وتخثر الدماء على الملاءات والفرش وإذا أضيف عرق المصابين وقلة المياه لنظافة العنبر فقد دفعها هذا إلى المغادرة وهي تغطي نصف وجهها بمنديل فلحقتها جوليانا في سرعة ووجدتها منثنية على الأرض وقاءت ما في جوفها، سحبتها خارج عنبر المصابين نحو غرفة الاستراحة الملحقة بالمطبخ.

حين دخلت الفتاتان ثبتت جوليانا قدميها أمام أبيها وهو يدير بينهما نظراته الزائغة، أغلق الباب فجأة فالتفتت منصوره في حدة وتراجعت والذعر يملكها، حملت في الجندي الشاهر بندقيته وفي كتفه إصابة رصاص، التفت جوليانا خلف أبيها وتبعته منصوره المصدومة من هول الموقف، رفع الجندي بندقيته أكثر ونثر كلماته في نبرة حرص أن يجعلها منخفضة ومنصورة مذهولة من الجندي الفرنسي الجريح وسلاحه المرفوع في وجه ليان الأعزل فردت عليه جوليانا بعبارات سريعة، مالت منصوره برأسها نحو جوليانا التي أسرت في أذنها بعبارته مبتورة:

- هارب و...

خبطات على الباب فالتاث الجندي وهو يشير إليهم بالبندقية، نهض ليमान وأشار إليه نحو حَمّام الاستراحة فدخلها الجندي ساحبًا جوليانا من ذراعها فطاوعته طالبة من منصوره ألا تصدر أصواتًا، فتح ليمان الباب فاقتحم أربعة جنود الغرفة، دارت أعينهم فحادثهم العجوز وهو ينفث دخان غليونه في قلق، همّ أحدهم أن يقتحم الباب المغلق فمنعه ليमान وفهمت منصوره أنه يخبرهم أن ابنته بالداخل، انفتح الباب وخرجت جوليانا وقميصها مفكوك الأزرار وعلى رأسها منشفة والمياه تنقط على ملابسها، جفلت فجأة أمام اللمة فتلفت أحدهم يستطلع الحَمّام ثم استداروا خارجين، أغلق ليमान الباب، فأيقنت منصوره أن الجندي الجريح نط من نافذة الحَمّام الواطئة لكن تفكيرها لم يكن في محله فقد ظهر الجندي من خلف الباب ولا تزال بندقيته مشهورة.

- لماذا لم يذهب إلى عنبر المصابين؟

- اسكتي يا منصوره، الجندي هارب لأنه رفض إطاعة أوامر قائده وقال له يجب ألا نستمر في الحرب.

- أهو أخبرك بذلك؟

- نعم، لكنه غير مؤذ.

لم تكمل جوليانا عبارتها حتى انفلتت البندقية من يد الجندي ووضع يده على رأسه، مال فأسنده ليमान وأراحه على السرير، انتشرت عباراته وهو يسلم نفسه تمامًا للعجوز فالتفت ليमान إلى منصوره وجوليانا:

- إنه من ريف الجنوب.

بصوت خفيض تحدّث الجندي وبدا عليه الإعياء فتأملته منصوره وقلبه يخفق ومن حين لآخر تلتفت إلى الباب ثم خطت نحوه وأغلقتة بالترباس لئلا يدخل عليهم أحد مرة أخرى، لولا عيناه الزرقاوان ووجهه الذي يشبه رغيف خبز منتفخ مشرّب بالحمرة لظنته جوليانا التي تفرست هيئته فلاحًا جزائريًا من جبال الأوراس، ابتلع ليमान ريقه وطفق يترجم:

- اسمه ديمار لديه مزرعة تفاح في ليموزان وزوجته تربي الأبقار.

بمعاونة جوليانا خلع ديمار بذلته العسكرية، لم تبال منصوره بما يقوله الفرنسي فانهمكت في كشف جرحه وتهيأت لإخراج الرصاصة من كتفه لكنها فوجئت بأخدود غائر في اللحم واهتزازات رأسه فهمت منها أنه ينفي إصابته بطلق ناري فنظفت الجرح بالماء ومن صندوق الإسعافات تناولت قطعة قطن وغمستها في سائل لونه أزرق باهت، طهرت الجرح ولفته بالقماش العريض، في وهن ابتسم الرجل المقارب على الأربعين فقرب ليमान الكرسي من السرير وجلس، طلب منه ديمار سيجارة فأعطاهها له، تحدّث كثيرًا وليمان يهز رأسه، بإصبعها أشارت جوليانا إلى منصوره فابتسم العجوز وهو ينقل ما فاه به الجندي المنهك:

- يقول ديمار أنه خاض معركة السوم العام الماضي وبقي في الخنادق أسابيع مرت عليه كالأعوام، وأنه كان يتغوّط على الأوراق ويلقي بفضلاته خارج الخندق وكل زملائه يفعلون مثله، عاش كالجرذان ومع الجرذان فيومًا أثناء نومه المتقطع صحا على ألم في أذنه وصرخ مذعورًا فرأى جرذًا يهرول بعد أن قرض أذنه، وكان يصطادها مع رفاقه ويعلقها من أذيالها وهي تنقل لهم البراغيث التي تحرمهم من النوم فتحالفت تلك الحشرات مع الجوع في سلب النوم والراحة منهم غير الجرب الذي أصاب معظمهم فكانوا يدهنون أجسادهم بالقار الأسود، الشيء الوحيد الذي كانوا يفعلونه بشراهة هو التدخين فرائحة الدخان كانت تغطي على عرق أجسادهم وروائح الجثث التي لم تدفن وقد تعفنت في الخنادق الأخرى وبعض رفاقه أصابهم الزحار.

- الزحار؟

- مرض خطير ومعدٍ يا منصوره يصيب الأمعاء فيتبرز المصاب به دمًا.

- يا ساتر يا رب.

- المهم، يقول أنهم ظلوا أيامًا يتبادلون إطلاق النار وثبتوا وقتًا طويلًا أما من يغامر ويرفع رأسه فقد يهوي جسمه بعد أن تتفجر الدماء الساخنة من رقبتة مقطوعة الرأس.

صمت ليमान وشعرت منصوره بالإشفاق على الجندي المصاب أحضرت جوليانا رغيفا وقطعا من اللحم فأكل ديمار في ببطء ومن حين لآخر يتكلم وليمان يهز رأسه ويرفع حاجبه ويظهر له الأسى، منصوره تهفو نفسها لمعرفة سبب إصابته وبحث الجنود عنه، سكت ديمار فأطال ليमान التحديق فيه ثم التفت إلى البنيتين:

- يقول: يتكرر الموقف نفسه هنا، فاعترضتُ على القائد الذي أمرنا بالتوجه إلى الحفر والخنادق الأمامية وزاد إصرارنا على عدم مغادرة المعسكر ورفعت صوتي في وجوههم بأن لا جدوى من تلك الحرب والأفضل أن أعود إلى مزرعة التفاح وأبقاري التي تضمن لي ولأولادي اللبن والجبن والزبد.

أنهى ليमान عبارته بنبرة مشوبة بالحماس وكأنه يتضامن مع الجندي ورأيه في تلك الحرب التي طالت أكثر من اللازم فلا تريد أن تنتهي وما إن تخمد في منطقة إلا وتندلع في أخرى.

- اعتبروا ما فعله هو وزملاء له تمرّدًا فقبضوا عليهم وساقوهم إلى السجن استعدادًا لمحاكمتهم وحين اشتبك مع حرسه طعنه أحدهم بسونكي البندقية فضربه وطرحه أرضًا وجرى لا يدري أين يختبئ بعد أن اقتنص بندقية حارسه.

سرحت نظرات ديمار وارتعشت شفثاه وهو يردد جملاً قصيرة في هذيان فهوّم ليमान برأسه وجوليانا تنصت له، انطبقت شفثا الجندي وأغمض عينيه، بهدوء ترجمت جوليانا.

- يقول: أنه بعد معركة السوم كنا نغني أنا ورفاقي:

وداعًا للحياة

وداعًا للحب

وداعًا لكل النساء

لقد أنتهى كل شيء الآن

فقد قضي علينا للأبد

بسبب هذه الحرب البغيضة

ففي قرية كراون الواقعة على التل

يجب أن تحل نهايتنا

لأنه قد حُكم علينا بالموت جميعًا

لقد تمت التضحية بنا

سكنت جوليانا والعجوز يغير تبغ الغليون ثم غادر الغرفة وابنته تسبقه لتستطلع الطريقة المؤدية إلى المطبخ أما منصوره فبادرت بغلق الباب، وقف ليमान أمام المطبخ وملاً صدره بالدخان، احتبسه فترة ثم نفثه دفعة واحدة، التفت إلى الفتاتين وهز رأسه وهو يخبرهما في تصميم:

- يجب إبلاغ القائد موريس عنه.

سقط قلب جوليانا بين ضلوعها ونترت منصوره الدموع من عينيها فقد رسخ في قرارة نفسها أن مزارع التفاح هذا له الحق كل الحق في رأيه وتأكدت أن الأسابيع الفائتة منذ بدء معركة أراس عاش الجنود في الخنادق كما عاش ديمار أثناء معركته السابقة فاستحرمت

إقبال العجوز على ما يريد فعله واستدرك بدوره عاطفة الفتاتين فهز رأسه في أسف وقادهما في ركن منزو:

- إنها الحرب ولا مكان فيها للعاطفة، أنتما تعتقدان أنه لو عرف قادته مكانه سيصفقون لنا لكن العكس هو الصحيح فقد يطلقون علينا النار قبل أن ينطق أحدهما بكلمة لمجرد أننا أخفيناه لساعات وعالجنا جرحه أما...

- لنتركه يقرر مصيره.

في جراءة قاطعته منصوره وصوتها يعلو على صوته، ربتت جوليانا على كتف أبيها وخرجت كلماتها مرتبكة على غير عاداتها الواثقة:

- أترأه على خطأ يا أبي؟ مزارع يعيش حياة هادئة ويقودونه إلى حرب لا تنتهي وعندما يطلب منهم أن يتوقف عن القتال ويعود لبيته يعتدون عليه بالضرب وقد يسجنونه أو يعدمونه، إنهم حتى لن يعطوه فرصة العودة إلى الخنادق خوفاً من أن يشيع التمرد بين الجنود.

جفلت قدما ليमान وهوم برأسه ومنصورة قوست ذراعها حول كتفيه في محاولة جادة لإثنائه عما يريد أن يقدم عليه وتفهمت إصرار الطباخ العجوز الذي لا يريد سوى حمايتهم، استدار عائداً نحو غرفة الاستراحة وفي نفسه تصميم أن يطلب من ديمار مغادرة المطرح في الحال وسيعاونه على الهروب وخاصة أن الشمس مالت نحو المغيب، تقدمهما وهو يفتح الباب فوق الغليون من بين شفتيه حين صوب نظراته فانخطفت روحه لفرغ السرير، دخلت جوليانا تتبعها منصوره، خفق قلبها في شدة حين رأت النافذة مفتوحة على مصراعها فتبادلتا الابتسام للجندي الذي قرر مصيره بنفسه ودعت جوليانا له بالنجاة وتمنت أن يعود لمزرعته بسلام.

- لا يا أبي.

زعقت بها منصوره فاسترعت أنظار الشباب البعيدين عن منطقة وقوفها أمام أبيها، من يومين توقف القتال تمامًا فلم تُسمع أصوات القنابل أو طلقات المدافع الكبيرة بعد أن عاشوا الأسبوع المنقضي في غمار سقوط القذائف الذي ظنوه لا ينتهي والعمال بدورهم مدوا الجنود في الخنادق بكل أنواع الأسلحة وجروا المدافع الثقيلة لأقرب نقطة لانطلاق قذائفها أما أغرب ما رأوه فهو العربة الضخمة التي يحميها الحديد من كل جانب ويطلقون عليها اسم دبابة، اخترق عددٌ منها القوائم الحديدية التي زرعتها الألمان ومشبوك بها الأسلاك الشائكة ففتحت الطريق نحو صفوفهم مما أجبرهم على التراجع بعد توالي سقوط الدانات المتفجرة على مواقعهم وخرج جنود التحالف الفرنسي الإنجليزي من الخنادق يطاردون فلول العدو، تقهقر الألمان نحو الشمال لكنهم يعاودون الهجوم مرات متفرقة فأمر الكولونيل سميث العمال والهجانة بالتقدم في مواقع متفرقة لجمع كل ما تركه الجيش من أسلحة سواء السليمة منها أو المعطوبة وحين أخبر غلاب منصوره بمهمته الجديدة رفعت صوتها بالاعتراض المشوب بالتحذير من كر الألمان عليهم تارة أخرى، أقبل قسم الله وغنيم الشرقاوي نحوهما وشملتهما نظرات الاستفهام فرفعت منصوره رأسها وعلا صوتها أكثر من ذي قبل:

- الخنادق خطيرة يا أبي.

- مهمتنا استعادة الأسلحة وجمع الحديد و...

- مهمتكم فيها الموت، أرجوك يا قسم الله، أتوسل إليك يا عم غنيم، ارفضوا المهمة واتركوها لجنودهم.

- جنودهم متعبون من طول السهر في الخنادق يا منصور.

- ومنهم من مات و...

لم تكمل منصوره عبارتها فقد صاح العمال وهم يشيرون إلى بعيد فغامت شمس الصباح رويدًا، توالى طلقاتٌ بعيدة نحو شيء بيضاوي يحلق في الفضاء والجنود يتراخضون وهم يطلقون الصيحات ويرددون كلمة واحدة لم تفهمها منصوره: زبلين.. زبلين.

ببطء ابتعدت الأستوانة الكبيرة عن الشمس وكأنها في كسوف هائل والعمال يتحركون حول بعضهم وحدث ما لم يتوقعه الجميع حين رأوا وكأن قوالب طوب تُلقى من أسفل الشيء الكبير نحو الأرض فازداد صراخ الجنود، غيرهم القريبون من موقع الطائرة الغربية يجرون مبتعدين عنها وجنود الخنادق يطلقون النار، لم تلبث أن سقطت تلك العلب على الأرض وأحدثت انفجارات هائلة جعلت منصوره ترفع كفها أمام وجهها وزاد تصميمها على منع أביها من الذهاب إلى الحفر والمخابئ الممتدة على طول الطريق، راقبت الطائرة وهي تبتعد نحو الشمال ونجت من الرصاص بعد أن أحدثت انفجاراتها دويًا اهتزت له الأرض.

- رأيت يا أبي؟

همّ غلاب بالرد لكن القائد سميت نفسه حضر فانتظم العمال في وقوفهم والأومباشي سعيد يتقدّم فرقته:

- لا وقت لدينا يا كبير العمال، انتهت المعركة وانسحب الألمان إلى الشمال، يجب استعادة الجرحى ودفن القتلى.

- عليكم جمع كل الأسلحة سواء السليمة أم غير السليمة.

في حزم ألقى القائد موريس أمره وهز جوستاف الواقف خلفه رأسه وهو يؤكد معلومة:

- هذا بتعاوننا جميعًا.

- انتهت أيام المعارك بالنصر وسننفذ كل ما تأمرون به.

في هدوء أجاب غلاب وهو يدور في وجوه القادة وكأن لسان حاله يقول لهم: وبعد تنفيذ مهمتنا على خير قيام هل سنعود؟ لكن لسانه انعقد خوفاً من أوامر تالية تقضي ببقائهم لفترات طويلة، أشارت منصوره إلى السماء وهي ترفع صوتها متسائلة:

- ولو عادت الطائرة الكبيرة لتلقي قنابلها مرة أخرى؟

- تقصد منطاد زبلين يا منصور، لن تعود طائرات زبلين مرة أخرى فقد كانت مهمتها استطلاع أراس وما بها من خسائر لحقت بهم وبنا وألقت قنابلها لتتمكن من الهرب.

شعر سميث أنه حاور العمال أكثر من اللازم فيكفيه إلقاء الأوامر فقط وعليهم التنفيذ لكنه لا يريد أن يثيرهم في هذا الموقف الدقيق وما تخفيه طويته يلزمه أن يرضيهم وفي نفس الوقت ينفذون ما يُطلب منهم وخاصة أن الكثير من الخيول مات وما أصيب منها نفق طوال أيام الاقتتال والعمال لا يزال لديهم الجمال القوية التي تحمل كل ما يريدون، ابتلعت منصوره ريقها وأصرت أن ترافق أباهما لكن الأمر يضطرها إلى العودة في سرعة إلى استراحة المطبخ لأخذ شيء ما، فرحت حين علمت أن تحرك العمال والهجانة بعد ساعتين على الأقل، استدارت عائدة إلى المطبخ فاستقبلتها جوليانا وهي منهمكة في إعداد الوجبات:

- رأيت المنطاد زبلين يا منصوره؟

- شاهدت الطائرة الكبيرة لكنها بلا أجنحة وحركتها بطيئة.

- فكرة المنطاد فرنسية، ففكر فيها من قبل جوزيف ميشيل بإشعال نيران من أسفل البالون الكبير فينتفخ بالدخان ويطير إلا أن فرديناند ثون زبلين الألماني صمم طائرته هذه بطول أكثر من مائة وخمسة وعشرين متراً وأضاف عليها المحركات.

ألقى ليमान بعبارته الطويلة ويدها لم تكفا عن العمل كعادته والغليون لا يزال مثبتًا بفمه،
أرادت منصوره معرفة أكثر بتلك الطائرة التي تشبه البلح لكنها تغطي الشمس كسحابة
كبيرة فسألته:

- وتستخدم للسفر؟

- تستخدم للسفر ولكن في حال الحرب استخدمها الألمان كما شاهدنا، حدث من شهر
طويلة أن أرسل جيش القيصر ويلهلم مناطيد زبلين إلى لندن نفسها وألقت متفجراتها على
المدينة.

- هاجموا بلد الإنجليز؟!

- ولم يصدق الإنجليز أن طائرة ألمانية أو غيرها يمكنها عبور البحر ومهاجمتهم لكن منطاد
زبلين فعلها وعاشوا في رعب ما بعده رعب.

سرحت منصوره في هيئة تلك الطائرة التي يطلقون عليها اسم منطاد وفكّت حبال خيالها
فأرت أنها استولت على واحدة من تلك الطائرات وأخذت معها أباه وكل العمال والهجانه
بجمالهم وعادوا إلى مصر فرست بهم أمام الأهرام أو قبالة تمثال أبي الهول أو في
بورسعيد وشطح خيالها أنها ذهبت إلى قريتها بني عيش وهبطت بالطائرة الكبيرة أمام
الترعة الجارية قرب بيتهم هناك.

- منصوره، منصوره!

أفاقت على صوت جوليانا التي رصت الوجبات في الطاولات الخشبية وحين دخل الجند المكلفون بحملها انسحبت نحو الاستراحة وسحبت المسدس واضعة إياه بين طيات ملابسها وهي تقول: الاحتياط واجب.

- تريدين شيئاً يا منصوره؟

- لا يا عم ليमान، كنت أسأل: زبلين ألماني؟

- قلت لك أنه ألماني من كونستانس الواقعة في بادن الكبرى، على فكرة فرديناند زبلين مات في مارس الماضي وعمره يقترب من ثمانين سنة.

- الله يرحمه مطرح ما راح.

لم يفهم ليमान عبارة منصوره الأخيرة وحين خرجت من المطبخ تبعتها جوليانا بعد أن وضعت على رأسها خوذة حديدية وأعطت أخرى لمنصوره ففرحت بمرافقة جوليانا ولن يعرفها أحد من الجنود بملابسها التي تشبههم، توجهتا إلى فرقة العمال فتحركت مقدمتها فعلاً نحو الخنادق وقلب منصوره يدق في شدة وتهيأت أن تشاهد المكان الذي دارت فيه معركة الأيام المنقضية، حقيقة كانوا بعيدين عن مناطق القتال لكن دوي الانفجارات الذي لم يتوقف جعلهم يشعرون كأنهم في خضم الجنود، ركبت الجمل خلف أبيها وتشبثت جوليانا بهدومها والخوف تملكها حين اهتز سنام الفحل وارتفعت سيقانه فشعرت أنها ستلامس السماء، خلف العربات توجه موكب العمال نحو خنادق المعركة وكلما تقدموا زكمت أنوفهم روائح تحلل الجثث، أوقفهم القائد جوستاف وبدأ يشير إلى أكوام من الحديد متناثرة فتفرق العمال لجمعها وربطها معاً ومنصوره وجوليانا داخلهما شيء من الندم حين مسحت نظراتهما الخنادق وما فيها من جثث منفوخة وأخرى تقطعت عليها

الجرذان، أمر القائد جوستاف أن تكون مهمة العمال هي جمع الأسلحة أما الجنود فقد فردوا المحففات لاستخلاص الجثث من الخنادق:

- ستنقل تلك المهمات إلى آخر الخنادق.

فهم غلاب من أمر القائد جوستاف أنهم لن يعودوا بمخلفات المعركة إلى العنابر كما ظن لكنهم سينقلونها إلى البقعة التي بين الخنادق ومدينة أراس نفسها التي دمر القصف بيوتها وهجرها معظم أهلها فدخلها الجنود واقتنصوا كل ما تطوله أيديهم من أقوات موجودة في البنايات والأحواش الخاوية من أصحابها، حملوا إلى الكامب الكبير براميل وزجاجات النبيذ المعتق المخزون في أقبية المنازل، انتشل الجنود العديد من جثث رفاقهم ورسوهم في حفر متساوية وأهالوا عليها التراب واضعين على كل كومة ورقة باسم صاحب القبر حتى إذا ما أحضروا الأحجار المستطيلة والصلبان حفروا كعادتهم الأسماء عليها.

منصورة تتجول والمنديل ملفوف حول نصف وجهها، تحدق بوجل في جثث أطرافها ملتوية ورءوسها ملقاة للوراء بوجوه مصفرة وأعين شاخصة يكسوها التراب، من حين لآخر تلتفت إلى جوليانا التي وضعت كامامة اتقاء الرائحة، التفتت منصوره لأصوات نباح خافتة فصرخت، كلاب مسعورة تنهش إحدى الجثث، تنبه أحد الجنود لما رآته فأطلق من مسدسه رصاصة فزّت على إثرها الحيوانات الجائعة، أشار إلى زملائه فأخرجوا الجثة المشوهة من الخندق وقد أصابتهم عدوى التقيؤ، أما منصوره فأمرها غلاب بأن تعود مع الأومباشي سعيد وثلاثة من الهجانة، رفضت أول الأمر لكنه أصر ووافقته جوليانا بضرورة العودة إلى الكامب؛ فالليل قادم وربما تطول مهمة جمع العمال لمخلفات المعركة للنهار التالي أما فلن تصمدا لقضاء الليل بعيداً عن العنابر واستراحة المطبخ والحمام تحتاجانه، اقتنعت منصوره وضمت أباهما إلى صدرها وهي تقول مؤكدة:

- أنتظرك غداً يا أبي.

برفق أبعدها وفي سرعة أركبها الجمل البارك خلف سعيد هي وجوليانا وأوصاه أن يوصلهما إلى المطبخ في آخر عنابر العمال.

هواء أول الصيف اللطيف جعل الجنود السكارى ينتشون أكثر ويتطوَّح بعضهم وهم يعبون النبيذ من الزجاجات ويتغنون بأغنيات مختلفة، يرفعون بنادقهم لأعلى ويطلقون الأعيرة النارية، يتراقصون وقد أصابتهم لوثة الضحك بنجاتهم متناسين رفاقهم الذين حصدتهم آلة الحرب وتلغ كلاب أراس في جثثهم وتقرض الفئران أطرافهم، منصوره المراقبة لحركات الجنود من نافذة المطبخ قلبها يرتجف قلقًا على أبيها، الليل يوغل وازداد عدد المحتفلين بالنصر وكأنهم لا يريدون النوم؛ حتى لا يندموا على إضاعة دقيقة فرحًا بوجودهم على قيد الحياة، قررت أن تذهب إلى حجرة أي قائد وتسال عنه، همّت بالخروج لكن لي مان أوقفها وهو يدرك مدى خوفها:

- سأجيء معك.

بمرافقة الطباخ العجوز زال من نفسها أي تردد واتجهت مباشرة إلى غرفة كولونيل سميث لكن وجدتها مظلمة وأخبرها الجندي المكلف بالحراسة أن القائد غير موجود، طلبت من لي مان أن يعود إلى المطبخ وتذهب بمفردها إلى عنبر العمال لعلهم يعرفون خبرًا فاطمأن العجوز وهو واثق أنها ستعود فور معرفتها بأي أخبار عن أبيها، في حذر تسارعت خطواتها نحو عنبر العمال، أكثرهم غطّ في نوم عميق غير مباليين بصخب الجنود الإنجليز والفرنسيين أما الأومباشي سعيد ورفاقه فعرفت أنهم ينظفون أحواش الجمال، استدارت للعودة إلى المطبخ والانتظار لبعض الوقت لكن استرعى نظرها النور المضاء من غرفة القائد ويليام، برغم أنها لا تطيقه لكن نفسها المشبعة بالتوتر والقلق قادتها نحو حجرة الميجور فقررت أن تستأذن في الدخول وتسال عن أبيها وتعود إلى المطبخ، الباب موارب ولا حرس يقف، دفعته وخطت نحو الداخل، مثلهم يرفع ويليام زجاجة ويشرب فيزبد

النبيد بين شدقيه، أبعد الزجاجة عن فمه، خطأ مبتعدًا عن مكتبه ووقف قبالة منصوره التي اضطربت في مشيتها حتى اقتربت منه، في قوة أمسك معصمها ورفع حاجبه، قرّب وجهه فشمت من فمه رائحة خبيثة:

- تعال يا ولد يا منصور، اجلس أمامي.

- أبي لم يعد حضرة الميجور.

قالتها وهي تتملّص من قبضة ويليام الثمل وتحاول الابتعاد لكنه أحكم لف ذراعيه حول وسطها وهو يهز رأسه ويقول متشفيًا:

- قلقة عليه يا عزيزتي الجميلة؟ وجهك الليلة أجمل من وجه زوجتي ثيكي التي لم أعاشرها منذ شهور.

فغرت منصوره فاها وأدركت أن القائد الإنجليزي يعرف أنها بنت، ذراعاه قويتان فعجزت عن الإفلات منهما، صفعته على وجهه مما جعل الدماء تغلي في رأسه ويصرخ:

- "فولش، فولش أند أجلي"، غبية وقبيحة يا بنت الخادم المصري.

- ابعد يا حقير.

- سأوقعك على الأرض كما أوقعني أبوك، لكنه غير موجود لينقذك.

صرخاتها ذابت وسط طلقات الرصاص المدوية بين جنبات الكامب، بعنف أرقدها ويليام على الأرض فشعرت بظهرها ينشرخ من أثر الارتطام، برك عليها وشفعها في قوة فدار سقف الغرفة أمام مقلتيها الذاهلتين، تراخى ذراعاه وشعرت بجسمه الثقيل عليها، من بين فواصل الإغماء والإفاقة انتشرت دماء ساخنة تبلبل جلدتها ولم تلبث أن غامت الرؤية وهوت في بئر سحيقة.

حين فرغ كامل من تنظيف زريبة دوابهم من البعر اليابس، وضع بمعاونة رفاقه الأتبان والماء أمام الجمال الباركة، شمل الحوش بنظرة طويلة وهو يأمل أن تعود بقية الجمال من مهمة جمع مخلفات الحرب، غسل يديه وفرد جسمه المتعب، لكنه هب واقفًا حين تذكر وجوب الاطمئنان على منصوره كما أوصاه غلاب النجار، انتعل خفه وعلق البندقية على كتفه، سار نحو المطبخ البعيد في آخر الكامب وهاله فوضى الجنود ومعاقرتهم للخمر، أكثر من مرة يخفض رأسه حين تمرق الطلقات من فوقه، تحاشاهم وهو يقترب من المطبخ، أمام الباب نادى ولم يسمع إجابة، بعد وقت قصير خرج ليमान يجر جررجليه، وقف مندهشًا أمام الجمال:

- تريد طعامًا يا رجل؟

- أسأل عن منصوره، منصوره بنت غلاب النجار، أهي موجودة؟

- ذهبت لتسأل عن أبيها.

- صاحبته ابنتك؟

- جوليانا نائمة، وأنا في انتظارها.

خفق قلب كامل ودون أن يتبادل كلمة مع الفرنسي العجوز استدار عائداً وهو يتجنب بنادق الجنود المصوّبة لأعلى وجريهم وراء بعضهم والنبيد فعل بهم الأفاعيل، دارت عيناه نحو مقر القائد سميث الرابض في منتصف الكامب لكنه مظلم، لم يضيّع الوقت فانعطف نحو غرفة القائد موريس، أيضاً غير مضاءة، كنست عيناه الكامب وتوقفت نظراته فجأة على حجرة قيادة الميجور ويليام فسار نحوها مباشرة، الباب مغلق والنافذة الجانبية

مفتوحة، خطا وأصوات زعاق مكتوم تلتقطه أذناه، تدلّى فكه من المشهد الصادم حين رأى الميجور ويليام يلکم منصوره الواقعة على الأرض ويفرد جسمه عليها، انسحبت الدماء من بدنه لتلطم دماغه فانتفخت عروقه وكاد الدم يبيك من حلقه، لم يشعر بنفسه إلا حين قفز عابراً النافذة نحو ويليام والبندقية مصوبة على رأسه، إصبعه لم يرفض إطاعة الأمر فاعتصر الزناد واندفعت الطلقة لتخترق رأس القائد فاحتبس الألم داخله وجحظت عيناه لخروج النفس الأخير من صدره.

بكفيه أزاح جثة ويليام والدماء تسيل من ثقب رأسه، رفع منصوره، حاول إفاقتها لكن روحها انسحبت منها، بمنديله مسح الدماء المغرقة رقبتها، التفت إلى الباب الموارب وخشي أن يدخل واحد من الحرس، لمح باب مؤخرة الغرفة فحمل منصوره على كتفه وخطا نحوه، فتحه وأطل برأسه، البقعة تحوطها العتمة، سار نحو الأشجار واختفى بينها، ظلت قدماه تدبان الأرض في خفوت حتى وصل إلى حظيرة المواشي، استوقفه أحد زملائه فأراح منصوره على القش وصدره يعلو ويهبط من فرط الجهد:

- منصور بن غلاب، شارك الجند في احتفال النصر وشرب ف...

- فهمت، ربنا يصلح حاله ويبعده عن الحرام.

فاه بها الجمال وانصرف على الفور، من إناء مركون رش كامل على وجهها الماء لكنها لم تفق من إغمائها، برفق لطم خدها، تناول بصلة صغيرة وشجها، قريبا من أنفها وصبر، تململت قليلاً وندت عنها آهة خافتة، ببطء انفرجت رموشها ثم جحظت عينها ولا تدري من دنيتها غير أنها تتنفس، رويداً وعت ما جرى فخفق قلبها في شدة وحاولت النهوض وكامل يقبض على معصمها لئلا تنهوّر في عمل لا تُحمد عواقبه، انقبضت قسماات وجهها الملتاعة وذرفت الدموع ومن بين شفيتها المختلجتين تناثرت كلماتها:

- الكلب، السافل، لو عندنا في مصر لقطعت جسمه.

- اهدئي يا بنت عمي، نال جزاءه، الحمد لله ما حصل شيء.

مالت برأسها وهي تنهنه بصوت مكتوم ولم تلبث أن نهضت جالسة وظهرها يسنده الجدار، بلل كامل خرقة قماش ومسح الدماء المتلذجة أسفل أذنها، برقت عيناها وهي تنظر إلى كامل:

- كان غرضي أسأل عن عمك غلاب لكنه...

تارة أخرى انخرطت في البكاء فأقبل نفس الجمال ووقف قبالتها وهو يحمل كيسًا به علف فلم يدع كامل له فرصة في تخمين شيء:

- منصور وعد عم غلاب ألا يشاركهم ولكن...

- استغفر ربك يا منصور، وابعده عنهم وعن الطباخ وبنته، أكيد هي شجعتك على شرب الخمر والمسخرة.

لم تنطق منصوره ومسحت دموعها، انصرف الجمال ليتخلص من حملة الثقيل، قرّب كامل الإناء من فم منصوره فشربت وخذها يرتعش، شعرت بالارتواء بعد جفاف حلقتها طوال الدقائق الفائتة، هدأت قليلاً فالتفت كامل يمينًا ويسارًا ليتأكد أن أحدًا لا يسمعه، ثبت عينيه في عينيها وتكلم في شبه همس:

- منصوره، سألت عنك الطباخ ولما أخبرني أنك قلقة على عم غلاب بحثت عنك، وصلت في الوقت المناسب، و... و... وقتلت ويليام، الرصاصة أصابت رأسه.

- يبقى أنا قتلته لا أنت.

- لم يرني أحد أو حتى يميز الرصاصة من بين طلقات بنادق الجنود السكارى ولا أدري ما سيحدث في الغد.

- في الغد أعترف أنني قتلتته.

- لا، في الغد سيحضر عم غلاب واحذري أن يلاحظ عليك أي شيء، ربنا ستر يا منصوره.

- ربنا يسترك يا كامل كيف ما سترتني.

- اكتمي السر، يعلم الله أنني أفديك أنتِ وعم غلاب وأي مصري بروحي، أرافكك إلى المطبخ، حذار أن يعرف أحد بما جرى ولا حتى ابنة الطباخ، طول الوقت عم غلاب يوصينا أن نحافظ على حياتنا لنرجع لأهلنا، من باب أولى نفذي وصيته.

- حاضر يا كامل وربنا يرجعه بالسلامة.

- يا رب هو وغيره من أصحابنا.

أنهضها فثبتت غطاء رأسها وسارت خلفه خارجة من حظيرة الجمال، بحذر التفتت نحو غرفة ويليام، لا تزال مضاءة والباب مواربا، ابتعدا والجنود في احتفالهم الجنوني ومن حين لآخر يطلقون الرصاص في الهواء، راعها جندي يعلق دمىة كبيرة بحبل من رقبتها ملفوفة بعلم غريب، تركها تتطوّح في الهواء فأطلق على الحبل رصاصة فانقطع، وقعت الدمىة على الأرض وهو يصيح بكلمات غريبة، وصلا إلى المطبخ ففتح ليان الباب في قلق، بحروفه العربية الممدودة سألها:

- تأخرتِ؟

- لما لم يعد عم غلاب، شربنا الشاي.

بعبارته تحمّل كامل عناء اختلاق منصوره حكاية للطباخ ليان كي يقنعه بسبب تأخرها كل هذا الوقت فهوّم برأسه ودعاه لتناول الطعام لكن الشاب استأذن وهو يثبت نظراته على منصوره؛ ليستوثق منها وعدّها بعدم البوح بكلمة مما حدث وإلا سيواجهون جميعًا عواقب وخيمة.

منصورة تتلملم في فراشها حاسدة جوليانا على نومها الذي تقطع به الوقت، وقعة الليلة لم تجعل النوم يتسرّب إلى نفسها النادمة، تمّت لو أنها اصطحبت مسدسها فأفرغته في صدر ويليام النجس أو أنها صرخت وفضحته في الكامب لكن لا جدوى من هؤلاء الجنود الملتائين، ظلت تتقلب وتنهض وتتحمّس جسمها وتحمد ربها أن كامل وصل فعلاً في الوقت المناسب فلو أنه تأخر لدقائق لكان ويليام هتكها، تخيلت أن هذا حدث وحكمت على نفسها بالموت غير فضيحتها وسط العمال والإنجليز وكل من بالكامب؛ لانفقات مرارة أبيها وطفح الدم قهراً من فمه وهو الذي يعمل المستحيل للمحافظة عليها، عادت تحمّل نفسها مغبة ما حدث واستعادت كلمات أبيها بالحدز من الإفراط في معاملة الآخرين فكان التفريط وما به من تهديد بضياعها، تجذّرت في أعماق نفسها حكمة السر وفضيلة إخفاء السر، تغلغلت تلك المأثورة في كيائها دون أن تشعر، ترجرت كلمات ويليام المتكسرة بأنه كان يعرف أنها بنت منذ زمن ويتحين الفرصة ليفوز بها لكن كامل حوّل نصره إلى هزيمة، رفعت المسدس أمام وجهها وارتعشت شفتاها وهي تواسي نفسها المكلومة بصوت خافت:

- الله يرحمك يا ميخا أنت وصالح ويحفظك يا كامل، ويصونك من الأذى يا أبي.

نور الصباح الكاشف، أنهى احتفال الليل، الكولونيل سميث والقائد موريس وغيرهما ينزعجون مما أحدثه الجند من فوضى حين ظلوا الساعات الفائتة محتجزين في اجتماع بمركز قيادة الجيش البعيد عن كامب أراس، بعيون متكسرة من طول الأرق وقلة النوم أمر سميث كل القواد بالحضور واصطفاف جند المعسكر قبل تناول الإفطار، من باب المطبخ وقف ليमान بين جوليانا ومنصورة التي رأت جندياً يهرول نحو سميث وهو يلهث ويحادثهم في صوت متقطع فتخلّى الكولونيل عن وقاره المصطنع وجرى نحو حجرة

ويليام وخلفه لفيث من الجنود اقتحموا جميعًا الغرفة التي ضاقت عليهم، خرج موريس وهو يصيح:

- أريد تحقيقًا شاملاً لما حدث للميجور ويليام.

ترجمها ليمان في سرعة وذاع في أرجاء الكامب أن القائد ويليام تلقى رصاصة في رأسه أودت بحياته، منصور لا يزال القلق ينهش روحها على غياب أبيها كل تلك الفترة حتى أنها عرفت من الأومباشي سعيد أن الكولونيل أرسل في طلبهم من موقع المعركة للأمر الهام الذي تلقوه، الجنود في كرشة عظيمة والقائد جوستاف هدده موريس بتحويله إلى المحاكمة إن لم يقبض على قاتل ويليام إرضاء للكولونيل سميث الذي لم يضيّع الوقت وطلب من أحد الجنود أن يكتب تقريرًا فورًا أن الميجور ويليام أصيب بطلق ناري بطريق الخطأ من الجنود المحتفلين بالنصر وبدفنه تكون المشكلة انتهت.

هذا ما عرفته منصور فراققتها حكاية القتل الخطأ هذه وودت لو تقف وسط الكامب وتجهر بحقيقة الميجور الذي ينتحب الضباط والعساكر لموته، تماسكت وانبسبت حين رأت أباه مع مجموعة العمال والهجانة يدخلون الكامب وينزل غلاب من على ظهر الفحل فتهرول نحوه منصور حاضنة إياه وتقبل يده وعيناها تفيضان بالدموع وكامل يقف على بُعد خطوات يستقبلهم بالترحاب وقسم الله يأسف أشد الأسف لفقد واحد من الهجانة، روى أنه حمل شيئًا ثقيلًا وحين ألقاه على الأرض انفجر ممزقًا الجمال إلى أشلاء متناثرة جمعوها وتم دفنه بالليل في قبر بأرض أراس.

هطلت دموع منصور وحين رفعت رأسها حدّجها كامل الواقف من بعيد بنظرة تحذير مصبوغة بالرجاء فكفكفت دموعها في سرعة ومسحت خدها بكم الجلباب، وقفت منتصبه العود مع بقية العمال والهجانة، المجدد روبرت بزغ من بين الصفوف بورقة قدمها للكولونيل سميث فقرأها في سرعة ثم عقد يديه خلف ظهره وصوته يعلو:

- انتصرنا على الألمان وانسحبوا إلى الشمال، احتفلتم أيها الجنود بالنصر لكن احتفالكم جاء متهورًا ونتج عنه إصابة مييجور ويليام بطلق في رأسه، لم يمت الميجور في المعركة كقائد شجاع لكنه مات من اندفاع فرحكم بالنصر وهذا يجعل منه قائدًا شجاعًا أيضًا.

مع إطباق الكولونيل لشفتيه صمت لييمان الذي ترجم خطاب القائد، دارت نظراته لتتصّفح وجوه الجنود المصطفين في وجوم، لحظت منصوره أنه يلقي نظرات الاشمئزاز لموريس وطوابير الفرنسيين، التقط نفسًا عميقًا استعدادًا لإلقاء الأمر الهام.

- الأوامر تقضي بتعقب العدو، لذا سيرحل المعسكر نحو الشمال ولسنا وحدنا فالجيش كله سيطارد العدو.

تارة أخرى سكت والتفت نحو غرفة ويليام التي انفتحت بابها فاتجهت كل العيون نحو أربعة جنود يحملون جسده على محفة عريضة ومغطى بملاءة سوداء، انطلق البوق في نغمات حزينة والمحفة على أكتاف الجنود تمر من أمامهم حتى منطقة القبور، بعد انتهاء مراسم الدفن السريعة غرزوا صليبًا أسفله حجر نحت عليه: مييجور ويليام. بطل معركة أراس. 20 مايو 1917م.

الأمر بانصراف الجنود واستعدادهم للرحيل كان حازمًا فما إن تفرقوا إلى عنابهم حتى تأملت منصوره شاهد قبر ويليام، ودت لو أن بصقتها التي لفظتها عليه تحرقه وهو في قبره، أو ترفع الفأس وتدمر شاهد قبره فلا يكون له ذكر أو اسم، عادت إلى المطبخ ودون أن تسأل عن وجهتهم، هز لييمان رأسه في أسى وهو يبخ كلماته في وجه منصوره وجوليانا:

- حتمًا سيلتف الجيش حول قوات الألمان ويهاجمهم داخل بلجيكا نفسها.

- أفهم من كلامك أن بلجيكا بلد غير فرنسا؟!

- أكيد يا منصوره والمصيبة أن قواد القيصر ويلهلم احتلتها بالكامل والألمان هناك محصنون وجيوشهم بقيادة لودندورف على ما أسمع ما لها عدد.

انقبض صدر منصوره من تلك الأخبار التي لم تسرها وزادتها حنقًا فقد تعشمت أن يكون رحيلهم إلى الجنوب حتى باريس ومن هناك يتدبرون أمر عودتهم إلى مرسليليا ويركبون البحر إلى مصر، لا تدري لماذا رغبت في شدة أن تذهب إلى أبيها، ترتمي بين ذراعيه، تتمرغ في صدره وتستحسن برائحته عما شمته من رائحة ويليام الأرعن التي لم تدر كنهها، لملمت أشياءها وركنتها فوق عربة المطبخ، غادرته نحو أحواش الجمال، الكل على أهبة الاستعداد للرحيل، استقبلها قسم الله بوجه متجهم:

- أبوك هناك يا منصور.

ذهب إلى حيث أشار فوجدته يقف قبالة غنيم الشرقاوي ويتحدثان بعد أن نظم كل منهما رجاله للرحيل، دون مقدمة ارتمت بين ذراعي أبيها وهي تلهج بصوتها:

- حسبنا أننا نعود لبلدنا يا أبي بعد عركتهم مع الألمان.

- الحمد لله يا منصوره، ربنا يهيئ لنا الصالح، مسيرها تنتهي ونرجع إن شاء الله، عودي للطباخ وصاحبتك.

قالها غلاب وكان نفسه تسامحت مع وطأة اليأس والابتعاد، أطالت منصوره النظر في وجه أبيها، تمت أن تروي له ندالة ويليام معها فينتشله من قبره ويقطع جسمه ويحرقه بالنار، ابتلعت ريقها في سكون ثم افتقرت وصدورها يفور من سر مقتل ويليام الذي يطبق على أنفاسها، زادت رغبتها في الإفصاح للجميع بأعلى صوتها عما أجرمه الإنجليزي الخائن وما فعله به كامل الشهم، رجعت بظهرها حتى استدارت عائدة إلى جوليانا، ركبت جوارها وبالكرجاج ضرب ليمان مؤخرة البغل، كالنمل تحرك الجنود نحو الشمال في طريق دائري بعيداً عن خنادق أراس، في الاتجاه المعاكس رأَت منصوره عربات كبيرة تحمل مخلفات الحرب الحديدية مغادرة منطقة الحفر والأسلاك الشائكة، جنود آخرون لا تُظهر الكمامات سوى عيونهم لا يزالون يخلصون جثث زملائهم من بين برائن الموت الذي حصدهم، طال سكوتها حتى بادأتها جوليانا وهي تشير إلى العربات التي تحمل الحديد المحطم:

- ينقلونها إلى باريس؛ فيصنع منها الطلقات.

لم تتحاور منصوره مع صديقته ومن حين لآخر ينتابها شعور قوي أن تلصق فمها في أذن جوليانا وتسر إليها بما حدث ليلة الاحتفال بالنصر، أجمت في آخر لحظة حين رأت كامل يشمخ من فوق سنام جملة ومن حين لآخر يلتفت إليها وكأنه يدق على رأسها بمطرقة التحذير من إخبار أحد أيًا كان بما حدث، أسرعته العربة حتى سارت جوار صفوف العمال والهجانة، سمعته منصوره يرددون كلماتهم في نغم حزين فشاركتهم الغناء وجوليانا تبسم للنغمة الممطوطة:

يا عزيز عيني وأنا بدي أروح بلدي.

جو يونيو الخانق يغرق جلاب غلاب بالعرق ويذيب جلود العمال المنهمكين في حفر الخنادق وزاد عليهم بناء غرف تحت الأرض مسقوفة بالكتل الخشبية التي يستصلحها غلاب ومن معه من النجارين، لم يتوقف العمل ليلاً أو نهاراً وخريطة الخنادق التي يريدها القادة لم يتم تنفيذها بالكامل مما دفع القائد العام دوجلاس هيغ أن يأمر كولونيل سميث بتفريغ كتيبتين من الجنود بالكامل لمعاونة العمال، قسم الله وسعيد لم تقتر همّة جمالهم في نقل المعدات وصناديق الدانات الثقيلة في نقاط متفرقة لكنها من الكثرة حتى ظن قسم الله أنها لا تنتهي وأيقن الجميع نية الفرنسيين والإنجليز القضاء على جيش القيصر في البلاد التي دخلها منذ عامين.

المطبخ الذي بناه العمال مسقوف بألواح الخشب وغير مهياً بالكامل لإعداد الوجبات للجنود فشيّدوا ثلاثة مطابخ أخرى بأضلاع المعسكر الذي لا يحده البصر لضمان توفير الطعام للجنود الذين رأتهم منصوره منتشرين كأسراب النمل وتسمعهم يتلاغظون بلغات أخرى غير التي اعتادت عليها، مما زادها اطمئناناً أن مطبخ ليما هو المسئول أيضاً عن إطعام العمال والجمّالة فكانت تذهب إلى خيام استراحتهم وتطمئن على أبيها ومن حين لآخر يرمقها كامل بنظرات تذكيرها بوعدا إياه حتى أنها نسيت في غمرة العمل الذي لا ينتهي ما حدث.

الأسابيع تمر ولا شيء غير جلب المزيد من الأسلحة حتى كان الأسبوع الأخير من يوليو والرطوبة خانقة والشمس بصهدا تضرب يوافيخ العمال. تنهى لمنصورة أصوات بعيدة كاحتكاك الحديد واقتراب الأزيز يطن في أذنها، خرجت من المطبخ فارتعبت للعربات الحديدية الكبيرة التي تقترب وتسير في عجالات صوتها يصم الأذان.

- إنها دبابة مارك فور الضخمة لتخترق الأسلاك الشائكة.

التفتت منصوره لصوت ليمان وهو يدخن بشراهة القلق على ما سيحدث قريبًا وخاصة بعد زراعة المدافع التي لا يحدها البصر وصناديق طلقاتها المدوّرة خلفها فأيقنت منصوره أن القتال وشيك وما زادها جزعًا أنهم قريبون جدًّا من مواقعه غير مودروس المنعزلة عن قتال الأتراك أو أراس التي كانوا يعسكرون جنوبها أما هنا فإنهم منزرعون مع الجنود المتأهبين لمواجهة الألمان.

ظهرًا بعد تناول الغداء رأت القائد روبرت يوزع على مائة عامل أكياسًا قماشية كبيرة، سارت جوار أبيها وهو يحمل مخلاته ويسير بها نحو الخيمة الواسعة، كغيره من العمال يفتح الكيس، اعتادت منصوره على خلع العمال لملابسهم واستبدالها فلم تخجل من بقائها بالخيمة وهي ترقب أباهما يتخلص من ملابسه ويرتدي الأخرى كالجنود.

- تحارب معهم يا أبي؟!

- لا، لكن كولونيل سميث أخبرنا أننا صرنا قطعة من الجيش ولا ضير من تسليمنا ملابس جديدة.

- لكنها غير جديدة، يوجد خرم أسفل الكم، يظهر أنه أثر رصاصة.

- من أيام مودروس وتعودنا على ملابس الجنود المستعملة، لكن هذه المرة حالتها جيدة.

تركته منصوره وعادت لتجد جوليانا تجهز وجبات مغطاة تحملها بجهد فساعدتها وخرجتا من المطبخ، سارت الفتاتان نحو برج المراقبة، بحذر صعدا سلمه الخشبي وحين وصلتا اختطف الحراس الجائعون الطعام من بين أيديهم فالتهمت جوليانا لهم العذر؛ فالساعات الطويلة التي يمضونها في المراقبة تجعلهم يتضورون جوعًا، للحظات وقفت الفتاتان متجاورتين، لم يلتفت الجنود الثلاثة لهما وجوليانا تشير إلى بيوت بعيدة لا تظهر منها سوى أسطحها:

- بيوت باشنديل وهناك أشجار غابة شاتو.

خفّضت منصوره عينيهآ ثم اتسعتآ للفضآ الممتد والأشجار تطوقهآ؁ الجنود كالجراد منتشرون ولا يزال الجمآلة ينقلون الصناديق إلى المواقع الجنوبية فيوزعونها على المدافع وفوهاتها مصوبة نحو جهآت متعددة؁ التفتت لكلمات الجندي السريعة فرفعت جوليانا يدهآ وقبضت على معصم منصوره؁ غادرتآ البرج وجوليانا توضح:

- الحارس يقول: لا ينبغي تواجدنا هنا.

لم تعلق وظلت سائرة في صمت لكنها جفلت فجأة ودفعها الحذر للانحناء والركض خلف جوليانا حين دوت طلقات المدافع لترج المكان في قوة؁ اقتحمتا المطبخ فأغلق ليمن الباب.

- إنها طلقات مدافع الألمان؁ هدفهم اختبار مواقعنا.

صيحات الجنود تتعالى؁ مدافع الإنجليز تقصف الجهة الأمامية وما هي إلا دقائق وحدث ما لم تتوقعه منصوره فقد هدأ كل شيء حتى طلقات الرصاص كفت؁ خرجت من مكمنها وهدفها الذهاب لأبيها فتسارعت خطواتها وعيناها تزيغان في جنبات المعسكر؁ لفت نظرها عدم وقوع أي أضرار على الكامب الكبير فاطمأنت بعض الشيء أن تبادل طلقات المدافع الكبيرة لم يتعد مقدمة الجيش؁ غلاب يقف جوار قسم الله وكامل وغنيم الشرقاوي ولا يزالون يرتدون البزآ العسكرية:

- أنت بخير يا أبي.

- الحمد لله يا منصور؁ مناوشة قصيرة ولكن اطمئن؁ الجيش تقدّم لما بعد الخنادق والعمال والهجانة نقلوا الطلقات كلها قبل بداية الضرب.

برغم مرور شهور برفقة غنيم وقسم الله وغيرهما فإن غلاب حريص أشد الحرص على مواصلة إخفاء حقيقة ابنته فلم يصرّح باسمها إلا عندما يكون مع كامل فقط ودون ذلك يصر على مناداتها بمنصور ويعاملها كشاب؁ كامل يحدّق فيها وبدوره لم يحنث في أي

وقت بوعده، لا يزال يتذكر أنه طلب ذات ليلة بعد انتهاء معركة أراس أن يتزوج منصوراً
فضحك غلاب من قلبه لطلب كامل الذي عرضه بعفوية وكأنه في قرينتهم بني عيش أو
بالإسماعيلية.

- والمأذون يكون كولونيل سميث أو الجنرال موريس؟!

- يكون قسم الله أو عم غنيم أو الشيخ عبدالمعين الأزهري وكل المصريين شهود.

- كلنا في غربة، لما نرجع يحلها ألف حلال.

- الغريب للغريب نسيب.

- ولما يسألني أحد عن تزويجي لابني الشاب منصور من كامل الجمال يبقى كيف الحال؟!

لا يزال حوار غلاب يتردد في ذاكرة كامل الذي صُدم في واقعه المسوّر باستحالة إتمام ما
أراد فتوعدا أن يتم ذلك بعد عودتهم جميعاً إلى مصر وحذره أن يُخطئ ويخبر منصوراً
بغرضه فأقسم له كامل على عدم البوح بما يرغب والانتظار حتى العودة.

- تخيلي يا جوليانا، من مارس الماضي أعلن نيكولاس قيصر روسيا تنحيه عن الحكم.

ألقى ليومان بعبارة على جوليانا ومنصورة المنهمكتين في تقطيع اللحم المطهي ووضع كل
قطعة في قلب رغيف استعداداً ليحملها الجنود لزملائهم بالخنادق بالإضافة لتجهيز وجبات
العمال والجمّالة، دون أن ترفع جوليانا رأسها سألتها:

- هل خلعه الجنود؟

- ثار عليه أهل بلده بسبب الجوع وقلة الخدمات وانضم إليهم العائدون من الجنود الذين رفضوا مواصلة قتال الألمان وجيش امبراطور النمسا فرانز جوزيف.

توقفت يدا جوليانا عن العمل ولا تدري لِمَ برق وجه الجندي الجنوبي ديمار ورأيه في الحرب التي طالت فعلاً وكأنها لا تريد أن تنتهي، في قرارة نفسها ودّت أن تراه ثانية، تمّت أن يعرف أن ما فكّر فيه حققه غيره وتخلصوا من السبب الرئيس في تهديدهم وهو قيصرهم، مطّت شفقتها، أرادت أن تحول الحوار إلى شيء آخر فالتفتت إلى أبيها وسألته:
- لكننا لم نعرف عن ثورة الروس أي خبر.

- هنا كتموا الأخبار حتى لا تنتشر عدوى التمرد، نسيتم الجندي ديمار.

تارة أخرى طفر وجه ديمار ولكن هذه المرة في مخيلة منصوره فعلمت:

- فعلاً يا عم ليمان، الفلاح الجنوبي كان رأيه أن الحرب لا فائدة منها ويجب أن تنتهي وأن ساعة يمضيها وسط أشجار التفاح في بستانه أو في حظيرة أبقاره أفضل من اتباع حمق القادة.

- ذاكرتك قوية يا منصوره و...

بتر كلمته دخول ستة جنود المطبخ وبيد كل منهم صندوق خشبي، لم ينتظروا رص الطعام داخلها لكنهم ألقوا الأربعة بعشوائية وسرعة جنونية ولم يلبث أن دخل أربعة غيرهم وحملوا كل الصناديق داخل عربات مفتوحة وغادروا الساحة.

الأيام التالية شهدت مقتل العشرات من الجنود المتقدمين نحو باشنديل فأضيف إلى أعمال الهجانة مهمة نقل الجرحى من الخنادق وأماكن القتال الأخرى إلى العنبر الكبير الذي

خُصص لهم، صباحًا ومنصورة تحمل الإفطار إلى أبيها ورفاقه نبه عليها ألا تبرح المطبخ
مهما يكن طوال فترة غيابه فسألته في قلق بالغ:

- إلى أين يا أبي؟

- أمرنا سميث أن نعاونهم في نقل الجرحى وكما تترين نرتدي ملابس الجنود ونضع
الخوذات.

- قلقة عليك.

- لا تقلقي، مهمتنا نقل الجرحى والمصابين والموتى إن أمكن والكولونيل سميث أمرنا أن
نضع الخوذة؛ حتى لا نُصاب وحدد لنا منطقة معينة وعودتنا بعد الظهر.

- ترجع على خير إن شاء الله.

لا تدري منصورة لم نغز خنجر القلق قلبها لكنها سلّمت أمرها لله ورضخت لفراق أبيها
وزهابه إلى الخنادق في باشنديل وعزاؤها الوحيد أنه سيكون معه كامل وغنيم وقسم الله
والأومباشي سعيد وغيرهم، رجعت إلى المطبخ ومن حين لآخر تدوي الطلقات ويشند
القصف وروائح البارود تضيف على جو أغسطس المزيد من الحرارة، مرّ النهار ولم تكف
المدافع، اختفى ليمان ساعة ثم عاد وهو يضرب كفاً بكف، اعتاد أن يتحاور مع جوليانا
بالفرنسية عندما يكونان بمفردهما لكنه لطول حديثه بالعربية أمام منصورة فقد سأل ابنته
عنها فأجابته أنها ذهبت تسأل عن أبيها:

- ضاع أبوها يا جوليانا وكل من معه.

- كيف يا أبي، ذهب العمال إلى الخنادق لنقل الجرحى.

- هراء، تعرفين أنني ذهبت إلى القائد سميث لأطلب منه المزيد من الخبز فسمعتته يتحاور
مع ألبرت بأنه يستعد لإرسال برقية إلى القائد هيج يخبره أنه على وشك معرفة حصون

الألمان ب... ب...

- بماذا؟

- دفع الكثير من العمال والهجانة نحو الأمام بعد أن ألبسهم ملابس الجنود ووضعوا الخوذ الإنجليزية فأمطرهم الألمان بالرصاص وعُرفت مواقعهم ودكوها على من فيها.

- يا له من ثعلب، يخدع العمال ويلقي بهم في فخ ليحدد مواقع العدو.

- ويوفر على الجيش المزيد من القتلى.

- لكنهم غير مسلحين.

- حتى لو بأيديهم سلاح، غير مدربين على خوض المعارك الكبيرة.

- حسبنا الله ونعم الوكيل.

زعقت بها منصوره التي اقتحمت المطبخ في تلك اللحظة، جثت على ركبتيها وهي تضرب الأرض بقبضتيها وتهذي بكلمات عبثية ودموعها تهطل في غزارة، فحين عادت وقفت هنيهة أمام الباب لتعيد لف الشملة على رأسها فسمعت الحوار الأخير بين ليان و جوليانا، برفق أحاطت جوليانا كتفي صديقتها وحاولت أن تُنهضها، دارت الدنيا بمنصورة وسقطت مغشيًا عليها، عاون ليان ابنته في إراحتها على السرير، قَرَّب من أنفها زجاجة عطر فعطست في قوة وحاولت النهوض ولا تزال دموعها تسح:

- لازم أنقذ أبي.

- أبوك سيعود يا منصوره، اهدئي، الظلام يحوطنا والسماء أمطرت رذاذًا منذ قليل.

- لا يهمني، أبي.. أبي.. الخونة يلقونه هو وعماله ليكون طُعمًا للألمان، عليهم لعنة ربنا كلهم.

- لن تخرجي يا منصوره، أمنحك بالقوة.

انهارت على الأرض منخرطة في بكاء مرير وجوليانا الصامته تمّت لو أن أباه لم يتحدّث معها في أمر العمال وحنقت على سميث وخبثه وتضحيته بالعمال الغرباء في سبيل معرفة مخابئ الألمان، رويدًا هدأت وألجم لسانها، تعض شفتها حين تدوي المدافع بطلقاتها، خرس المكان فجأة فنهضت خارجة من المطبخ خلفها جوليانا، أصاخت السمع فلم تطرق أذنها غير طلقات بعيدة خافتة، اخترقت نظراتها الظلام، من حين لآخر تتلاقى رموشها من فرط التعب لكنها تباعدت فجأة وجحظت عينها لدخول ثلاثة جمال أرض الكامب حولهم العمال، أطلقت ساقها للريح حتى أنها لفتت انتباه الحرس فجروا خلفها وجوليانا تحاول اللحاق بها، وقفت لاهثة أمام أول الجمال وميزت وجه قسم الله وعماله بملابسهم المتسخة، قاد قسم الله جملة العُتاب ونظرات منصوره تخترق الظلام لتستطلع قدوم أبيها من الخلف، توقف الجمل وهزّ قسم الله لجامه، برفق أناخه وتبعه الآخران، التّف العمال حول الجمال الباركة وشرعوا يحررون الأجساد المربوطة بالحبال من فوق ظهور الجمال حتى إذا ما قرّب ليमान المصباح الزيتي من وجه أحدهم صرخت منصوره صرخة فاقت طلقة المدفع وهي تشير إلى أبيها المسجّى يجاوره كامل وغنيم وسعيد وسبعة غيرهم تراصوا ووقف العمال يبكون فأقبل موريس وهو يرفع صوته ويحادثهم بالعربية:

- لم يضحوا بأرواحهم هباء، عرفنا مواقع إطلاق رصاص الألمان وقصفناهم بكل دقة وقضينا على خطرهم، جميعنا يفتخر بشجاعتهم.

أنهى موريس عبارته واستدار منصرفًا، ربّت قسم الله على كتف منصوره والتفت حوله:

- أخي منصور، يرحمهم الله جميعًا، أوصاني عم غلاب بك وإكرامهم هو سرعة دفنهم.

- صدقيني يا منصور، بأمانة يا جماعة حكيت لكم كل ما حصل.

دارت عينا قسم الله المسهدتان حول وجه العجوز ليमान وجوليانا الواجمين، منصوره بلونها الشاحب أطرقت رأسها والدموع احتفرت مجراها على خديها، عصبت رأسها بالشملة والصداع من حين لآخر يطن بين جنباتها وكأن رعد المدافع لم يجد غير رأسها ليطرقة، بالمنديل تمسح أنفها ومن جديد تذرّف الدموع، نهض قسم الله وخرج من المطبخ تبعه ليمان مغلقاً خلفه الباب، بقيت جوليانا صامتة ولما لم تجد فائدة من مواساتها التي لم تقطعها منذ ثلاثة أيام نهضت من فورها تاركة منصوره لاجترار ذكرياتها المجبولة بالحزن، ففي تلك الليلة السوداء ما إن أفاقت من إغشائها حتى انفلتت من بين يدي جوليانا لتراهم يلفون القتلى بما جمعه من بطاطين قديمة أو ملاءات مرقة وجدّ العمال في حفر قبورهم، أشار الحداد عبدالمعين الأزهري إلى الملاءة الكالغ لونها فارتمت على أبيها وهي تلطم خديها، الكثير من عمال مودروس وسلانيك القدامى أحاطوا بجثامين إخوانهم يبكونهم في التياع ولم يلبث أن تحوّل بكاؤهم إلى نحيب علا في أرجاء الكامب فخرج كل من موريس وجوستاف وسميث من غرف قيادتهم حولهم الكثير من الجنود، سميث ينفث دخان غليونه في عصبية زائدة، لم يجد قسم الله بدءاً من إنهاء الموقف فمد يده لأول الملفوفين وتجاسرت الأيدي في إراحة غنيم الشرقاوي في قبره، طفق العمال يمددون إخوانهم الواحد جوار الآخر وجوليانا تحوط منصوره بذراعيها حين أتى الدور على أبيها فكان السادس بين خمسة عن يمينه ومثلهم عن يساره، استدار سميث عائداً إلى مقره وكفكف العمال دموعهم وشرعوا يهيلون التراب حتى غطوا القبور جميعها فبدأت السماء تواسيهم وتنزف أمطاراً مكتحلة بلون الليل.

من بين إبطيها أنهضها ليमान وجوليانا فجرجرت قدميها نحو المطبخ البعيد في آخر الكامب ومن حين لآخر تلتفت إلى القبور حتى لا تنسى مرقد أبيها، يومان مرا وهي على

حالتها من الذهاب حتى جاءها قسم الله وحلف عليها أن تتناول معه الزاد الذي لم ينزل جوفها طوال الساعات الطويلة المنقضية، كسرات قليلة تناولتها ثم شعرت بالغثيان فتوقفت عن الطعام وحدّقت في وجه قسم الله منتظرة إجابة عن سؤال روحها المقصومة بفعل رحيل أبيها:

- على مبعدة من الخنادق قيدت جملي العُئاب ومن معي من الهجانة ربطوا جمالهم، كانت مهمتنا يا منصوره هي نقل الجرحى من أمام خط النار لكن القائد أمرنا أن نتقدّم ونجمع كل الحديد المتناثر وحين فارقنا أرض الخنادق لم أدر كيف انهال علينا الرصاص، كل ما رأيته حين جريت راجعًا وارتيمت في أقرب حفرة أن الرصاص ومض من جوف الأرض وأطلق علينا من فتحات منتشرة، بعدها بقيت في الخندق وسط جثث متعفنة لحين انقطاع الطلقات، ومن ناحيتنا انطلقت المدافع تدك فتحات العدو وبعد أن أسكتتها خرجت أنا ومن نجا، جمعنا رفاقنا الشهداء وبقيّة الجنود المقتولين، حملناهم على الجمال وعدنا.

- لكنك تقول لي منصوره.

في حيرة أسبل قسم الله عينيه، خفق قلبه في شدة وهو يواجه ابنة غلاب بمعرفته سرّها، ابتلع ريقه، كعادته في مواجهة الأمور انطلق لسانه يروي:

- لما حملت كامل على كتفي، شعرت بأنفاسه فأنزله وأنا متأكد أنه حي، أفاق وأمسك يدي، أخبرني بأمرِك وأوصاني بك بعد أن رأى بعينه عم غلاب يتلقى الرصاص بصدرة فوعده وربنا يحفظك ويحفظ بقيتنا للعودة.

- العودة؟!!

في هذيان فاهت بها منصوره، انقشعت سحب رواية حكاية قسم الله وعلقت في ذاكرتها الكلمة الأخيرة التي رأت أن معناها الذي كانت تتشبث به انمحي، فلا معنى للعودة الآن بل قررت البقاء جوار قبر أبيها في تلك البلاد الغريبة، ثكلته ولم يتسع لها الوقت للحزن أو

التفجّع، مالت على جنبها ولم تدر كيف أو متى غامت عنها الدنيا حتى استيقظت، تباعدت رموشها فرأت جوليانا منشغلة في تجهيز أطعمة الجنود لكن أيا منها، الإفطار أم الغداء أم العشاء، نهضت إلى الكنيف وحين عادت لمحت في شرخة مرآة مثبتة على الجدار حلقتين غامقتين أحاطتا بعينيها، بعد أن حمل الجنود طعام عشاء زملائهم، مدت جوليانا يدها برغيف فأخذته منصوره فالجوع يكاد يقطع أمعاءها من طول الخواء، سكبت بالطبق عسلًا أسود وفي الآخر قطع الجبن، أكلت جوليانا فتجاسرت أصابع منصوره وألقت باللقيمة داخل فمها.

- الأمطار غرقت الخنادق.

بعبارتها كسرت جوليانا حاجز الصمت المطبق على المطبخ لخلوه من ليمان نفسه فهزت منصوره رأسها وكأن الخبر لا يعينها، استمرت في مضغ الطعام حتى شعرت بالامتلاء بعض الشيء فشربت الماء وأمالت رأسها إلى الوراء، لمحت غليون ليمان مرنوًا على المنضدة، تناولته ومدته إلى جوليانا فاتسعت عيناها دهشة لطلب منصوره الصامت، أشعلت لها الغليون الذي تركه أبوها معمرًا بالتبخ، سحبت نفسًا فأبعدته فجأة وكحت في شدة، هدأت قليلًا وسحبت نفسًا آخر وثالثًا فشعرت بثبات نفسها والدخان المتصاعد يرسم أشكالًا هلامية أمام مقلتيها الذاهلتين، استمرت في التدخين حتى أنهت ما به وجوليانا تجلس صامتة أمامها وتلتمس لها العذر فيما تفعل، نهضت منتعلة حذاءها وهمت بالخروج.

- الوقت ليل وخروجك خطر.

- غرضي أزوره.

الباب انفتح ليقف ليمان أمامها، يدخل ويغلقه خلفه بإحكام، بسبابته أشار بعدم الخروج نهائيًا فتهيأت الفتاتان لقضاء سواد الليل بالنوم.

- أنا بخير يا منصوره.

التفتت في حدة لصوت أبيها فرأته يعلو سنام جمل جواد عن يمينه صالح وعن يساره كامل، أمامه يجلس غنيم الشرقاوي وخلفه الأومباشي سعيد، على الأرض حول الجمل يسير محمود الجهيني وميخائيل وعبدالصمد وعوض المنفلوطي وغيرهم بوجوه مألوفة لا تميزها، لأول وهلة دهشت من اجتماعهم معاً، تدري أن منهم المدفون في مودروس ومنهم قبره بين أشجار جرونوبل، هي كتبت بنفسها أسماء الميتين وتاريخ دفنهم، لم تبال بهم وحدقت في أبيها الذي يعلو فوق الجميع، يحرك شفثيه لكنها لا تسمعه، دون أن ينطق تفهم ما يطلبه منها: ثاري في رقبتهك يا منصوره، كل منهم دون أن ينبس بكلمة يهز رأسه ويتردد صدى صوته الخافت أن تتأثر له، يلقون عليها حبلاً كثيرة فتتشابك حولها، تحاول التخلص منها فتعجز عن الفكك، تغضب لتراجع أبيها ورفاقه وتتمنى مرافقتهم لكن حجراً يجثم على صدرها وشبكة الحبال محبوكة فبركت على الأرض ولم تستطع النهوض.

- آآآآآه!

كبركان تفجرت صرختها وهي تحرك ذراعيها في الهواء، انتشرت جالسة والعرق يتفصد على رقبته، أدارت رأسها فلم تجد أحداً في المطبخ، رفعت زجاجة المياه، جرعت كل ما فيها واستكانت هنيهة، تمت أن تشعل جذوة غليون ليمنان فتلفتت تبحث عنه فلم تجده، رويداً انجلت أحداث كابوسها الذي عاشته منذ لحظات كأنه يوم كامل، نهضت وفتحت الباب، شمس نهاية سبتمبر الفتية نشفت بقايا أمطار الأيام السابقة فتفاءلت خيراً بهدوء الحرب التي كفت ليومين، حضرت جوليانا وهي تحمل أخبارها:

- الجيش نوى يقضي على الألمان ويطردهم، عن قريب باشنديل تتحرر.

ظلت منصوره صامته فلا يعينها أن تتحرر باشنديل أو لا تتحرر، كل ما يهمها أن تتحرر هي من قيود البقاء في بلاد غريبة بعيدة بعد المشرقين عن بلدها وتعود مع بقية رفاق الرحيل حاملين سواد الذكرى، ترددت في أن تخرج أو تبقى لكنها حسمت أمرها وخرجت تتبعها

جوليانا، اتجهت لمنطقة القبور آخر الكامب، اتسعت عينها لمزرعة الصلبان الخشبية الممتدة أمام عينيها الدامعتين، أشارت جوليانا إلى عدة أكوام دون صلبان، عدت خمسة قبور والسادس في المنتصف جثت أمامه، انثالت دموعها مبللة وجهها، ربتت جوليانا على كتفها وحاولت أن تجعلها تقف فطاوعتها، دون اتفاق بحثت الفتاتان عن أحجار ملائمة، ثبتت منصوره كل حجر أعلى كومه تراب وجوليانا تمد لها حصاة بيضاء فكتبت: غلاب النجار المصري، معركة باشنديل سبتمبر 1917م. جواره كتبت كامل الجمال المصري وتوقفت فأتاها صوت قسم الله من الخلف، بأن تكتب: الأومباشي سعيد المصري.. واصل إملاء الأسماء الواحد تلو الآخر حتى أنهى شواهد القبور الأخرى، استحى أن يمد يده ليربت على كتف منصوره فأطرق وجهه الأسمر اللامع بفعل العرق وسألها عن حاجتها لكنها أشاحت برأسها عدة مرات فاستدار منصرفًا، بسؤالها استوقفته:

- قسم الله، أبي تكلم معك قبل موته؟

- عم غلاب إنسان عظيم، كان في المقدمة ولما أصابته طلقات الألمان أشار لنا بالتراجع لكن الرصاص كان أسرع فقتل الآخرين ولولا أنني ارتميت في حفرة لمت..

- أنت لا تعرف يا قسم الله، كنتم...

- منصوره، لازم نرجع المطبخ، حان موعد تجهيز الغداء.

قطعت جوليانا عبارتها وقوّست ذراعها حول كتفها، قادتها نحو المطبخ البعيد وعاد قسم الله إلى حظيرة جماله.

- جننت يا منصوره، ممكن الجندي الأسود يعلن عصيانه لو عرف حقيقة أمر تقدم العمال المقصود ويتمرد ويموت برصاص الإنجليز.

جفلت قدما منصوره وعصّت شفتها ندمًا على تهورها الذي قد يوذي بحياة قسم الله فمهما فعلت فلن توفيه حق شهامته وإصراره على حمل القتلى والعودة بهم في تلك الظروف

شديدة القسوة من ليل وقصف ودمار أحاط حقول باسنديل ومنطقة الخنادق بأكملها،
واصلت السير وهي تشبك أصابعها بأصابع جوليانا وتهز رأسها معتذرة حتى دلفتا المطبخ
فرمقهما ليमान بنظرات العتاب لتأخرهما، انهمكوا جميعاً في تحضير الأربعة وقطع الجبن
والاستعداد ليحملها الجنود كعادتهم السرمدية إلى رفاقهم المرابطين في الخنادق.

السترات الجلدية وقت الجنود من الأمطار التي غطت باسنديل وأحالت الأرض إلى أوحال استعسر على الجنود التحرك فيها، أما الخنادق فقد امتلأت أنصافها بالماء وما إن يرفع المقاتلون رءوسهم حتى يقتنصهم رصاص الألمان، رابض الجنود في أماكنهم بالحفر والخنادق وخلف المدافع والعمال يزودونهم بصناديق الذخيرة، منصوره وجوليانا وغيرهما من العمال تولوا مهمة توزيع الطعام على الجنود، الجو خائق ومنصورة تتعرق ولا تجد وقتًا لتغيير ملابسها الرثة التي طالها السخام، قسم الله يربط مقدمة الدبابة بالحبال ويضرب فخذ جملة العنّاب كي يسحبها من بين الطين، ترغو بقية الدواب من فرط الجهد في جذب الدبابات الثقيلة وما إن تنكسر ساق جمل سيف حتى يبرك على الأرض والطين يلطخ رقبتة الطويلة.

تراه منصوره يفك الحبال ويفحص ركبة فحله وأنيهه يقطع القلوب، يلتف العمال والهجانة حول سيف لكن القائد جوستاف يأمرهم وهو يشير بيده أن يتركوه ويعودوا للعمل في جرّ الدبابات والمدافع فتراجع لفيّف من الهجانة غاضبين وبقية العمال يحاولون مساعدة الفحل على النهوض، صرخت جوليانا لدوي الرصاصة التي أطلقها الكولونيل سميث فاخرقت ما بين عيني الجمل فانتفض وأمال رقبتة وهمدت حركته وسيف ممتقع الوجه لا يدري ما يفعله.

- الحيوان المصاب لا يستحق الحياة ووجوده يعطلنا.

بصوته الجهوري زعق بها سميث ولا يزال سلاحه مشهراً في وجوه الجميع، لأول مرة ترى منصوره التي تحجرت الدموع في عينيها جوليانا تبكي بحرقة وتربت على ظهر الجمل، وجم سيف وألجم لسانه فارتعشت شفتاه وعجز عن النطق، انغرز في الوحل جوار رفيقه،

قسم الله يصوّب نظرات الحنق على سميث الذي كشف أخيراً عن قسوة قلبه المستورة خلف ابتسامته المخادعة.

- ستجدون أن ما فعلته هو الخير له ولكم، فإن بقي سيتألم.

استدار وحوله جنوده فرفع قسم الله عصاه وضرب مؤخرة العُناب الذي علا رغاؤه وهو يسحب المدفع الثقيل، بيديها رفعت منصوره الجمال المفجوع بفقدان رفيقه فاستجاب لزملائه المواسين له في حزن، سار وسط رفاقه وجوليانا لا تزال تمسح دموعها، عادت إلى الكامب ومن حين لآخر تلتفت إلى الوراء فتلمح قطيعاً من الكلاب الجائعة تقترب من جثة الجمل.

لخمسة أيام لم تكف المدافع عن تبادل إطلاق قذائفها وارتعب ليمان من مدى طلقات الألمان التي دكّت عنابر الكامب فنقل المطبخ في مكان آخر بعيداً، ازدادت أعداد القتلى فلم يجد زملاؤهم بدءاً من دفع الطين على جثثهم المكومة بالخنادق ومع طول أمد الحرب لم يجدوا الوقت الكافي لدفنهم فظلت الجثث حتى تخثرت دماؤها وانتفخت جيفهم وأمست مرعى للجرذان والكلاب الضالة، منصوره تُسر حين تأتيها الأخبار بازدياد القتل في الجنود الإنجليز والفرنسيين وحلفائهم وتدعو في قرارة نفسها: اللهم أهلك الظالمين بالظالمين. لكن هؤلاء الظالمين تهادوا في غيهم وأراد الكولونيل سميث أن يكرر تجربة التضحية بالعمال المصريين فيجعلهم في مقدمة الجنود حتى يتلقوا الضربة الأولى ويحدد مواقع الألمان المستحصنين بمخابئ سرية، هذا ما عرفته منصوره من جوليانا فحسنت أمرها وتأرجحت في نفسها الرغبة بين إخبار قسم الله ورجاله بالأحولة التي تُحاك لهم وبين الذهاب إلى الكولونيل ومحاولة إقناعه بالعدول عن خطته، ولأنها تعرف طوية قسم الله وبقية العمال الذين يخشون إطلاق الرصاص عليهم لو لم ينفذوا الأوامر فإن الخيار الثاني كان هو القوي المتغلب على نفسها التي رأت أنه بعد موت أبيها لا خوف من أي شيء، ارتدت الجلباب

البلدي ولفت الشملة على رأسها، تحسست المسدس أسفل إبطها والجلباب يستره، سارت نحو غرفة القيادة مارة بأحواش الجمال فرأت قسم الله ورجاله يرتدون السترات العسكرية والجند يوزعون عليهم الخوذات الحديدية، أزال هذا المشهد أي تردد فالعمال على وشك التحرك نحو باشنديل وهو نفس الفخ الذي سيق له أبوها ورفاقه، اتسعت خطواتها حتى وقفت أمام الحارسين، طلبت مقابلة الكولونيل فدخل أحدهما الغرفة ولم يلبث أن خرج وأفسح لها الطريق.

- مرحبًا بمنصور بن غلاب الرجل المطيع القوي.

- وهو المغدور به وبرفاقه حضرة الكولونيل، أطلب منك ألا تكررهما مع قسم الله وبقية العمال.

كالرصاص فاهت بها منصور وهي تتصوّر أن القائد سيحدجها بنظراته النارية ثم يأمر حرسه بالقبض عليها وسجنها أو قتلها وفي هذه اللحظة ستطلق رصاص مسدسها عليهم جميعًا ثم تتلقى الموت بقلب مستريح، لكن الكولونيل خيب ما كانت تتوقعه حين ضحك ونظر إليها بعين مستريبة وهو يشير:

- رأيك يا منصور أن تشارك العمال في عملية اليوم؟

خفق قلب منصور المسكون بالمرارة واغتازت من رده البارد لكنها أدركت في نفس الوقت أن القائد بذكائه فهم أنها على دراية بما حدث لأبيها ولن يعطيها الفرصة لتحذير قسم الله قائد الهجانة والكولونيل بدوره مأمور بضرورة معرفة مواقع الألمان الجديدة ومن ثم ضربها بأسرع وقت ممكن لفتح الطريق إلى باشنديل وطرد الألمان منها ولن يمنعه أحد من تنفيذ الأمر فقرر ألا تخرج منصور من غرفته حية.

- حرس.

بأعلى صوته زعق بها سميث وهو يسحب مسدسه من جرابه لكن منصوره كانت الأسرع فشهرت مسدسها، ويا روح ما بعدك روح، ضغطت على الزناد فانطلقت الرصاصات تخترق صدر سميث فجحظت عيناه من هول المفاجأة التي لم يكن يتوقعها، قفزت نحوه، لطمته وقبضت على مدفع رشاش مكون على المكتب الخشبي، اقتحم الجند الغرفة فاعتصر إصبعها الزناد وانطلقت الرصاصات دفعة واحدة، صيحات من الخارج وتبادل لإطلاق النار بكثافة فتهيات للمعركة، تلتفت نحو النافذة بأسياخها الحديدية فرأت الجنود يتراكون في فوضى عارمة وآخرين غرباء يهاجمون الكامب فاشتعل المطرح بأكمله بتبادل إطلاق النار، الغرفة لها باب خلفي خطت نحوه وفتحته في اللحظة التي أقيت قبلة بالداخل، جرت خارجه ولا يزال المدفع الرشاش بيدها، أطلقت النار على الجميع واحتمت خلف جدار متهدم، انفجرت غرفة قيادة الكولونيل سميث ومنصورة تحمي وجهها من لفحات الحريق القريبة والشظايا المتناثرة، لأول مرة ترى بنادق تطلق من فوهات النيران لا الرصاص فسقط قلبها بين ضلوعها وقررت أن تجري، تبتعد عن الكامب بأكمله فها هم الألمان اقتحموه ويبيدون كل من به، أطلقت ساقها للريح غير مبالية بأزيز الرصاص حولها، غاصت أقدامها في أرض مشبعة بدماء مسفوكة والدخان الرمادي يغييم الرؤية أمام عينيها الذاهلتين، توحد تفكيرها في شيء واحد وهو الابتعاد عن الجحيم الذي وجدت نفسها مزروعة في أتونه، ركضت وسط الجنود المنتشرين تتخبط في القامات الفارة حتى انفصلت عن أرض المعسكر لكنها لم تتوقف، دانة مدفع تسقط في أحد الخنادق وتنفجر، تسمع صراخ الجنود فانكفأت على وجهها، نهضت وواصلت الابتعاد ومن خلفها اشتد سقوط الطلقات الكبيرة والرصاص يتطاير حولها.

ترأت لها الأشجار البعيدة، رمحت تجاهها وكلما ابتعدت زاد الأمل في النجاة، سيخ من نار اخترق كتفها فتعثرت قدمها ووقعت على الأرض، زحفت على بطنها لتحتمي بأول شجرة، أراحت ظهرها وأنفاسها تلهث، لم تتحرك لتترك لنفسها فرصة استقرار صدرها فشعرت بضلوعها تكاد تنخلع.

كزّت أسنانها وأغمضت عينيها وفتحتهما، تحسّست إصابتها، الجرح ينزف ولا أثر لرصاصة، فكّت الشملة ولفتها حول كتفها، الطاقة البنية تخفي نصف رأسها، تحسّست شعرها الذي لم تحلقه منذ شهور طويلة فكبر بعض الشيء، التفتت إلى الخلف للساحة الشاسعة ومن بعيد جنود يتحرّكون والطلقات لا تزال تدوي، التفتت إلى الأمام فأغمضت عينيها وفتحتهما أكثر من مرة للأشجار المنتصبة في وجوم، تارة أخرى تلاقت رموشها في إغفاقة قصيرة فلم تصدّق كل ما حدث وجرأتها في الدخول على الكولونيل وحوارها الذي بتره هجوم الألمان المباغت ثم الانتقام لمقتل أبيها وكامل وغنيم وكل من برفقتهم من الشّرك الذي أوقعهم فيه سميث وقواده، لم تتخيل يومًا أن أول إنسان تقتله يكون القائد الذي رافقهم من مودروس واستطاع بحيله ومخائلته أن يستقدمهم إلى مرسيليا ويسوسهم لمجابهة الحرب بتلك القرى البعيدة في الشمال، احتارت فيما وقع من هجوم الألمان للكامب وقلقت على قسم الله وفرقة عماله وجوليانا وليمان وودت لو تعود للاطمئنان عليهم لكنها خشيت في نفس الوقت من أن يكون واحدًا من حرس سميث الخاص قد نجا ويخبرهم بما فعلت فلا جزاء لها سوى إطلاق الرصاص عليها، قطرة ماء التصقت بخدها فحسبت أن دمعة فرّت من مقلتها الطافحة بالدهول، القطرة الثانية وتوالي القطرات على وجهها جعلها تفتح عينيها فالأمطار بدأت تسقط ويجب أن تحتمي منها والملاذ المناسب هو أسفل الأشجار بالغابة، نهضت من فورها وسارت بخطوات متسعة، ظلت لدقائق تتحاشى الاصطدم بالجدوع حتى شعرت أنها تاهت، تحوّلت الأمطار إلى دوافق من السيول فجلست على تبة عالية وحمّت رأسها بفرع عريض، المياه من حولها تنزلق في قوة نحو الأسفل، بقيت في مكمنها حتى هدأت حدة السيول، لا تدري أتستمر في السير أم تعود ولكن كيف ترجع ومن أي جهة وقد فقدت الإحساس بطريق العودة، العتمة تتسحب فلمحت من بعيد أنوارًا خمّنت أن تكون لجنود ألمان يلاحقون المهاجمين منذ ساعات، راودها التفكير أن تلجأ إليهم وتعرّفهم على نفسها لكن تردد صدى تحذير ليमान ذات مرة بأن الأفضل أن يطلق الإنسان على نفسه الرصاص من أن يقع في أسر الألمان لأنهم من أشد الناس كراهية للفرنسيين وسيعذبون من يأسرونه في أيديهم حتى يتساقط جلده.

اقشعرَ بدنها ونهضت تخوض في الوحول وتتحسّس طريق الابتعاد عن الومضات التي تشع وتختفي في آن واحد، سارت في الاتجاه المعاكس وهي تحذر أكثر من مرة الانزلاق، ظلت تتخبّط وتتسند بالأشجار المدهوكة بالطين والتعب يدب بين أوصالها المكدودة من طول السير ونزيف جرحها، طلقات رصاص قريبة دفعتها لأن تواصل الجري دون تحديد أي اتجاه ووجهها تصفعه أفرع الأشجار الواطئة، لوت عنقها لصوت اللهاث المقترّب منها، كشّاف يُصوّب إلى وجهها فأغمضت عينيها وفتحتها لتري ماسورة بندقية ممتدة نحوها وصاحبها يعلو صوته بالأمر، لم تعتد أذنها على تلك اللغة فأدركت أنها وقعت في أسر جندي ألماني يستطلع المنطقة، ارتعشت شفتها وتهيات لقيادتها إلى معسكرهم، ارتجفت حين نغزها الجندي ببندقيته ففردت جسمها أمامه ورأت في عينيه استغرابًا لجلابها المبلول والطاقيّة التي على رأسها، تارة أخرى يحادثها ولا تدري كيف ترد عليه، أشار لها أن تسير أمامه، نهضت مغمضة العينين، ببطء خطت في الأوحال الضحلة وتفكيرها مشلول، ما هي إلا خطوات حتى علا اصطكاك حديد وصرخة مكتومة من الألماني، توقفت وهي ترتعد، بحدة التفتت وراءها فرأته متكومًا على الأرض وسلاحه على مقربة منه، أسرع باللقاط البندقية وصوّبتها نحوه:

- لو تحرّكت أقتلك.

بدت على وجهه علامات الألم وعدم فهمه لعبارتها، أشار إلى ساقه فخفضت عينيها وارتفع حاجباها دهشة من الأسنان الحديدية المنطبقة على أعلى قدم الجندي، خفق قلبها بشدة للفرصة التي ألقى بها القدر لتنجو من مخالب الألماني فحتمًا كان سيتفاخر أمام قادته أنه أسر ذلك الغريب بين أشجار غابة شاتو، لم تضيّع الوقت وتراجعت خطوات ثم جرت والجندي يستغيث بصوت يشبه البكاء إلى أن أخفتها العتمة، وقفت خلف شجرة لتستطلع الأمر فرأت نتفًا من ضوء مصباحه يحركه؛ في محاولة أن يعرّف رفاقه أنه هنا، أدركت أن زملاءه سيجدونّه ويخلصونه من الفخ المؤلم، همّت بمواصلة الفرار لكن العواء أجفل قدميها، اختلطت أصوات العواء بزمجرات مقتربة، اقشعر بدنّها لفكرة عثور ذئب الغابة عليه ونهش لحمه وهو حي بلا سلاح، الذئب تقترّب فدماء ساقه ترشدهم، لا تدري لم

استدارت عائدة واهتدت بضوء كشافه البعيد وهي تؤكد لنفسها أنها ستلقي إليه بالبندقية ثم تجري مبتعدة، استراحت لفكرتها واطمأن ضميرها أنها لم تتخل عن جريح بل ومقيد بفخ حديدي مربوط بسلسلة قوية.

عادت إليه فالتفت إلى دبيب الأقدام المقتربة، العواء يتزايد والجندي ترتسم على ملامحه آيات الرعب، راودتها فكرة أن تحرر قدمه من أسنان الفخ، فاقتربت منه في حذر وهو يرطن بكلمات سريعة ويشير إلى صدره فميّزت أنه يعرفها بنفسه وأن اسمه هانز، يشير إلى ساقه وهو يعض شفته، بحذر مدّت يدها إلى الكلابة الحديدية ذات الأسنان الحادة، حاولت مباعدة مشفريها المشرشرين ففشلت، أعادت الكرة وهي تضغط بكل قوتها على طرف وتحاول أن تبعد الآخر حتى كادت تنجح لكن العواء القريب جعلها تلتفت فجأة لأعلى التبة فتعض أسنان الفخ ساق الألماني، يتأوه في ألم ممزوج بالخوف والرجاء، تلوي رأسها فيسقط قلبها بين ضلوعها للعينين الناريتين، وجمت وانسحبت الدماء من عروقها، تعرف مدى شراسة الذئاب الجائعة، تتلبّث هنيهة لتختبر قوة فريستها ومقدرتها على المقاومة وحين تتأكد من ضعفها لا تتردد وتهاجم في شراسة، عبارات الجندي الملتأثة أفاقته وهو يشير إلى البندقية، في سرعة ركض ذئب المنتصف يتبعه رفاقه فالتقطت البندقية وصوبتها نحو أقربهم وأطلقت النار فطاشت الرصاصة في الهواء؛ لكنها أعطتها فرصة فالذئاب توقفت قليلاً دون أن تبتعد، ثبتت البندقية جيداً وزرّت عينيها، حبست نفسها قبل أن تضغط على الزناد فانطلقت الرصاصة لينتثر الذئب بعد أن أصيب بين عينيها، يطلق عواء الألم ورفاقه يتراجعون، أعادت إطلاق الرصاص فأصابت آخر وفر الباقيان هاربين في الظلام، صدرها يعلو ويهبط ويكاد ينخلع من فرط الإثارة، ألقت بالبندقية وأعدت محاولة تخليص قدم هانز، استجمعت قوتها حتى نجحت في مباعدة الفكين الشرسين فسحب الألماني ساقه والألم يعصر قلبه، من سيالة الجلباب سحبت منديلها المبلول، مسحت الجراح المتساوية حول قدم الجندي، لفت حولها المنديل وربطته في قوة وهانز يعض شفته ويتمتم بكلماته غير المفهومة.

الصيحات القادمة هذه المرة لرجال فأدركت أن بقية فرقة الألمان تقترب بحثًا عن زميلهم،
تأرجح تفكيرها بأن تبقى ويروي لهم هانز شهادتها في إنقاذه من أنياب ذئاب غابة شاتو
وتخليص قدمه وبين الفرار بجلدها لكن تفكيرها السريع قادها أن في تلك الحالتين
سيعثرون عليها وقد يظنون أنها هاجمت رجلهم ويطلقون عليها النيران قبل أن يشرح لهم
هانز ما حدث، عضت شفثها وتفرست في وجه الجندي الذي أغمي عليه من فرط الألم، لا
تدري ماذا تصنع والأصوات تقترب فلم تجد بدءًا من تسلق الشجرة، في سرعة خمشت
أظافرها جذع الشجرة القوي، كقرد تسلقتها وأصابها تقبض على الفروع الندية، أخفت
نفسها بين الأوراق الكثيرة وانتظرت، ما هي إلا دقائق حتى استحالت البقعة إلى أنوار
والتف عشرة جنود أو أكثر حول زميلهم المغشي عليه، اقترب أحدهم وعدل وجهه، حادث
الآخرين وهو يشير إلى فخ الذئاب ثم يوجه ذراعه نحو جثث الذئاب المقتولة على قيد
أقدام منهم، تملل هانز وأفاق، قرب منه أحدهم زمزية مياه فشرب القليل وهو يحادثهم
بكلمات متقطعة، في سرعة فرد اثنان نقالة قماشية وحمله آخرا عليها، سار الجنود في
اللحظة التي باعدت منصوره الفروع المورقة عن وجهها فجحظت عينا هانز للشبح الغريب
يلبد بين الأغصان، لا تدري لِمَ لمحت ابتسامة خافتة ارتسمت على وجهه وكفه مفرودة
وهو بين رفاقه، ضوء مصابيحهم وكشافاتهم يختفي معهم والعتمة تطبق على المطرح،
بقيت ساكنة حتى راقبت ابتعاد الألمان تمامًا فأحاطت الجذع العالي بذراعيها والتقطت
أنفاسها وهي تفكر أن تبقى في مكمنها حتى الصباح خشية عودتهم، فقد يخبرهم هانز لكنه
لو أراد لما أطبق شفثيه وهو يراها قابعة أعلى الغصن.

في صعوبة ابتلعت ريقها وقررت فعلاً أن تبقى خشية عودة بقية الذئاب وهجومهم عليها،
شعرت بسخونة بولها الذي زخته لتريح نفسها من طول احتباسه، انزلقت القطرات مختلطة
بأصوات هسيس الأوراق المتحركة بفعل الرياح الخفيفة، أغمضت عينيها ولم تدر كيف
مرت الدقائق عليها، لكنها راضية عن صنيعها في إنقاذ الجندي المصاب ومتأكدة أنه لم
يخبر زملاءه ردًا لجميلها، امتكثت قرابة ثلث الساعة وفتحت عينيها وحملت في قوة، من
بين غبشة الظلام أبصرت من بعيد أنوارًا خشيت أن تكون لجنود ألمان لكن ما طمأنها أن

الأشجار انتهت عند تلك التخوم وما اهتز أمامها هو سور بعيد وشبح لبيت من طابقيين، في حذر تحسست قدمها الفروع اللينة نازلة من الشجرة، جرجرت ساقها مودعة الذئاب القتلى وتخشى أن يطبق فخ آخر على قدمها فلا تجد من يغيثها.

ظلت سائرة والسور يقترب منها رويداً، شعرت بروحها تتفتت من فرط الإرهاق وألم كتفها لكن الأمل يتوقد داخلها حين اقتربت أكثر من السور، جفلت قدمها لنباح الكلاب القوي، توقفت خشية أن يهاجمها أصحاب البيت، ظلت الكلاب تنبح دون أن يجري نحوها واحد منها، تجاوزت فتحة السور الخشبي القصير، الكلاب تزوم وتنبح في قوة فأسرعت نحو بناية مجاورة لبيت كبير، بابها مغلق، دفعته فاستجاب، مصابيح زيتية تنير المكان فميزت أنه حظيرة دواب فالبقرة نائمة هناك والخراف بدأت تمأى لاقتحامها مخدعها، انهارت على كومة من قش وإعصار من تعب لف روحها ورأسها يدور معه، من بين رموشها التي تقاوم التشابك لمحت اهتزاز ضوء يقترب منها وماسورة بندقية طويلة تمتد، الشبح الواقف أمامها لامرأة قصيرة وسمينة، ترفع المصباح نحو وجهها فلم تدر ما حدث بعد أن أغمضت عينيها للمرة الأخيرة وانسحبت روحها في قاع دوامة لم تدر قرارها.

فوهات المدافع اتجهت نحو فرق الألمان المهاجمين لباشنديل، تبادلوا إطلاق النيران لكن قاذفات اللهب الألمانية أشاعت الذعر بين الجنود الإنجليز والفرنسيين والكنديين ففروا هاربين من أمامها مما أعطى الفرصة الكاملة للجنود المدججين بالسلاح لمحاصرة بنايات الكامب وتكتيف إطلاق النيران عليها، انبطح ليمان أرضًا وهو يشير إلى جوليانا أن تفعل مثله، ظلا مختبئين حتى سقطت عليهما قنينة حديدية، أدرك العجوز أنها قنبلة فنهضا على الفور وجريا خارجين من المطبخ وعلى قيد أمتار دوى انفجار هائل وتناثرت الأخشاب المهشمة حولهما، زحف ليمان وخلفه جوليانا إلى أقرب جدار والرصاص يزن أعلى رأسيهما، رفع العجوز رأسه فرأى حظيرة إبل الهجانة البعيدة بمنأى عن الهجوم المباغت فأشار إلى جوليانا أن تنهض وتجري خلفه وهي محنية الظهر وعند الإشارة ركضا ومن حولهما الجنود في حالة هلع ويطلقون النيران بعشوائية، اقتحما الحظيرة فوجدت جوليانا الرجال محتمين بجمالهم وكل منهم يقبض على لجام فحله بعد أن قيدوا سيقانها؛ خشية هيجانها وليبقيها ملتصقة بالأرض فلا يصيبها الرصاص، في حجرة مربعة استحصن ليمان تجاوره ابنته المرتجفة من الرعب للموت المقترب منهم وللمعركة الحقيقية التي تشهدها عيناها والجنود يستमितون في صد العدوان.

- منصوره يا رجل؟

قالها قسم الله بصوت هامس مفعم بالرجاء والقلق فزاغت عينا ليمان فحقيقة لا يدري أين ذهبت منصوره أو احتتمت في ذروة المعركة التي لم يحسب لها أحد أي حساب.

- ربما موجودة في مكان.

أجابت جوليانا عن أبيها المذهول من هول الطلقات المتوالية وأصوات الانفجارات لا تتوقف فلم يجد قسم الله شيئًا غير الانتظار، قذيفة مدفع أصابت الجانب البعيد من

السقف فاشتعلت النيران في القش، بادر الهجانة والعمال بإطفاء الحريق فأمرهم قسم الله بعزل حزم القش التي لم تطلها النيران بعيدًا ثم أهالوا التراب المجبول بالماء فانطفأت النار مخلفة دخانًا كثيفًا، على أثره سعل العمال فجَدَّ قسم الله ومن معه في إخماد الرماد بدلق برميل الماء الخشبي، عاد إلى ليمان وجوليانا بزجاجة وقدمها فشربت جوليانا القليل لكن ليمان أشاح بوجهه وهو يشعل غليونه في عصبية، توغل الليل وبدأت الطلقات والرد عليها يتباعد، طقطقات على السقف فأيقن أن الأمطار تهطل من جديد لكنها توقفت بعد فترة قصيرة وعلت أصوات بين الجنود خارج الحظيرة تعلن انسحاب المهاجمين، لكن الرصاص لا يزال يعزف لحن الموت واخترق صدور ورءوس أي قامة منتصبه.

آثر ليمان البقاء بين العمال وانقضت ساعة تلو الأخرى وأدركوا أن المواجهة انتقلت إلى خارج الكامب وربما يحتد القتال في منطقة الخنادق البعيدة، باتوا ليلتهم في قلق ما بعده قلق حتى انقضى الهزيع الأخير من الليل، برغم الروائح الممزوجة بدخان الاحتراق والرصاص فإن شقشقة العصافير تنبئ بحلول نهار آخر لا يدرون ماذا ستكون أحداثه، في حذر أطلَّ قسم الله ودارت عيناه على الكامب وبقية الجنود المفزوعين من توقُّع كر الألمان عليهم والمجهدين من السهر وإطلاق الرصاص ومن فوق كل ذلك الموت الذي حصد زملاءهم، خرج فتبعه غيره ومن الخلف دبت خطوات ليمان وجوليانا التي تحجرت الدموع في عينيها فالمطبخ تحوّل إلى نثارات من الخشب والكامب كله في حالة فوضى عارمة ولم ينبج من قصف المدافع غير مبانٍ قليلة منها حظيرة الهجانة والعمال.

الجنود يتفحصون الأنقاض واتجه قسم الله مع غيره إلى بقايا غرفة الكولونيل سميث، رفعوا الألواح الخشبية والأحجار ومكتب القائد المدمّر، ظهر حذاؤه المميز فاجتهدوا في رفع الأنقاض من عليه، وجدوه منكفئًا على وجهه، تجاسرت الأيدي في عدله وانكبَّ أحدهم لفحص جثته وتبيّن أنه تلقى عدة رصاصات في صدره، على محفة خشبية نقلوه إلى وسط الكامب، لم يفكر أي منهم في طعام أو شراب فألقى معظمهم سلاحه وبمعاونة العمال شرعوا في لملمة البقايا والأشلاء والأجساد المتفحمة، دائرة الوسط هي مركز جمع الجثث وقسم الله الذي فقد الأمل في أن تكون منصوره على قيد الحياة يدقق النظر في

الأجساد والوجوه الشائهة التي يعلوها الصفار ويتفحص الجثث المحترقة وحين أشارت جوليانا في رعب نحو إحدى الجثث ترتدي جلباباً ونصفها مختبئ أسفل الأحجار المتكومة، وجد قسم الله مشقة في رفعها، سحب الجثة وهو يتهياً لوجه منصوره لكنه فغر فاه حين رأى وجه العامل سيف فحملة على كتفه ومضى به إلى وسط الكامب، انقضى النهار والجنود يجمعون الأجساد التي غادرها بريق الحياة وتشوهت جثثهم وجوليانا تسأل الجنود عن منصوره وتصفها لهم ومن حين لآخر تنقبض معدتها الخاوية وتتجشأ من فرط مشاهدة الأمعاء المدلاة من البطون المبقورة بفعل الشظايا والجثث التي تفوح منها روائح الاحتراق، أشار أحد الجنود إلى جثة فهول إليها قسم الله وجفلت قدماه لكن جوليانا أشاحت برأسها وهي تشير إلى الخوذة على الرأس المحروق والحذاء المميز للجنود ولم تلبث أن تضع المنديل على فمها وينقلب جوفها، الجثث ملقاة في كل مكان فخطت في سرعة نحو بقية المطبخ وأبوها يربت على البغليين الناجيين من الموت، حضنتهما جوليانا وهي تبكي في حرقه فإلى هذه اللحظة لا تصدق نفسها أنها على قيد الحياة وتملاً صدرها بالهواء المضمخ برائحة الموت.

لم ييأس قسم الله وبقي يتطلع إلى ملابس الميتين المملوطة بالسخام حتى قرر الذهاب إلى حيث يقف الطباخ وابنته فهما الوحيدان اللذان يبحثان معه عن منصوره، حضر أحد الجنود وألقى تحيته إلى القائد موريس، ترجمت جوليانا الواقعة جوار أبيها ما يقول:

- جمعنا كل الجثث التي بالساحة وبقي الجنود الميتون في الطريق من هنا إلى الخنادق.

رفع قسم الله حاجبيه للعبارة التي تؤكد له أنه يوجد آخرون في البراح بين الكامب والخنادق فشك أن منصوره ربما أصابها الذعر وجرت بعيداً عن البنايات، التفت إلى جوليانا ودون اتفاق سارا متجولين لكن ليما استوقفهما حين قدمت سيارة تحمل في صندوقها الكبير الخبز فعادت جوليانا لتوزيعه على بقية الجنود وحمل قسم الله نصيب العمال ووزعه عليهم في عجاله، مالت الشمس نحو الغرب فخطا قسم الله في سرعة تتبعه جوليانا، عربتان للنقل تسيران في بطء وكلما وجد الجنود جثة حملوها على العربة الأولى والثانية لحمل المصابين القلائل فالقتلى هم الغالبية العظمى فتعود بهم السيارة إلى الكامب وتفرغ حمولتها ثم ترجع لجمع الباقين، قاومت جوليانا رغبة جامحة في التقيؤ، عشرات القتلى بين الوحول تفر الجردان من حولهم حين يسحبهم رفاقهم وآخرون متكومون في الخنادق، أما قسم الله فكان شغله الشاغل التحديق في الملابس والوجوه لعله يظفر بمنصورة بين تلك الجثث الكثيرة التي لطخها الطين.

من بعيد تراصت المدافع الإنجليزية والجنود يقحمون الطلقات الكبيرة في مؤخراتها، حين تنطلق الدانات يرتد المدفع للخلف في حركة خاطفة ويرتج المكان بفعل الطلقة التي تصفر وتنصب على الموقع البعيد فتفجره، ظلت المدافع تطارد فلول الألمان والجنود ينقلون الموتى والجرحى حتى خيم الظلام على الخنادق، وفقد قسم الله الأمل في العثور على منصوره، العتمة أطبقت تماماً على الساحة فأمر القائد جنوده بالعودة إلى الكامب وترك بقية الجثث لجمعها في الصباح، استداروا عائدين دون أن يلتفتوا إلى نداءات غيرهم المستغيثة التي صمت أذني قسم الله وقلبه يعتصره الحزن لأنه يعجز عن العودة لإنقاذهم تنفيذاً للأوامر.

- "هيلب، كم أون، أيام هير، هيلب، هيلب مي..." -

فرد قسم الله يديه على أذنيه وركض بكل ما يملك من قوة نحو الكامب تتبعه جوليانا التي أدركت ما يقاسيه الجمال ذو القلب الرحيم، عاد إلى الحوش فألقى بنفسه على سرير القش وخذ مغرق بالدموع، لا تزال استغاثات الجنود تتردد في ذاكرته وهو يسأل نفسه: لماذا يكون تنفيذ الأمر أهم من إنقاذ روح إنسان قد نجده في الغد ميتًا وكان يمكن إنقاذه؟!

لم يُطلق بوق الصباح ولم يبال أحد بإيقاظ الجنود أو العمال فالكامب في حالة مؤسفة ولا هم للجنود المنكدين غير جمع الجثث ونقل الجرحى في الجانب الآخر، أمضى بعضهم الليل في نصب الخيام الكبيرة ومع ضوء الصباح الخجول أقبلت الممرضات والأطباء لمداواة الجرحى والمصابين ومن حين لآخر يشير أحد الأطباء إلى الجنود فيحملون واحدًا من زملائهم لم تجد محاولتهم في إسعافه ففارقته الحياة، اطمأن قسم الله على عماله وجمالته وفحولهم تجتر في سكون وأمرهم بالأى يغادروا ملاذهم مهما يكن لحين عودته، سار إلى حيث يحاول ليमान إصلاح عربته، هم أن يلتمس منه طلبًا لكن صوت البوق يعلو فعاد أدراجه إلى الحظيرة، خرج العمال جميعهم جوار الجنود من جنوب باشنديل، بطريقة حازمة تكلم القائد جوستاف في سرعة فترجمت جوليانا أوامره الجديدة:

- لا مغادرة للمعسكر إلا بعد دفن الموتى وعلى العمال البدء من الآن في حفر القبور وإصلاح ما يمكن من بنايات الكامب.

ضاق صدر قسم الله من الأمر الذي سيضيّع عليه فرصة مواصلة البحث عن منصوره، ترددت بين حنايا صدره توصية كامل بها ووعدده حين دفن غلاب أن يحفظها لكنه استسلم للأمر وانشغل مع عماله في حفر الشقوق الطولية بمنطقة المقابر وبدأوا بمواراة الكولونيل سميث فعلا دقّ الطبول وزعقت المزامير له في أنغام حزينة بعدها انشغل الجند في دفن رفاقهم، انقضت الأيام التالية والعمال جادون في إعادة بناء العنابر حتى كان صباح أحد الأيام فاستأذن قسم الله ليमान في استعارة أحد البغلين للتجول بعيدًا حول باشنديل.

- وجملك؟

- العُتَاب حركته ثقيلة غير أن الأرض موحولة والبغل أسرع.

- اختر منهما ما تريد وعد به إليّ سريعًا فقد نرحل في أي وقت.

- أمرك يا عم ليّمان.

جهّز قسم الله أحد البغليين وجره من لجامه وحين امتطى سهوته التفت إلى الخلف فوجد جوليّانا تسرع إليه بالآخر ومن خلفها ليّمان يشير إليها ويرفع صوته موصيًا:

- لا تتأخرا وارجعا قبل الليل.

خيظ رفيع بين الوعي وعدمه هو ما جعل غيوم إغمائها تتبدد، تناقلت أجفانها فعجزت عن تباعدهما، أصوات متداخلة تتذبذب، خدها يتوسد أعوادًا استشعرت سخونتها وملمسها الخشن يحتك فيؤلم جلدها، اتسعت دائرة إدراكها حين زكمت أنفها روائح روث البهائم، العبارات السريعة تقترب فتهيأت لتقطع هذا الخيط وتتضح لها حقيقة ما هي فيه فانفرجت رموشها، اهتزت العروق والألواح الخشبية الواطئة لسقف الحظيرة، لا تدري من ماضيها القريب غير أنها كانت تهرب، تجري، تتعد، تتخبط بجذوع الأشجار هاربة وذئاب تعوي في عتمة ليلة أمحق قمرها ثم لجأت إلى تلك الحظيرة، نباح الكلاب نفض عن نفسها أي أثر لمحاولة إغماض عينيها مرة أخرى، محاولتها للنهوض باءت بالنجاح فالتفتت إلى تلك العجوز السمينة التي تدب بقدميها الثقيلتين يجاورها رجل قعيد يقترب على كرسي ذي عجلتين خشبيتين كبيرتين، ربضا أمامها فخفق قلبها في شدة، حرّكت ذراعها فشعرت بألم جرحها، استحلبت ريقها الناشف، تحسّست أسفل إبطها فحفظت عيناها لفقدانها المسدس، مرّت لحظة فانجلت رويدًا أحداث ليلتها الفائتة، السيدة ذات الشعر الأشيب بوجهها اللحيم تتفحصها صامتة ومن حين لآخر تلتفت إلى الرجل الجالس على الكرسي فرأت منصوره أنه يشبهها بلغده النازل وصلعته التي انحسر الشعر عنها.

السيدة تتسع شفتها بابتسامة مريبة كشفت عن اصطفاف أسنانها، الطيبة تنضح من وجهها المستدير والغمازتان بخديها زادتهما جمالاً، الرجل يثبت على عينيها نظارة ذات سلسلة، أصابعه تقبض على عجلتي كرسيه، يحركهما للأمام فتراجعت منصوره بظهرها إلى الخلف، بيدها أشارت السيدة إلى نفسها وخرجت حروفها الرفيعة مخالفة لجسمها السمين:

- صوفيا، توماس.

دارت نظرة منصوره مع يد السيدة المشيرة إلى الرجل وعيناه تتأملانها من أسفل النظارة التي انفصلت فجأة عن وجهه فحملتها السلسلة الرفيعة، أدركت منصوره أن السيدة تقدّم نفسها ورجلها الذي لا يقل عنها سمته وهو ملتزم بالجلوس على كرسيه المتحرك فهزت رأسها ولم يفارقها تقطيب حاجبيها، بدورها أشارت إلى صدرها في ارتباك:

- منصوره.

تداخلت عبارات العجوزين بين: مكسورة، سورة.. ففهمت أنهما يحاولان نطق اسمها، صمتا ومدّت العجوز يدها إلى الدماء المتلذجة على جلبابها، اقتربت منها أكثر فأبعدت وجهها فاردة كفها على أنفها تعبيرًا عن رائحة منصوره ثم أشارت لها أن تنهض فلم تجد بدا من الوقوف، تأملا هيأتها الغربية عليهما وتبادلا كلمات سريعة أنهتها صوفيا بأن مدّت يدها إلى منصوره وهي تومئ برأسها مطمئنة إياها، سحبتها خارج الحظيرة والعجوز توماس يدير عجلتي كرسيه بصعوبة خلفهما، في منتصف الممر الفاصل بين الحظيرة والبيت انتصبت سيقان الكلاب المربوطة بسلسلة بجانب الباب ونبحت في حماس للغريب القادم مع سيدتها، حادثتهم صوفيا فهدأ كلبان أما الثالث فواصل رفضه لذلك الغريب ذي الرائحة التي استنكرها الجميع، فتحت صوفيا باب البيت فترددت منصوره في الدخول لكنها خطت إلى صالة أنيقة مرتبة المقاعد، دعته صوفيا إلى الجلوس على أقربها وتركتها متجهة إلى باب جانبي صغير، قبالتها أوقف توماس مقعده، رطن بكلمات ممطوطة ميّزت منصوره أنها فرنسية لكنها ليست كالتى تتحدّث بها جوليانا أو ليان.

حاولت استدعاء أي كلمات أو عبارات كانت ترددها مع جوليانا لكن حصيلتها ضاعت في غياهب ذاكرتها المتورمة بوقعات الساعات الفائتة، همّت أن تتواصل معه بحركة قد يفهم منها ما تريد، لاعبت يديها وهي تشير إلى بعيد، قاطعها ديبب خطوات صوفيا الثقيلة وأشارت لها أن تنهض، قادتها نحو باب قصير وفردت كفها نحو حوض كبير في آخر الغرفة مملوء بالماء وإلى ملابس معلقة بمشجب أعلى الجدار، لا تحتاج منصوره إلى شرح ما تريده السيدة فهزت رأسها وأغلقت خلفها الباب، خلعت جلبابها الطيني وألقته في صندوق

آخر من الخشب، تخلصت من قميصها الداخلي وتعرّت تمامًا، تحسّست شج كتفها، مالت برأسها أكثر فرأته بمقدار إصبع، خطت نحو الحوض، غاصت يدها في الماء الفاتر، لأول مرة ترى ذلك الطست الكبير المملوء بالماء والمثبّت في الحائط، تلوّت أوعاؤها فجأة فدارت بعينها باحثة عن فتحة الكنيف فلم تجدها، همّت بارتداء جلبابها والخروج للسؤال عن محل قضاء الحاجة ثم تستحم لكنها رأته، أبصرت فتحة مبنية على هيئة عمود يرتفع عن الأرض قرابة نصف المتر، جوارها إناء به ماء وآخر صغير يشبه القعب الفخاري، أدركت أنها فتحة الكنيف ومصنوعة بهذا الشكل لتناسب العجوز المشلول، تقلّصت أوعاؤها طاردة فضلات ليلة لن تنمحي من ذاكرتها طوال ما في صدرها نفس يتردد، قضت حاجتها وغسلت يديها، لم تضيّع الوقت فمدّدت جسمها في الحوض الكبير، استعذبت سخونة الماء الهادئة، طففت تدلك كل شبر وبرفق تنظف جرح كتفها، رغوات الصابون أزالّت وساخة شعرها المشعّث، أعاد الحموم الحياة إليها فانتعشت وظلت تمسح قوامها وساقبها وبماعون صغير تسكب الماء على شعرها حتى استفاقت تمامًا، نهضت متخطية سور الحوض، سحبت المنشفة ومررتها على جسمها، بين يديها عبثت بالملابس النظيفة فارتدت السروال القصير، حمالة الصدر احتوت ثدييها الضامرين، ارتدت قميصًا طويلًا وأخيرًا جاء دور الجلباب فتأملت نقوشه الزاهية وتفصيلته الغربية، تذكرت أنها رأّت الفتيات يرتدين مثله في شوارع ليون ومرسيليا وعندما زارت برج باريس، وضعت الفوطة على رأسها وخرجت منتعلة الشبشب.

رفعت العجوز حاجبيها وزمّت شفّتيها ثم بسطتهما في فرح، مدّت لها مشطًا فمررته منصورًا على شعرها القصير، صففته ثم وضعت عليه الطاقية الصوف، اقتربت صوفيا منها ورفعت ياقة الجلباب، رجّت زجاجة صغيرة وسكبت على قطعة قماش نظيفة سائلًا ذا رائحة نفاذة ميزتها منصورًا على الفور أنه مطهر، كشفت عن كتفها أكثر فثبتت صوفيا قماش المطهر على الجرح، عضت شفّتها للحرقة التي شعرت بها أول الأمر ثم زالت بعد لحظات مخلفة وراءها ابتعاد جرحها بعض الشيء، جلست قبالة العجوزين وبينهما منضدة أشارت العجوز بيدها فزامت معدة منصورًا للخبز الساخن ذي الرائحة المشتهاة جواره أطباق بها جبن وعسل وزبد وأكواب من اللبن، مد توماس يده وتناول رغيفًا فقدمه لها

مشجعاً وصوفياً تحادثها وهي تشير أكثر من مرة للطعام، لم تتردد منصوره فزغردت معدتها لأول لقمة زارتها منذ ساعات طويلة، تناولت طعامها في شهية مفتوحة ومن حين لآخر تشير إلى نفسها وتحاول إفهام العجوزين ما تريد:

- اسمي هو منصوره، من مصر، أتكلم العربية، أعمل مع العمال في الجيش.

لم تبال بعدم فهم العجوزين الكريمين لما تقول واستعاضت عن ذلك كله بلغة الإشارات التي تمرنت عليها حين كانت تتفاهم مع الإنجليز أو الفرنسيين منذ أن فارقت بورسعيد، ذقت أحلى لبن محلّى بعسل النحل الذي ميزت طعمه بسهولة كعسل الشيخ محسون فقد كان لديه منحل من الخلايا الطينية خلف داره بني عيش ويجني منها العسل ويهادي به المقربين منه ويستخدمه في مداواة الجروح وأحياناً كان يخلطه بالكثير من الأعشاب التي تشفي من المغص وغيرها من الآلام الطارئة.

ركنت الكوب الفارغ وشربت الماء، أرادت أن تتكلم لكن صوفياً أشارت لها أن تسكت ونهضت أمامها مفسحة لها الطريق نحو غرفة جانبية، فتحت لها الباب فدخلت، أشارت العجوز إلى السرير فأدركت أن السيدة تريد منها أن تريح جسمها، تمددت وغطتها بملاءة تفوح منها رائحة النظافة، أغلقت خلفها الباب فاطمأنت روحها للأمان الذي تعيشه مع هذين الزوجين البارين فأغمضت عينيها ومع امتلاء جوفها ورائحة الحموم العالقة بأنفها استجابت للنوم سريعاً فلم تبال متى تستيقظ.

حفرة مملوءة بوحل مضمخ بروائح عفنة يسحبها إلى جوف طين لا متناهٍ، لا توجد أرض يمكن أن تستقر عليها قدمها، حين رفعت ذراعيها مدت الذئاب الرمادية رقابها وعيونها الحمراء تطق شرراً ومن بين نيوبها الحادة يتقطر لعابها في شراسة، طلقات الرصاص تنوالى فتفر الذئاب وعواؤها يبتعد، تشعر بصخرة صلبة تستقر تحت رجليها، جملٌ أبيض

يقترّب، يمدّ عنقه فتقبّض بأصابعها على لجامه، يسحبها وهي مغمضة العينين وحين تمددت على الأرض فتحتهما فرفعت عينيها اللتين ذهلتا لرقبة الجمل المرتفعة وقسم الله أعلى سنامه يمدّ يده لينهضها، عادت الذئب تعوي فالتفتت إلى الخلف وحين اعتدلت لم تجد الجمل، غصّة تكاد تخنق روحها لذهاب قسم الله، أصوات متلاغطة لا تعي منها كلمة، رويدًا رويدًا تنقشع سحب حلمها وتبقى الأصوات المتداخلة، في سرعة تدرك مكانها، تمد نظراتها نحو الباب الموارب، رأت صوفيا تحاول أن تحمل زوجها توماس إلى الأريكة العريضة والرجل بدوره يجاهد لمساعدتها وجسمه السمين يحول دون نجاح محاولاتها، انتشرت من على السرير، نحوهما خطت حافية، بذراعيها أحاطت ظهر توماس وحين همّت برفعه شعرت بثقله والرجل بدوره عاونهما ونهض معهما جالسًا على الأريكة المنجدة، زفر نفسًا ممطوطًا وأراح رأسه إلى الوراء، التفتت إلى صوفيا التي تتكلم وهي تشير إلى الكرسي الخشبي الملقى فأدركت منصوره أن الكرسي انقلب وتوماس وقع على الأرض، فحصته، لوحان من الظهر انفلقا وجزء من العجلة الخشبية الكبيرة انكسر أما ألواح المقعد فقد حمتها الشلثة المصنوعة من الصوف، لاعبت منصوره بيديها كأنها تطرق شيئًا وهي تردد:

- أريد شاكوشا ومسامير.

على الفور فهمت صوفيا ما تريده منصوره فغابت لحظات وعادت بصندوق خشبي فتحتته على الفور فاتسعت عينا منصوره للعدة التي به، سحبت يد الشاكوش الخشبي وكيسا به مسامير، استصلحت عودين من الخشب وثبتتهما مكانهما بالمسامير، تحسّست العجلة وهزت رأسها، بمهارة متوارثة أصلحتها بل وجربت إدارتها أمام توماس المبتسم وصوفيا المندهشة من سرعة إصلاح الكرسي غير المتوقعة، حادثتها وكأنها تريد أن تقول لها: كنت سأستدعي نجارًا لإصلاحه.

تأرجحت نظرات منصوره بينهما وهي مبسوطة وابتسمت لهما، خطت صوفيا نحو الباب فتبعتها منصوره، توجهتا نحو حظيرة المواشي، توقفت وهي تشم الهواء الرائق وتطوف

بنظراتها نحو البراح، من بعيد تبصر الحقول الملتوية وسورًا آخر وبيتًا تجاوره حظيرة،
لوت رأسها وفتحت عينيها عن آخرهما لأشجار الغابة البعيدة التي لا تكاد تبين حوافها في
شمس الصباح الفتية، دخلت الحوش فرأت صوفيا تقعد أسفل البقرة، بكفها ضربت ضرعها
وحلبتها في هدوء، زمت منصوره شفيتها ولا تدري لِمَ غاض سرورها حين استعادت حلمها
وأدركت أنها ابتعدت عن كامب باشنديل، داخلها تصميم على العودة بعد أن يشفى جرح
كتفها وتطلب من صوفيا أن تدلها على الطريق أو تستعين بأحد جيرانها من المزارع
البعيدة، حملت منصوره إناء اللبن، عاوتها في إعداد الإفطار، أكلت معهما وشربت اللبن
وهذه المرة صبّت صوفيا الشاي ففرحت به منصوره أيما فرح، أنهت إفطارها وأشارت إلى
صندوق عُدّة النجارة فحملته وسارت نحو الحظيرة، طفقت تصلح الألواح المنفلقة عن
مواضعها وتدق المسامير في مسافات مناسبة، اتسعت عينا صوفيا حين مدت منصوره
لوحين طويلين وثبتت عدة ألواح به وانهمكت في دق المسامير فصنعت سورًا قصيرًا
ثبته في الجدار ودقته بالمسامير الكبيرة، جمعت داخله القش الكثير وكنست بقيته فبدت
الحظيرة نظيفة واتسعت المسافة بين مخزن القش والبقرة وحظيرة الخراف.

إحدى مفصلات الباب تخلعت مساميرها فأعادتها منصوره وأضافت عليها مفصلة أخرى
زادت من إحكام إغلاق الباب مما جعل صوفيا تربت على كتفها وتضع يدها على قلبها وهي
تحدثها بهدوء شعرت خلالها منصوره بمحبة السيدة الخالصة، ثغاء الخروف دفع صوفيا
لأن تلتفت في حدة ثم رفعت رأسها إلى السقف فرأت بوز الثعلب يمتد ولم يلبث أن اختفى
هاربًا حين بصت عليه العيون مرة واحدة، في همّة عالية حملت منصوره السلم الخشبي
المركون جوار الجدار فأقامته نحو السطح، صعدت وبين يديها عدة أخشاب، ثبتت اللوح
تلو الآخر ودقت المسامير في مهارة حتى غطت الفتحة تمامًا، نزلت فاستقبلتها صوفيا
بابتسامة طفرت من بين قسما وجهها المنتفخ، صفقت العجوز لها وقوست ذراعها
الممتلئة حول وسطها ورافقتها إلى البيت وهي تحدثها، مدّ توماس الجالس قبالة النافذة
يده مسلّمًا في امتنان لكن منصوره لا ترى أي شكر على ما فعلت فإنها ترد لهما الجميل بأقل
منه وتتمنى أن تسدي لهما خدمات أكثر وأكثر قبل مغادرتها المزرعة.

كعادة ورثتها من أبيها حددت مجموعة من الأعمال التي ستنجزها ما دامت تقيم مع العجوزين الوحيدين قد تغنيهما عن جهد كبير واستعانتهما بعمال غرباء، في قرارة نفسها صممت ألا تضيع الوقت فقد تغادرهما في أي لحظة فبدأت من اليوم، تارة أخرى خرجت من البيت، أشارت إلى مكان باب السور الخشبي للمزرعة غير الموجود فأشارت فوجهتها صوفيا إلى عدة ألواح طويلة مهلهلة وملقاة على الأرض، حملت صندوق النجارة وصنعت لنفسها مقياسًا لتحديد أطوال الألواح، بالمنشار ساوت ألواحًا أخرى، أمضت ساعاتٍ في إعادة تركيب الباب وفي النهاية صنعت له مزلاجًا قويًا، مسحت عرقها وعادت إلى البيت وهي تشعر بحرارة جسمها من العمل المتواصل، حين دلفت وجدت صوفيا ترص أطباق الحساء وتقطع أنصاف الفراخ المسلوقة، غسلت منصوره يديها وجلست وسطهما تأكل ومن حين لآخر يحادثها توماس وهو يربت على كتفها ويطل من النافذة على باب السور فيغمرها بنظرات الإعجاب لما فعلته.

يومان آخران مرا ومنصورة لم تتوان في خدمة العجوزين الودودين دون أن يطلب أحدهما منها عملاً محددًا، بمقص كبير جرت صوف الخروف والنعجة وغسلته بالماء ونشرته على السور وحين يبس جمعته في كيس كبير، نظفت أسفل البقرة وصنعت من الروث أقراص الجلة، أصلحت شرخًا في جدار البيت الخلفي، من أخشاب قديمة حذت حذو أبيها فصنعت أربعة صناديق استخدمتها صوفيا في تخزين الحبوب وطعام الفراخ، ركبت ساقًا أخرى للكعبة التي بالصالة، في ركن قصي بالمزرعة رأّت عربة تشبه عربة ليमान لكن عجلتها الكبيرة مكسورة فنظفتها وفحصت عطبها، أمضت وقتًا طويلًا في تثبيتها مكانها وإصلاح حافة العربة القصيرة، دفعتها أمامهما فسارت، حضنتها صوفيا بقوة فشعرت منصوره بصدر أمها الذي حُرمت منه صغيرة واجتاحتها أمنية عظيمة أن تعرف لغتها وتفهم ما يقولانه، ليلتها أثناء احتساء الشاي بعد العشاء أشارت لهما منصوره إلى أنها تريد أن تغادر المزرعة إلى الكامب، تبادل توماس وصوفيا النظرات في وجوم لكن الرجل المتفهم هزّ رأسه وهو يومئ لها بالموافقة وكأنه يقول لها أن هذا شيء لا بد منه فتهيأت لقضاء الليلة والاستعداد التام للمغادرة عند سطوع شمس النهار.

صباحًا فوجئت بما لم يكن في حسابها، دون سابق إنذار هطلت الأمطار في منتصف الليل وزادت شدتها أول النهار، حين توقفت خرجت صوفيا للاطمئنان على حظيرتها فوجدت منصوره برك الطين تملأ المدى الفسيح أمامها، أطبقت شفيتها في خضوع ودار في نفسها ما واجهته من محنة الأوحال التي امتلأت بها الغابة، خشيت أن تكون رحلة عودتها إلى الكامب في تلك الظروف شبه مستحيلة، تلبّسها رعب ذئاب الغابة التي سمعت عواءها في الليلة الفائتة فقررت أن تستجيب لرغبة صوفيا وتوماس وتمكث معهما لحين توقف المطر نهائيًا وتنشف الأرض ودعت منصوره ربهًا أن يهين لها أحدًا يكون سائرًا في نفس اتجاه كامب باشنديل فيصطحبها معه في طريقه.

لحظت منصوره تدفق الماء من الأرض العالفة إلى المزرعة الرابضة أسفل التل فغفرت ملابسها بأخرى قديمة وبالمجرفة حفرت مجاري ضفقة بين البرك المتناثرة فخرت المياه نحو الأسفل وفي غضون ساعة فارقت المياه المتسخة بأحة المزرعة، التفتت إلى كومة كبيرة من الأحجار وقوالب الطوب فتفجرت في نفسها رغبة أن تستخدمها في بناء جدار قصير حول سور المزرعة الخشبي قدرت أن يكون ارتفاعه مترًا أو أقل، بعد أن اغتسلت من أثر السخام وغيرةت جلبابها، تناولت الغداء واجتهدت في تمثيل ما تريد أمام صوفيا وأجادت التعبير عن قدرتها في بناء هذا الجدار فهزّ توماس رأسه وحكّ صلعته وهو يشير إليها إشارات حانية ففهمت أنه يشفق عليها من التعب.

- لا عليك أبي الحنون وأمي الغالفة.

بصوت عالٍ قالتها منصوره واشتدت أمنيتها أن يفهما كلماتها، أتاحت لنفسها وقتًا للراحة وقرب ميل الشمس استصلحت نقرة متوسطة ونقلت إليها الطين والتراب الناشف من داخل الحظيرة وخلطت عليهما أكياس الروث، أفرغت كيسًا آخر من التبن وهمت في عجنها حتى صنعت منها حفرة مملوءة بالطين المجبول بما يقويه، حول الألواح الخشبية حفرت قرابة شبرين لكن العتمة حلت وزادها رهبة التحاف غابة شاتو البعيدة بدثاراات الظلام فغسلت يديها وبلغ بها الإرهاق مبلغه ففضلت النوم استعدادًا لعملها الكثير.

السماء الصافية أقلعت تمامًا عن إنزال المطر وبدت الشمس في شبابها الصباحي فتية ترسل بشائر أشعتها في قوة، وقفت تلتقط أنفاسها وهي تتأمل القدم الأولى من السور المرتفع عن الأرض، استحسنه وضع الأحجار غير المستصلحة في الصفوف الأولى التي ردمتها فور بنائها، التفتت إلى العجوزين الجالسين وصوفيا ترتسم على قسماات وجهها فرحة لا توصف، استمرت منصوره في عملها بعد الغداء إلى أن انتهت من بناء جدار

بارتفاع المتر تقريبا على طول السور الخشبي من الداخل وانقضى النهار فسكبت جرادل الماء في حفرة الطين حتى لا تنشف.

في اليوم التالي فور استيقاظها مبكرًا، لم تجد صوفيا في الصالة ووجدت البيض المسلوق والجبن والخبز وإناء الشاي على المنضدة، تناولت إفطارها ومع أول رشفة للشاي سمعت أصواتا تكسر في الخارج، خرجت من فورها ذهلت لصوفيا وهي تحمل الأحجار وقوالب الطوب على العربة وتنقلها، في سرعة ركنت منصوره الكوب، أشارت للسيدة التي بدا عليها التعب أن تتوقف فاكثفت بما نقلته منذ أن صحت قبل بزوغ الشمس، أكملت منصوره نقل الطوب وشرعت في البناء فلم ينقض نهار اليوم حتى علا الجدار الخارجي فأمسى سور المزرعة بأكمله قويًا لا يهزه الهواء ولن تخترقه مياه الأمطار التي ستتدفق نحو الأسفل في مجاريها المجاورة للسور.

تناولت الماعون من بين كفي صوفيا، خطت نحو الحظيرة لتحلب البقرة، ربتت على فخذها، على كرسي خشبي قصير قعدت ونظفت حلقات الضرع وشرعت تعتصرها في حنو واللبن يصدر صوتًا حين يصطدم بقعر الإناء.

حممة خيول تقترب مختلطة بموتور عربة يتوقف، حملت الماعون وركنته بعيدًا عن سيقان البقرة، أطلت فاقشعرَ بدنها للجنود المقتحمين باب المزرعة شاهري البنادق، من ملابسهم المختلفة ميّزت أنهم ألما فارتجفت أوصالها لقائدهم الذي يحادث صوفيا في كلمات سريعة أمرة ويقتحم خلفه خمسة جنود البيت، أجبرت على البقاء داخل الحظيرة والكلاب المربوطة بالسلاسل نباحها متواصل، ابتعدت عن الباب حين اقترب جنديان لتفتيش الحظيرة فأيقنت أنهم يبحثون عن إنجليز أو فرنسيين، أمسكت ماعون اللبن وأسنانها تصطك حين صوّب أحد الجنود البندقية أمامها وهو يرطن بكلماتٍ سريعة، أشار له رفيقه أن يفحص جنبات الحظيرة فابتعد قيد خطوات وهو يتلقت، عاد الجندي في سرعة وبأصابعه قبض على كتفها فكزت أسنانها لألم جرحها الذي نكأته قبضة الألماني وهو يُنهضها ليقودها خارجًا، الآخر الطويل يرطن بكلمات قليلة فتراخت قبضة زميله وتركها

مؤديًا تحيته العسكرية وهو يبتعد قيد خطوات ثم غادر المطرح، أطال الجندي الواقف أمامها النظر في وجهها وعلا حاجبه ومط شفتيه، دسّ يده في جيب سرواله وأخرج منديلاً، رفعه أمام وجه منصوره ففغرت فاها واحتبس صوتها لسحنة الجندي الألماني هانز المائل أمامها، بدا لها أجمل مما رأته وقت مطاردتها بين أشجار غابة شاتو حتى تصيده فخ الذئاب، ركنت ماعون اللبن وبأصابع مرتعشة تناولت المنديل، هز هانز رأسه وانتترت عبارته قبل أن يتراجع خطوتين ويستدير مغادراً، ومنصورة لا تصدق المصادفة الجامحة التي لم تخطر لها على بال، لملم الجنود أنفسهم وامتنطوا صهوات خيولهم وركبوا العربة مبتعدين عن مزرعة توماس نحو الجنوب، فردت منصوره كفها على قلبها الذي شعرت أنه توقف عن الخفقان، التقطت أنفاسها وحملت ماعون اللبن وخطت نحو صوفيا بوجهها المخطوف وحاجبيها المقرونيين وتوماس انقبضت قسماات وجهه من شدة الجزع.

انقضت الساعة والعجوز لا تكف عن تبادل الحوار مع زوجها وهو يرد عليها بعبارات مقتضبة حتى هدأت قليلاً وأغلقت باب السور الخشبي، أيقنت منصوره من ثرثرتهما التي لم تفهم منه كلمة أن تفتيش الألمان لم يكن المرة الأولى وحمدت ربها أن الألماني هانز ربما يكون قائداً لتلك الفرقة، ذكر لها إنقاذها له من فخ الذئاب التي كادت تفترسه وسط أشجار غابة شاتو وأنه احتفظ بمنديلهما الذي لفته على جرح قدمه وأعادته إليها هنا في الحظيرة وقد يكون أفهم جنوده أنها مجرد خادمة في المزرعة وقادهم لمغادرتها في سرعة.

على مفرش مدبوغ من جلود الخراف جلست وظهرها يسنده جدار البيت، بكفها مسحت صوف الجلد وارتسمت ابتسامه خفيفة حين تذكرت الجدة كرمه وبراعتها في دبغ جلد الماعز؛ فتصنع منه ومن غيره أبسطه تفرشها بأرضية منظره الضيوف ومنها ما تنظفه من الشعر تماما وتستخدمه كقربة تملأها باللبن أو تبيعها إلى سقاء بني عيش فيحمل فيها الماء من البئر إلى البيوت، أفاقتها صوفيا وهي تقدّم لها طبق حلوى وتوماس يضيق بجلسته

على كرسيه المتحرك ويشير إلى زوجته أن يفارقه ويشاركهما القعود على المفروش الدافئ، تنهض منصوره من فورها وبمعاونة صوفيا تحملانه وبرفق يقعد أمامهما وابتسامة تزيد وجهه الكبير ملاحه كطفل ظفر بلعبة جديدة، رفعت منصوره وجهها إلى السماء فلحظت القمر يرسم هلاله الغض في جانب السماء والنجوم من حوله تحتفل ببزوغه في ارتعاشاتها الخفيفة، حزمت أمرها بوجوب مغادرة المزرعة في الغد فقد رأت نفسها في أفضل حال وجرح كتفها برأ ولم يبق منه سوى قشرة بنية بطوله وقد أنجزت في أيام قليلة خدمات كثيرة للعجوزين عرفاناً بجميلهما عليها، رشفاتها الأخيرة للشاي أراحت جوفها فأسندت ظهرها للجدار وأغمضت عينيها في هدوء، من حين لآخر تسمع العجوزين يتحاوران بصوت خفيض وتبتسم لضحكة صوفيا الرفيعة وطريقة توماس في الحديث حيث يختطف كلماته في جمل قصيرة ثم يصمت، راودها النعاس لكن رموشها تباعدت لنباح الكلاب السريع وحركة النهوض التي فعلتها صوفيا ودخولها البيت في سرعة، خرجت وفي يدها البندقية ولوت منصوره رأسها في الاتجاه الذي أشار إليه توماس وهو يتحدث في اضطراب.

فزت منصوره واقفة للشبحين المتمايلين على فرسيهما فمنذ وجودها في المزرعة أول مرة يقبل غرباء عليها، وقفت جوار صوفيا التي خطت إلى الأمام وهي تشهر سلاحها، أمسكت منصوره بمشعل ورافقت السيدة التي دبّت خطواتها في حذر نحو الباب الخشبي الكبير، وقف الحصانان أمام الباب والشاب الأسود الطويل على أولهما يشير بذراعه لأعلى أما الآخر ضئيل الجسم فقد نزل من على ركوبته وسمعته منصوره يعلو صوته الرفيع من خلف الباب بالفرنسية فتجحظ عيناها في قوة للصوت الذي شكت في معرفته أول الأمر ثم ميزته تماماً وهي لا تصدق نفسها أن الوجه الذي تراه.

- جوليانا!

فاهت بها منصوره وأرادت أن تهتف فانحبس صوتها وانطبقت شفتاها ثم ارتعشتا وهي تحمق في وجه قسم الله المتوهج أمام الشعلة التي ترفعها صوفيا، تبادلت جوليانا مع

العجوز عبارات سريعة أفسحت على أثرها لهما الطريق فجرّ قسم الله البغل تبعته جوليانا ومنصورة مبهوتة لا تدري ماذا تفعل لكن نفسها المدفوعة للعودة انهارت بين يدي صديقتها فغابت عن الوعي لثوانٍ، مما جعل قسم الله ينهضها بين يديه فدار رأسها وتسارعت دقات قلبها من فرط المفاجأة:

- عرفتُها بنفسِي وقلت لها أنني وهذا الصديق نبحت عنك منذ أيام.

قالتها جوليانا فاستعادت منصوره روحها المنسحبه، أغلقت صوفيا باب المزرعة وقادتهما إلى حيث يجلس توماس الذي ارتفع حاجباه لزائري الليل غير المتوقعين والنادرين في تلك البقعة التي تقاسي العزلة والانطواء، حادثته زوجته فرفع يديه، عاونته منصوره على العودة إلى الكرسي، أدار عجلتيه نحو باب البيت ودخل تبعته صوفيا، ربطت منصوره البغليين بعمود خشبي ورافقتهما للداخل، تحلّق خمستهم حول المنضدة ومنصورة التي كانت تتعجّل النوم منذ قليل استفاقت وقلبا يكاد يقفز من بين ضلوعها من الفرحة بوصول قسم الله وجوليانا إليها، قطع توماس صمت اجتماعهم بعبارة طويلة وجوليانا تقطب حاجبيها وتهز رأسها ثم بادلتها الحوار والتفتت إلى منصوره وهي تقول:

- يستفسر السيد عن سبب مجيئنا فأجبتته بأننا نبحت عنك وعرفته أنك ابنة واحد من كبار العمال المساعدين للجيش في الحرب ضد الألمان وأنتك ضللت الطريق أثناء هجومهم على باشنديل.

- منذ لجوئي إلى بيتهما وهما يعاملاني معاملة ابنتهما، اسأليه عن عمله يا جوليانا وهل له أبناء فإنه والسيدة صوفيا يتكلمان معي ولا أفهم فأحاورهما بالإشارات.

تحدثت جوليانا طويلاً وهي تشير إلى قسم الله مرة وإلى منصوره مرات فتكلمت صوفيا وصمتت فترجمت جوليانا:

- عرفتهما بعملك في الكامب وعن هروبك أثناء هجمة الألمان وإطلاق الرصاص على غرفة القائد سميث فقد وجدوه مقتولاً، وعن انتهاء المعركة وفرار الألمان إلى الشمال وقرب الرحيل إلى الجنوب وعن فقدان الأمل في إيجادك إلى أن سألنا عنك أصحاب المزارع قرب غابة شاتو فوجدناك هنا.

- وماذا قالت السيدة صوفيا عن أسرتها؟

- السيد توماس كان يعمل مهندساً في شمال بلجيكا ويوماً وقع من أعلى برج فأصيب ظهره وأنفق أموالاً كثيرة في مداواة مرضه الذي انتهى به إلى الشلل ولم يبق له سوى تلك المزرعة الصغيرة وليس لهما أبناء وهما يشكران الرب على هذا فخير لهما ألا يكون لهما أبناء على أن يفجعا بفقدهم في حرب لا تنتهي.

نهضت منصوره واقتربت من صوفيا فقبلت رأسها وخذها ثم مالت وقبلت رأس توماس وعيناها مغرورقتان بالدموع:

- والله يا جوليانا ما رأيت أحن عليّ منهما وقد أمضيت الأيام الماضية في مساعدتهما بكل جهدي ونويت العودة في الصباح.

- علينا الرجوع الآن.

قالها قسم الله الصامت طوال الوقت ونهض لكن جوليانا أشارت له أن يجلس والشاب بوجهه الجامد الخجول يخفض عينيه وينتظر أن تنتهي منصوره لكن صوفيا حادثت جوليانا في سرعة:

- تقول السيدة أنه من الخطر تجولنا في الغابة بالليل وعلينا النوم ثم الرحيل يكون في الصباح.

- عندها حق يا جوليانا؛ فقبل مجيئكم حضرت فرقة من جند الألمان المزرعة للبحث عن ضباط وجنود فرنسيين أو إنجليز.

عقبت منصوره وهي تتشمم المنديل، مَطَّ قسم الله شفتيه وطال سكوته فأدار الموقف في عقله فوجد أن الانتقال من المزرعة إلى الغابة في الليل بظلامه وذئابه المتربصه هو عين الخطر فاقتنع بوجهة نظر صاحبة المنزل وقضاء سواد الليل وفي الصباح يتحسسون طريق العوده لباشنديل، تارة أخرى تحدثت صوفيا ثم قامت فنهضت جوليانا على الفور تتبعها وبقيت منصوره بين توماس وقسم الله.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، أكيد مررت بتجربة قاسية يا منصوره.

- أحكي لك أنت وجوليانا عن فراري من الكامب إلى هنا، المهم أخبار الكامب؟

- أرويها لك ونحن في طريق العوده.

ما كاد يكمل كلمته حتى أقبلت جوليانا وبين يديها طاولة طعام عاوت صوفيا في تجهيزه، أقبلت السيدة بدورق الماء وكوب زجاجي كبير، تناولوا عشاءهم في صمت ولم يلبث قسم الله أن نهض فأشارت له صوفيا إلى الحمام، سار إليه وبعد أن عاد وجد جوليانا ومنصوره في الخارج، قادتهما صوفيا إلى الحظيرة فقيد قسم الله البغلين بحبال مربوطة في حلقات حديدية مثبتة بالأرض وقربت لهما منصوره ماعون العلف وآخر مملوءًا بالماء:

- أنام هنا.

أشار قسم الله إلى كومة من القش خلف باب الحظيرة فترجمت جوليانا عبارته مما جعل صوفيا تهز رأسها مرات وتقذف بكلماتها وهي تشير بسبابتها:

- السيدة مصممة على أنك تنام في غرفة بها سرير صغير داخل البيت.

- لكن...

- سينام قسم الله في الغرفة يا جوليانا لكني أريد الكلام معه.

تبعث جوليانا السيدة صوفيا بعد أن ترجمت لها رغبة منصوره في الحديث مع الجندي الأسمر، فور اختلائهما التفت إليها قسم الله وهو يرمقها بعين معاتبه:

- كان من الممكن أن تلجئي لحوش الجمال عند هجوم الألمان أو البقاء في المطبخ مع جوليانا وليمان بدل الهرب وتعرضك للخطر.

ابتلعت منصوره ريقها في صعوبة وبتلقائية التفت حوالها وهي تنهيا أن تخبر قسم الله بما دفعها للهرب:

- عرفت أن سميت أمر بأن تلبسوا مثل جنوده وتمشوا قدامهم فيطلق الألمان عليكم النار وبعدها يضربهم الإنجليز، ما أحكيه لك هو ما حدث لأبي وكل من كانوا معه، فقصدت غرفته وطلبت منه ألا يرسلكم فأراد أن يقتلني ف...

- أنتِ؟ أنتِ يا منصوره...

- قتلته، أطلقت عليه الرصاص وثارت لأبي وأصحابه وبعدها هجم الألمان فجريت خارج الكامب إلى ما بعد الخنادق.

- أنتِ يا منصوره؟ كامل كان عنده حق يوصيني بك قبل موته.

صمت قسم الله بعد أن أدرك عظيم صنيع منصوره فلو أنه سار في مقدمة الجند لكان هلاكه محتوماً كمصير غلاب ورفاقه، طال صمته ومسحت منصوره دمعة انحدرت على

خدها، مد يده فقبض على أصابعها، رفع كفها وقبّل يدها ولأول مرة تراه يذرف الدموع من عينيه الحادتين فرق قلبها وسحبت كفها في رفق لتربت على شعره، كفكف دموعه ونهض، دخلا البيت وأشارت إلى غرفة بابها قصير، خطا نحوها وهو يلتفت إلى منصورة التي وقفت قليلاً أمام باب الحجرة المقابلة ثم أغلقته وجوليانا تتمدّد على السرير وتدعوها للنوم حتى يمكنهم التحرك قبل طلوع الشمس.

الجو حار خانق والهواء ساكن، شيء أطبق على صدر قسم الله فما كاد يغفو حتى يستيقظ، غادر السرير وتجرع الماء، يرغب في الخروج من تلك الغرفة الضيقة بجوها المشبع بالرطوبة، يخجل أن يستبيح التجول في بيت غريب أو الخروج منه دون إذن صاحبه، يقعد جوار الباب والجدار يريح رأسه، يداخله شعور الإعجاب بجوليانا الجريئة وإصرارها على مرافقته للبحث عن صديقتها وأقنعت أباها بأن المصري يحتاج إلى من يده وي تفاهم مع سكان المنطقة، ابتسم لها وهي تخبره بذلك فهي أيضًا لأول مرة ترى باشنديل وأشجار غابة، قاداته مبتعدة تمامًا عن بقايا حطام معسكرات الألمان المنسحبين إلى ما بعد مدينة عرفت أن اسمها إيبرس، تسأل أهل البلاد من صيادين وخطابي الأشجار الذين قابلاهم عند تجولهما بلغتها السريعة وحين وصلا لأول مزرعة بعد منحدر الأجمات المتشابكة ردّ عليها صاحبها الممسك بالبندقية بأنه لم تأت إليه بنت أو شاب بهذه المواصفات وطلب منهما الابتعاد وهو يشهر سلاحه، سألته عن أصحاب المزارع الأخرى فأجابها في سرعة وهو يغلق باب سور مزرعته، ابتعدا والشمس نصفها يغطس رويدًا والشفق يسيح الأفق بلونه الأحمر، أشارت إلى مزرعة منطوية تكاد تظهر بنايتها خلف السور، ركض البغلان نحوها وكان اللقاء الذي توجّ رحلة البحث طوال النهار بالعثور على منصوره.

زفر أنفاسًا حارقة وطفق يمسح عرقه الناز، استحبّ مفارقة الغرفة الضيقة وتحولت رغبته إلى نهوض وجرأة فالتفت أصابعه على مقبض الباب وفتحه، بديمومة الحذر حمل البندقية وأطلّ يستطلع المطرح، الصالة معتمة إلا من ضوء شحيح لمسرجة مثبتة على الجدار تبدد عتامة المكان، مشى نحو باب البيت، رفع مزلاجه الداخلي فأصدرت مفصلاته العتيقة أزيزًا خافتًا، خطا للخارج فعبّت رئاته هواء الليل الطازج واستراحتا لنظافته البعيدة عن روائح تخثر الجثث واحتراقها، أغمض عينيه وظل يستنشق، زامت الكلاب المربوطة بسلاسلها

فابتسم لها، جلس على العتبة وهو يحسد البغلين الساكنين أمام باب الحظيرة على هدوئهما ونسائم الليل تزورهما من آن لآخر، انتصبت أذنا البغل الذي كان يركبه، حسب أنه لفت نظره لكن البهيم الهادئ تحامل على سيقانه ونهض وهو يتبادل الشحيح مع الآخر المبارك على الأرض فلم يلبث أن وقف بدوره في حركة مباغتة وعلا نباح الكلاب للعواء البعيد، اتسعت عينا قسم الله واحتار فيما يفعل، برغم انقطاع العواء لكن الكلاب ظلت تنبح وهي تغالب السلاسل لتتحرر منها، زمجرة آتية من خارج السور وأصوات مخالب تنشب الخشب، نهض قسم الله وهو يصوب البندقية في الفراغ المحيط، تقافز الذئب دفعه لأن يلتفت في حدة ويطلق رصاصة طاشت في الهواء، وكأن الذئب على يقين أن كلاب مزرعة توماس مقيدة بالسلاسل وتعجز عن حماية حيواناتها فنطت من أعلى السور جارية نحو أقرب البغلين، رصاصة قسم الله الثانية تصيب أولهم فينقلب على ظهره، يهرول نحو مربط البغل وهو يصيح، رصاصة أخرى انطلقت من خلفه فأصابت ذئبًا آخر، اشتد نباح الكلاب وفي سرعة حررتها صوفيا فانطلقت متخطية السور مطاردة ذئبين آخرين سابقا الرياح نحو الغابة.

بجسمها الثقيل خطت نحو البغلين المرتعبين، وجهت فوهة بندقيتها نحو ذئب يحرك ساقه وأطلقت رصاصة اخترقت رأسه فسكنت حركته، بقدمه نغز قسم الله الذئب الآخر فتأكد من همود جثته، خرجت منصوره وفي إثرها جوليانا قلبها يرتجف جزعًا على بغليها، رطنت صوفيا بصوتها الرفيع وهي تشير نحو المدى الفسيح الغاطس في الظلمة، صمتت وهي تتلفت حولها منتظرة عودة كلاب حراسة المزرعة فطمأن قسم الله جوليانا:

- لم يصب أي منهما بسوء.

- السيدة صوفيا تقول: أنها ليست أول مرة تهاجم الذئب مزرعة فمند شهر التهمت من مزرعة فيكتور البعيدة هناك خروفاً صغيراً.

- عودي يا منصوره إلى النوم حتى يمكننا الرجوع في الصباح.

على عتبة البيت الخشبية جلس قسم الله ورفض أن يعود إلى الغرفة الخائقة مفضلاً قضاء بقية الليل بمكمنه، عادت كلاب المزرعة تجري في عبث وهي تنبح فنادتها صوفيا، اقتربت من الذئبين الميتين تتشمم جثتيهما فتنبه قسم الله لما يجب أن يفعل، أعادت صوفيا ربط الكلاب بالسلاسل، أمسك قسم الله بالمجرفة المكونة على الجدار وبدأ يحفر نقرة كبيرة وزاد من عمقها قرابة المتر، جر الوحشين القتيلين وألقى بهما في الحفرة، ردم عليهما وبقدميه كبس التراب أكثر، نفض كفيه وعاد إلى الجلوس على عتبة البيت، مرّ الوقت حتى انفتق النور من بين طيات العتمة ففُتح الباب وأطلت منصوره وبين يديها صينية عليها كوبان من الشاي وكعك:

- جوليانا صحت، دقائق ونتجهز.

عادت إلى الصالة واتجهت إلى غرفة صوفيا، عاوتها في إجلاس توماس على الكرسي وقادته زوجته إلى الحمام مغلقة خلفها الباب، ارتدت جوليانا ملابسها وغسلت وجهها، جهزت منصوره الإفطار فتناولوه في سرعة وشربت جوليانا الشاي الذي لا تستغني عنه، ارتدت منصوره جلبابها ووضعت الطاوية النظيفة على رأسها، خرجت صوفيا تدفع كرسي زوجها السمين، في وسط الصالة وقف قسم الله بين جوليانا ومنصوره التي حوت صوفيا وتوماس بنظرات الامتنان، اقتربت من الكرسي ومالت نحو توماس، طبعت على جبينه قبله أودعت فيها كل معاني الحب الصافي، ألقت بنفسها على صدر صوفيا، بذراعها أحاطت قوامها السمين وطفقت تقبل خديها ودموعها تذرّف، لسانها يلهج بكلمات الشكر، برفق أبعدتها وهي تربت على كتفيها وتحدّث في صوت هادئ وجوليانا تنقل كلماتها الوداعة:

- تقول: أنها سعيدة بالحظ الذي جعلك تعيشين معهما عدة أيام وما قدمت من أعمال ما كانت تقدر على إتمامها بمفردها.

تارة أخرى خاطبتها صوفيا وهي تقدم كيسًا به ملابس الفتيات، رفعت كيسًا آخر به خبز وجبن ضأن فتناولته جوليانا وهي تلتفت إلى منصوره:

- السيدة تقول.

رفعت منصوره يدها مقاطعة وكأنها لا تريد أن تترجم جوليانا ما تريده صوفيا مفضلة أن تشكرها بطريقة الإشارات التي تفاهمت بها معها منذ استضافتها، تارة أخرى مالت نحو صوفيا وقبلت جبينها، تنحنح قسم الله الواقف أمام الباب، خرجت الفتاتان فتبعتهما صوفيا وتوماس يدير عجلتي كرسيه في بطاء، هواء أول الصباح يحمل في هبوه نسمات منعشة، ركبت جوليانا البغل خلفها منصوره، امتطى قسم الله البغل الآخر وعند باب المزرعة رفعوا أيديهم بالتحية، نخس قسم الله جنبي البغل فتحرك في المدق الموصل نحو الغابة، تبعه بغل جوليانا ومنصوره تلتفت من حين لآخر للعجوزين البارين وتتمنى لهما الخير كل الخير، وجد البغلان مشقة في صعود المرتفع الذي لم تلحظه منصوره حين أتت إلى المزرعة، للمرة الأخيرة التفتت وراءها فودعت عينها ذلك البيت الصغير الرابض خلف براري غابة شاتو المخيفة وهم مقبلون على اختراق أشجارها.

ظلّ البغلان سائرين وجوليانا تبعد الأغصان المدلاة عن وجهها، لم تصدّق منصوره أنها ليلة ما سارت وسط كل تلك الأشجار التي لا تكاد تنفذ منها أشعة الشمس، توقف بغل قسم الله فمد يده نحو فرع مائل مربوط به شريط قماشي كان قد عقده حين قدم كدليل له في طريق العودة، هز رأسه للطريق الصحيح الذي يسرون فيه، لساعتين متواصلتين قادهم نحو الجنوب ومنصوره أصابها الغثيان من روائح الغابة العفنة، قلدت جوليانا فربطت منديلاً على نصف وجهها، اصطكاك غادر وسريع دفع بغل قسم الله لأن يجفل فجأة فسحب اللجام ودارت عيناه المرتبكتان تستطلعان الأمر، أشارت منصوره إلى سلسلة معقودة بجذع شجرة وفخ الذئب أسنانه منطبقة على نفسها، أيقنت أن حافر البغل داس على حافة الفخ فانطبق على لا شيء، لم يبال قسم الله بالأمر ونخس ظهر البغل موجه إياه نحو الطريق، ابتلعت منصوره ريقها وهي تودع الفخ بأسنانه المشرشرة، امتعض وجهها وانبسط في آن واحد لوجه الألماني هانز ومنديلها الذي أعاده لها ملفوف حول وجهها، لا تدري لِمَ توهج وجه الشيخ محسون وهو يردد دائماً: افعل الخير لأنه خير وثوابه عند ربنا فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

أغمضت عينيها فاستطابت نفسها غياب تفكيرها للحظات، فقد فرّجت كربة إنسان يعتبره الجميع عدوًا لهم وأنقذته من نهاية بشعة مشدودًا بسلسلة والذئاب تنهش لحمه وهو حي ورأت بأمر عينها مكافأة صنيعها عاجلاً حين أرسل لها بصات الثناء وهو محمول على المحفة بين زملائه وأطبق شفّتيه فلم يدلهم على اختبائها بين الأغصان وأجلاً حين حررها من قبضة واحد من جنوده كاد يجرها خارج حظيرة المزرعة وأعاد إليها منديلها، زفرت نفساً ممطوطاً واستطابت نفسها عدم التفكير والسكون لقدرها الذي لا تملك غير الاستسلام له.

حين تعلق الشمس بوسط السماء انتهت الأشجار المتشابكة وبدأت الأرض المنبسطة أمامهم، مال قسم الله بالبغل وضرب ظهره بالعصا الرفيعة فجرى في سرعة ورفيقه يتبعه، من بعيد ظهرت الآليات المتناثرة كعلب صغيرة، لم يتمهل فانحرف قسم الله بمطيته نحوها إلى أن اقتربوا فأطلق أحد الجنود النار نحوهم، رفع قسم الله يديه، أوقف البغل ونزل، في سرعة خاطبت جوليانا الجنود الذين تحلقوا حولهم، اتجهت إلى القائد جوستاف فألقى بكلماته السريعة في وجوههم فنقلتها جوليانا وهي تشير إلى منصوره:

- إنه يسأل، هل وجدتم ابن كبير العمال؟ فأجبتة نعم.

عادوا إلى ركوب البغلين وهذه المرة ركبت منصوره خلف قسم الله وتوجهوا مباشرة نحو الكامب ملتفين حول منطقة الخنادق، ما إن ساروا بين البنايات المتهدم بعضها حتى لاحظت منصوره خياماً منصوبة وجنوداً يدخلون ويخرجون منها وجوههم غير مألوفة بالنسبة لها فأدركت أنهم قادمون للمشاركة في مطاردة فلول الألمان المنسحبين، ربت على كتف قسم الله وسألته في لهفة كأنها تذكرت شيئاً:

- كيف حال العُناب؟

- بخير، وجد أخيراً ناقة ويريد أن يتزوجها.

بملء فكيتها ابتسمت وقوّست ذراعيها حول وسطه فشعرت أنها ملكت دنيته الجديدة، ركنت جبينها على ظهره للحظات فتسارعت دقات قلبها وتمنت أن يظل سائرًا لا يتوقف، احترز قسم الله من انزلاق البغل في المنحدرات الوعرة وابتعد قدر الإمكان عن النقر، أصوات متداخلة دفعتها لأن تبعد رأسها، استقبلهم العمال والجمّالة بترحيب لا مثيل له ومنصورة تتلقّى أحضانهم غير خجلة لما رأته من حب صادق بعودتها وأغرقوا قسم الله بشلالات الثناء لإصراره على البحث عن ابن كبيرهم غلاب النجار، من بعيد رأت جوليانا تلقي بنفسها بين ذراعي أبيها وساق قسم الله البغل ورده إلى الطباخ الكريم، انحنت منصوره وقبلت يد ليमान في اعتزاز فمسح على رأسها وربت على كتفها:

- حمدا لله على سلامتك يا ابنتي، بأمانة قلقت عليك.

- أشكرك عم توماس، أقصد عمي ليमान.

- سأحكي لك يا أبي عن المهندس توماس وزوجته صوفيا اللذين بقيت عندهما منصوره، مزرعتهما بعد غابة شاتو.

- غابة شاتو؟!!

فاه بها ليमान وفكه يتدلى من فرط الدهشة، همّ أن يعقّب بشيء لكن بوق الاستعداد للعشاء انطلق، برغم إنهاك الفتاتين وشعور منصوره بألم بين فخذيهما من طول الركوب على ظهر البغل لكنها عاونت جوليانا وأباها في تجهيز الأربعة.

أسابيع مرت ولا عمل لفيلق العمال غير استخدام دوابهم المكدودة في نقل الأسلحة الثقيلة المعطوبة والمتكسرة وإعادة بناء هياكل كامب باشنديل، منصوره تمضي وقتها ملاصقة لصديقها تجتر تجربتها وتتملكها كل صنوف الدهشة؛ فمهما روت ما خاضته ورأته لأي

إنسان من أهلها ببني عيش أو معارفها ببورسعيد فلن يصدقها، بعد الانتهاء من تجهيز عشاء الكامب، بحثت عن قسم الله فلم تجده، ذهبت إلى حظيرة الجمّالة وحين استدارت رأته مقبلاً والبشر يطفر من بين قسّمات وجهه اللامعة، وقف قبالتها وشفّتها تنثر كلماته:

- استعدي يا منصور، من الغد نرجع، أمر القائد موريس والقائد الجديد ماك قائد الإنجليز بدلاً من سميث بعودة العمال.

- انتهت الحرب؟

- لم تنته، لكننا سنعود.

فارتقت الابتسامة وجه منصور فهي تعرف وعودهم الزائفة وشكّت أن يكون خبر القائد ماك كسميث المكار، فهوّمت رأسها وهي تقول في ارتباك:

- يمكن ننتقل للخدمة في مكان آخر، من زمان سأل أبي القائد سميث عن رحيلنا فأكد له أننا سنركب السفينة، فرح أبي والعمال وظنوا أنهم راجعون إلى بورسعيد لكن السفينة ألقت بنا في مرسيليا.

- لا يا منصور، هذه المرة استقدموا عمالاً من الجزائر والهند وغيرهما من البلاد، وأمر عودتنا أكيد.

- بشرك الله بالخير يا قسم الله والله مهما شكرت لا يمكن أعطيك حَقك.

- عيب يا منصور، قبل موته أوصاني كامل بك ومن قبله أوصاه عم غلاب وكان عم غلاب هو من أوصاني، غير أنك بنت، ولا أقول مكسورة الجناح فأنت عندي أقوى بنت قابلتها في حياتي، لكنك حرمة والحرمة لها علينا حق حمايتها وسترها.

غمرته بنظرات حنان دفاق فخفق قلبه في شدة، أحسّ بشيء يجرفه إلى شعور لم يجزبه من قبل، فلو أنه استلقى في أحضان ألف امرأة وفتاة لم يحس بفيوض شلالات الحب

المنهمر من عيني منصوره في تلك اللحظه، أراد أن يتكلم، يفصح لكن شفثيه انطبقتا وتراجع خطوة وخطوتين ثم استدار خارجًا يتفقد حظيرة الجمال، بقيت مكانها وصدورها يفور إعجابًا بقسم الله الشهم الذي حمل على عاتقه البحث عنها ليسترها إن كانت مينة أو يعيدها إن قدر الله لها الحياة، تذكرت حوارها مع جوليانا وهما في طريق العودة، أخبرتها أنه طاف بين أشجار غابة شاتو في كل مطرح ولم يصبه الملل وحين هم بالانتقال إلى مكان آخر رأى شملتها قرب حافة انتهاء الأشجار فأدرك أنها قريبة من هنا فسأل عنها أصحاب المزارع القريبة حتى وجدها في مزرعة توماس، تلبستها روح الاقتناع بأن من يفعل ذلك إنسانٌ ذو مروءة صافية لا يرضى بأنصاف الحلول، فإما أن يوارى سواتها ويستترها في التراب أو يجدها وتقرر مصيرها بنفسها.

- نعم، أقرر مصيري بنفسي، رحمك الله يا أبي لو أنك بيننا الآن لرقصت من الفرحة أنت وعم غنيم الشرقاوي وكامل وعوض وكل من معكم، رحمة الله عليك يا صالح، رحمك الله يا ميخا، رحمكم الله يا إخوتي، أحبابي.

- تكلمين نفسك يا منصوره؟!

التفتت إلى جوليانا الواقفة خلفها، تبادلنا الابتسام، تحاضنتا في اشتياق وكان كليهما لم تر الأخرى منذ زمن بعيد.

- لا يجب أن أحضن منصور النجار المصري.

ندت عنها ضحكة رشيقة ومالت برأسها إلى الورا، تارة أخرى تلف ذراعيها حول خصر صديقتها، ترافقتا إلى المطبخ فرأت ليमान أمام الباب يحاول إصلاح عجلة العربة المكسورة، أحضرت لها جوليانا الأدوات فقامت منصوره بإصلاحها وتثبيت بعض الألواح على الجانبين، أمضت الهزيع الأول من الليل في لملمة أشياءها، في صندوق خشبي جمعت ما تبقى من عدة النجارة، أحضرت مخللة كبيرة ورصت بها هدمومها ومعطف مودروس الثقيل، على المفروش مددت جسمها فشعرت أن كل ما واجهته من إنهاك زال دفعة واحدة

فأغمضت عينيها تستحث الليل أن ينقضي وتتمنى لو يصدق قائدهم هذه المرة، آه لو يصدق ونعود.

أغمضت عينيها فور تردد هذه الكلمات بين جنبات صدرها وإن كانت قد أوجست خيفة لرحيلهم من كامب باشنديل في البلد المعروف ببلجيكا إلى كامب آخر لا تدري أين يكون.

أمام قبر أبيها جثت على ركبتيها وهي تقرأ الفاتحة، برفق ربتت جوليانا على كتفها وقسم الله خلفها يتمتم، نهضت ومسحت دموعه انحدرت على خدها، بكفها مرت على الحجر المثبت على القبر وشهقت للوداع الأخير.

- وحدي الله يا منصوره، واحمدي ربك أنه اندفن هنا.

- غيره من أهل البلاد فقدوا في الحرب ولا يُعرف لهم قبر.

- الحمد لله يا قسم الله، أعرف يا جوليانا ولكن يصعب عليّ أن أرجع من غيره، أعيش مع من وأنا مقطوعة من شجرة؟

- ربك يدبرها يا منصوره، المهم لا وقت لدينا وبدأ العمال في التحرك.

لم يدع لها قسم الله فرصة لاجترار حزنها فأنهضها، مرّت بكفها على شواهد قبور كامل وسعيد وغنيم وكأنها ترجوهم أن يعتنوا بأبيها، ساعدتها جوليانا في ركوب عربة أدوات المطبخ ولم يعتلِ قسم الله العُتاب إلا بعد أن اطمأنّ تمامًا أن العربة تحرّكت جوار صفوف العمال وجميعهم غير مصدّق نفسه أنه لا يزال يتنفس ويعود إلى أهله، منهم من يخشى أن يغني "سالمه يا سلامة" لئلا يُصدم بتوجيههم إلى بلد آخر ولا يعودون، أثر الجميع الارتحال إلى الجنوب صامتين وارتدى بعضهم المعطف الثقيلة فالبرد يشتد ليلاً وهم في أواخر نوفمبر.

بدورها فتحت منصوره المخلاة وأخرجت المعطف الثقيل، ارتدته على الجلباب البلدي ورفعت ياقته العريضة على رأسها، جلست ملتصقة بجوليانا والعربة تهتز في الطريق الوعر، لاحت من بعيد عدة بيوت لكنهم لا يعباون بها ولحظت جوليانا أن أهل تلك البلدة

وأطفالها لم يخرجوا كعادتهم للفرجة على الغرباء وكأنهم سئموا طول التهديد فمكتوا في بيوتهم منتظرين انتهاء الحرب، عربة القائد موريس متولي مهمة ترحيلهم في المقدمة والهجانة على جمالهم والعمال منهم من يركب العربات التي وفرها القائد ماك لرحلتهم حتى باريس وهناك سيركبون القطار إلى الجنوب ومنهم من فضّل السير لحين تعبهم ثم يذاحمون إخوانهم في اعتلاء العربات الصغيرة، توقفت عربة القائد لتزويدها بالوقود، اندفعت السيارات في قوة فركب بقية العمال العربات ذات الصناديق المفتوحة وجدّ الجميع في التقدّم وكأنهم في سباق لاقتناص الساعات المتبقية من النهار قبل حلول الليل، حتى الغداء تناولوه دون أن يتبنوا فكرة التوقف أو الراحة، لحظت منصوره وهي تمضغ لقيمات الرغيف المحشو بالجبن عرباتٍ أخرى كبيرة تحمل المدافع متجهة عكسهم نحو الشمال وأخرى محملة بمئات الجنود والأسلحة والمهمات فأدركت أن الحرب لم تنته بعد وفرنسا وحلفاؤها من الإنجليز وغيرهم سيدفعون بآلاف الجنود الآخرين نحو بلجيكا ليقضوا على أي أمل للألمان في معاودة الهجوم، لا تدري لِمَ لا يشغلها التفكير في تلك الأمور التي كانت تتلف لسماعها من أبيها أو ليमान الصامت طوال الوقت ويحاول بكل قوته أن يلاحق البغلان سيارات تضح من مقدمتها البخار الأسود.

مالت الشمس نحو المغيب ولا يزال الطريق طويلا، لكن الإصرار المتفجر من صدور العمال والهجانة دفعهم أن أي توقف يعطلهم ويحول دون مضيهم خطوات في طريق العودة، الجنود العائدون لا يكفون عن ترديد أغنية بعينها تسمع منصوره تكررهما كلما تجاورت عربة الطباخ مع ثلة من العساكر فافترت شفتا جوليانا عن ابتسامه يائسة سريعة وهي تقول:

- الجنود يغنون أغنية ألفها الجراح جون ماكري.

- أشعر أنها أغنية حزينة، غرضي أعرفها يا جوليانا.

- إنهم يرددون:

في حقول الفلاندرز

انفجر الخشخاش بين الصلبان

صفًا تلو الآخر

نحن الموتى

منذ أيام قليلة كنا نعيش

ونشعر بالفجر

ونشاهد غروب الشمس المتوهج

أحببنا وكنا محبوبين

والآن

نستلقي أمواتا في حقول فلاندرز

والآخرون جميعًا تمسكوا بالأمل

منتظرين يوم الخلاص

أطبقت جوليانا شفيتها ولا يزال لفيف من الجنود البعيدين يكررون الأغنية الحزينة التي
شبهتها منصوره بعيد الموتى الذي سمعته من عجائز بني عيش، ظلت الأغنية تتردد بين
الجنود حتى غابت الشمس وأرخت السماء ستائر العتمة وجلبة العربات لا تتوقف، علت
أصوات أنهم اقتربوا من أراس فتبادل الجميع ما يشبه التهئات ولم يخيب القائد موريس
ومساعده جوستاف رجاءهم فلم يأمر بالتوقف إلا بعد الوصول إلى أراس وهناك يدبر أمر
المبيت ثم مواصلة الرحيل نحو نهر السوم ومن بعد أميان تكون محطتهم الرئيسة باريس.

منصورة كبقية العمال لا تريد لذاكرتها أن تُشحن بتفاصيلٍ مكرورةٍ فما إن وصلوا لكامب
أراس في منتصف الليل حتى أوقفت محركات العربات ونزل الجمّالة من على أسنمة
فحولهم المنهكة من طول السفر، قدموا لها أعلافاً وماء وسمحوا لهم بوقت للراحة الكاملة،
منصورة نامت جوار جوليانا وفرد عليهما ليमान بطانية ثقيلة، انقضى الليل وواصلوا
الرحيل منذ أول نبتة للنور وكأن القائد موريس يريد أن ينهي مهمة توصيل العمال وبذلك
يكون قد تخلّص من حجر ثقيل على كتفه فهو الآن يغادر بلدة أميان في طريقه إلى باريس
وستكون الرحلة بعد ذلك أيسر، وسيعرض على قيادته أن يتولّى قائد آخر مرافقتهم نحو
ليون ومنها إلى مرسيليا، ليमान وجهه مشرق لزيارة باريس بعيداً عن عمله كطباخ، يلتفت
إلى جوليانا وهو يعرض عليها:

- في باريس سأزور عمك رينو، كنت سأذهب إليه أثناء قدومنا لكن الوقت ضاق علينا.

- لك عمّ في باريس يا جوليانا؟

- العم رينو ابن عم أبي وعلاقتنا به منقطعة منذ زمن لاستقرار أبي عمره كله بوهران، أين
يعيش العم رينو؟

- بيته قريب من كنيسة سان جيرمان.

- جميل أن نزورها يا أبي، ستريين يا منصوره واحدة من أقدم الكنائس في باريس.

هوّمت منصوره برأسها أمارة الفهم واستسلمت تماماً لفكرة زيارة قريب جوليانا ما دام في
طريق العودة وتكون فرصة لمشاهدة أماكنٍ أخرى أفضل من المعسكرات والخنادق،
أغمضت عينيها وتمنّت حين تفتحهما أن تكون في بورسعيد أو في بيتهم ببني عيش، لا
تدري متى أو أين حلّ عليها النوم.

في صباح باكر طرقت أذنيها صيحات جوليانا، فتحت عينيها فرأتها تنتصب بقامتها وسط
العربة الراسية، جوارها وقفت منصوره تنتسم الهواء ومن بعيد تتماوج حافة نهر السين
والبرج يشمخ من بعيد:

- قلت لي أنه برج...

- إيقل يا منصوره، برج إيقل، وصلنا باريس.

أدار ليمان العربة وراء فرقة العمال والهجانة إلى حيث عدة مبانٍ منخفضة، لطول نزولهم
في مثل تلك العنابر فلم يخف على أحد أنها بنايات وهناجر للجنود، أمر القائد موريس
قسم الله بتسكين رجاله فتلاغظوا فيما بينهم أنهم قد يوزعون على أعمال في مناطق
أخرى لكن القائد جوستاف حادثهم بلغته العربية المتكسرة أنه سيتم ترحيلهم بواسطة
قطار باريس لكن الأمر يحتاج إلى ترتيب فقطار العربات المكشوفة لحمل الجمال غير
موجود الآن وربما يصل غدًا، لم يجد العمال والهجانة بدًا غير الانصياع فالوثوق أو عدمه لا
يمثل لهم غير تنفيذ الأمر، ورأى بعضهم أنهم في حاجة فعلاً إلى الراحة قبل السفر إلى
مرسيليا، وذكرهم عبدالمؤمن والجزار مصطفى وخلف الله القناوي أن المسافة بين باريس
ومرسيليا مئات الكيلو مترات ويجب أن يصبروا حتى يتم ترحيلهم جميعًا في قطار واحد
فالاستعجال قد يجعل القائد موريس يشحن نصفهم في قطار ويبقى الآخرون في انتظار
قطار ثانٍ، اقتنع العمال والهجانة بوجهة نظر زملائهم وسكنوا عنبرين كبيرين والجمال في
حظيرة الدواب وبها القليل من الخيول في آخرها، ألقى موريس أوامره لليمان بأن يستعمل
حجرة صغيرة كمكان مؤقت لتحضير وجبات العمال ومن معهم من جنود، ذهب ليمان إلى
عنبر الهجانة فسأل عن قسم الله فأشار إليه سابق البولاقي أنه في حظيرة الجمال، بوجه
باش قابله قسم الله:

- بعد الغداء أستأذنتك يا قسم الله في اصطحاب منصوره ومعها جوليانا لزيارة ابن عمي وأسرته في باريس.

- لو رغبت منصوره لا مانع عندي.

- فرصة تغير البنت الجو، يقولونها هكذا عندكم في مصر.

ابتسم قسم الله ثم قطب حاجبيه للرصاصة التي دوت والحصان يصهل آخر الحوش، في سرعة تجاسرت أيدي الجزائريين في ذبح الحصان بعد إطلاق رصاصة في رأسه أولاً، أربعة خيول تقف واجمة بينها وبين ما يحدث لرفيقهم الخامس سور من الخشب، ضرب قسم الله كفاً بكف وهو يرقبهم يسلخون الجلد في سرعة وعبث وكأنهم يريدون تخليص اللحم فحسب، بقر أحدهم بطنه وأخرج الأمعاء، عبأها في كيس ولم تمض بضعة دقائق حتى كانت أرباع الحصان محمولة على أكتافهم خارجين بها من الإسطبل الضيق.

- توجد أزمة لحوم لإطعام الجنود.

- لكن الخيول يا عم ليما ن قليلة ويحتاجونها.

- انظر، إنها خيول مصابة ولا تصلح للمشاركة في الحرب.

تأملها قسم الله فوجد أحدها يعرج وآخر باركا على الأرض وثالثا ساقه مكسورة، لم يطق المنظر وخرج من العنبر الكبير خلف ليما ن، التفت في حدة إلى الطباخ وهز كتفيه:

- حذار أن يمس أحد منهم جمالنا بسوء!

- اطمئن، إنهم لا يأكلون لحوم الجمال.

قالها ليما ن وفي نفسه شيء من القلق فربما يطمعون في تجربة ذبح الجمال فيستبيحون أحد الفحول، دقق النظر في عيني قسم الله وهو يقول:

- لكن الحرص واجب.

أدرك قسم الله غاية الطباخ العجوز وفهم ما ينبغي عمله حتى لا يحدث صدام بينهم وبين الفرنسيين وهم قاب قوسين أو أدنى من الرحيل، خطا ليमान نحو المطبخ فرأى الجنود يفرغون أكياس الخبز، انشغل معهم وشارك منصوره وجوليانا في تجهيز الغداء، أرسل قسم الله خمسة عمال لإحضار الطعام وتوزيعه على زملائهم في أماكن راحتهم بالعنبرين ورجا عددًا آخر الحضور إلى عنبر الهجانة والبقاء معهم على سبيل زيادة عددهم وشدّد عليهم عدم مغادرة جمالهم أو أن يقترب أي غريب منها، هزّاع النوبي يقبل، رغم برودة الجو لكنه يمسح العرق الناز من جبينه، يشير إليه قسم الله أن يهدأ فيهم الشاب برأسه وهو يقول:

- سبعة جمال مصابة بالجرب.

امتعض قسم الله للخبر المحزن والمخزي في آن واحد، سار جوار هزّاع والشاب يرطن بكلمات مستاءة، في ركن قصي عزلوا الفحول المصابة، تفحصها قسم الله ومطّ شفّتيه الغليظتين في هدوء:

- يجب دهنهم بالزيت.

- بالقار يا قسم الله، نغطي البقع المصابة بالقار السائل.

قالها حفيظ الديالي وهو يكز أسنانه لخسارتهم المتلاحقة في فحولهم، غادرهم بعد أن أعطى تعليماته للجميع بعدم البوح لأحد بإصابة الجمال؛ حتى لا يطمع فيها الفرنسيون فيذبونها وهم في أشد الحاجة إلى اللحوم، احتار قسم الله في أمر الجمال الجرباء، هل يطلب من القائد موريس برمياً صغيراً من القار ويكون قد فضح مرض الجمال أم يأمر جمالته بأن يغطوا المواضع المصابة في جمالهم بأكياس الخيش؟ تلفت وهو يردد: ما خاب من استشار.

بين يديه يحمل جردلاً خشبياً مغطى بالقماش، يعود به إلى الحوش فيتلقفه حفيظ ويشمر هزاع أكمامه ويلف قطعة خيش، غمس هزاع لفافة الخيش في القار السائل وشرع يدهن موطن إصابات الجمال، قسم الله يرقبهم ونفسه قلقة على بقية الفحول وفيها جملة العنّاب، ابتسم لليمان الذي وثق في أمانته واستشاره فطلب منه الطباخ العجوز أن ينتظره حتى عاد ومعه جردل القار الذي اشتراه من أحد عمال محطة القطار ورفض أخذ فرنكات قسم الله التي قدمها له، في سرعة أنهى الهجانة ستر جرب فحولهم المستسلمة للمراهم السوداء ذات الرائحة النفاذة.

انتهت نوبة الغداء فربط ليमान البغليين في العربة وأوجس في نفسه خيفة من أن يستولي عليهما جزارو الجيش فأوصى أحد العمال بحراستهما لحين العودة من باريس، سار نحو ضفة نهر السين وجوليانا ومنصورة لا تريدان إغماض عيونهما لحظة حتى لا تفوتهما مشاهدة شوارع وبنيات باريس العالية لكن الجنود المنتشرين في كل مكان وهم مرتدون المعاطف الزرقاء ويحملون بنادق ليبييل الثقيلة أضفوا الخوف وهم في تجوالهم، انحنى ليमान في شارع آخر وسار فيه متحاشياً دبابات رينو إف تي ذات البرج الدوار، انعطف في شارع أضيق ووقف يلتقط أنفاسه أمام بناية من طابقين، رفع سقطة الباب الحديدية وقرعه عدة مرات، وجه ممصوص أطلّ من بين خصاص النافذة فحادثها، غابت لحظات وانفتح الباب العتيق، ضيّقت السيدة عينيها ثم فتحتهما دون أن تمد يدها أو تسلم، تحدثت طويلاً ثم أفسحت لهم الطريق فهمست جوليانا في أذن منصورة:

- إنها زوجة عمي رينو وأخبرت أبي أنه ليس موجوداً فهو في مستشفى أوتيل ديو جوار كاتدرائية نوتردام دو باري وبالعربية كاتدرائية سيدتنا العذراء لأن ابن عمي المجند في الجيش فقد ساقه وهو هناك يتلقى العلاج.

في الدور الأرضي جلسوا حول منضدة قديمة، منصوره اختبرت خشبها فوجدتها متينة وصنعتها متقنة، أحضرت السيدة مادلين أكواب مملوءة نصفها بالشاي، حاولت أن تظهر ابتسامة على شفيتها النحيلتين وهي توجه الحديث إلى ليمان واستغربت جوليانا تجاهلها لها ولمنصورة ثم استدركت السيدة الأمر ومدت يدها مسلمة عليهما، تارة أخرى تميل وجهها نحو ليمان وتتكلم في سرعة، تهمس جوليانا لصاحببتها بما تقوله زوجة عمها:

- تعتذر عن عدم تقديم طعام لأنه لا يوجد في بيتها ما يكفي وتطلب من أبي مغادرة البيت لأنها مرتبطة بموعد.

- تطلب منا ترك البيت، شيء غريب!

- قالت لأبي لو أنك تريد زيارة ابن عمك فإذهب إليه في المستشفى.

زهدت منصوره في الشاي المر بطعمه الغريب وكأن العطن أصابه من طول ركنه، رشفة واحدة وترك ليمان الكوب، نهض مستأذناً فلم تنطق مادلين وقادتهم بعودها الرفيع نحو الباب، هزّت رأسها وأغلقتة قبل أن يخطو ليمان من أمامه، دهشة اجتاحت منصوره من تلك المرأة غير المضيافة، برق وجه الجدة كرامة حين سألت ذات ليلة ضيف عن الشيخ محسون فبادرت بالترحيب به وفرشت له على المصطبة الملاصقة للجدار مفرش الصوف، قدمت له طبق البلح وقلة الماء وبعدها أخبرته أن الشيخ سيأتي بعد قليل وظلت ترحب به وتقول له: بالجودة، إلى أن أقبل الشيخ محسون فغابت قليلاً وحضرت بطاولة عليها قرصان من الفطير المشلتت وأطباق العسل والجبن القديم، وضعتهم أمام الضيف فتمنّع لكنها أصرت وهي تقول له: ما جهزنا حاجة، الجود بالموجود في البيت وأنت حضرت في وقت عشاء، عيب عليك.

- عيب عليك، عيب عليك.

غمغمت بها منصوره مَرّات وهي تخطو جوار جوليانا خلف ليّمان الذي أشار إلى مبنى في المقابل، انتظر حتى مرقت سيارات كثيرة فعبر الشارع الكبير نحو مستشفى أوتيل ديو، البراح أمامها غاية في الازدحام، سأل عن عنبر الإصابات فدلّه أحد الممرضين إلى الجناح الآخر، ظلّ يتلفت ومنصورة تلقي بنظراتها عبر النوافذ والأبواب المفتوحة فلا ترى سوى جرحى ومصابين، زكمت أنفها روائح المطهرات والعقاقير، قرأت جوليانا لافتة: ممنوع دخول هذا الجناح، سألت أحد العاملين فأجابها في سرعة ومضى:

- "سبنش فلو"، الانفلونزا الإسبانية.

توقف ليّمان عن السير وبدا على قسّمات وجهه الشاحبة قلق ممزوج بالرهبة، ابتلع ريقه وهمّ أن يشعل الغليون لكنه تراجع وأشار لهما بالابتعاد عن الباب المؤدي إلى طرقة جناح المصابين بالانفلونزا الإسبانية، خرج منه ودخل ممرضات وممرضون يلفون على وجوههم كمّامات خاصة ويغلفون أيديهم بجوارب بيضاء، استوقفت جوليانا إحدى الممرضات وحادّتها فتحرّكت شفتا السيدة بعبارات مكتومة من خلف الكمامة ثم تركتها ومضت.

- تقول الممرضة: ظهرت بعض حالات الانفلونزا وحذرت من أعراضها التي تظهر على المريض من حمى وألم وفقدان شهية بالإضافة إلى نزيف في المعدة وخروج دماء من الأذن وقد يختنق المريض لامتلاء رئته بالسوائل.

- لطفك يا رب.

- وحذرت من الإصابة به لأنه شديد العدوى، لكنها قالت إن الإصابات للآن قليلة.

- هيا، لنبتعد.

انحرف ليّمان نحو طرقة أخرى قرأ اللافتة التي عليها فخطا بين الغرف في سرعة وتخطى إحداها ثم جفلت قدماه ورجع قليلاً، دخل الغرفة وهو ينادي: رينو، رينو..

التفت إليه رجل سبعيني لاحظت منصوره شعره الثلجي الخفيف يقف قبالة سرير يجلس عليه شاب في الثلاثين يحاول تحريك ساق صناعية وبجواره عكازه الخشبي، فرد رينو يده مسلماً على لي مان وتجاوزا، لاحظت منصوره أن الرجل يرد في اقتضاب وكأنه لا يريد منهم الوجود:

- ما جمع إلا وفق، الرجل كزوجته مادلين بخيل حتى في إجاباته.

تبسّمت جوليانا لعبارة منصوره التي شغلت نفسها بتأمل بقية المصابين بالعنبر الكبير وهالها انبعاث وجوه بعض الشباب فنخست جوليانا في جنبها وهي تهوم برأسها:

- أكيد هذه إصابات شظايا القنابل فتشوه الوجه.

استحلبت منصوره ريقها للوجوه الشائهة فمنها ما هو مفعوص أسفل فمه وأسنانه الأمامية بارزة ومنهم صدغه منبعج بشكل قبيح، امتعض وجهها وأدارته نحو الشباب المبتورة أطرافهم واستعاضوا عنها بأخرى صناعية يحركونها في ببطء، قررت أن تتخلص من مناظر التشوه بالابتعاد نحو باب العنبر، الباب المقابل به نفس الحالات فضاقت صدرها وتمنت أن تنتهي الزيارة في سرعة، جوارها وقفت جوليانا وهي تترقب أن ينهي أبوها حوارهم مع العم رينو وابنه الذي لا يتقن سوى هز رأسه وساقه الحديدية معاً، شغلت منصوره نفسها بتأمل مصابي العنبر المقابل، اتسعت عيناها للشباب الممدد على سريره في هدوء ويركن ذراعه الحديدية على صدره وعيناها تتطلعان إلى السقف، تارة أخرى لكزت جوليانا واحتبس الكلام في حلقها:

- انظري يا جوليانا من هناك.

- من يا منصوره، أحد أقاربك في مستشفى أوتيل ديو بباريس؟

- إنه، إنه...

- ديمار، نعم هو يا منصوره، ديمار.

في جراًه قطعت منصوره الطرقة ودلفت باب العنبر، خطت نحو ديمار وراودتها ذكرى تلك الليلة البعيدة حين اقتحم عليهم المطبخ وهو مصاب فطهرت جرحه وواصل هروبه بعد أن أخبرهم أنه تمرد وأعلن رأيه صراحة في هذه الحرب الطويلة، وروى لهم ما قاساه في معركة السوم ويتمنى أن يعود لمزرعة التفاح وأبقاره في الجنوب، وقفت الفتاتان قبالته فحرك ديمار رأسه نحوهما، لم يهتم أول الأمر لكنه رفع حاجبه لتذكرهما واعتدل في جلسته، مدّ يده اليمنى فسلم عليهما وهو يلقي بكلماته:

- يقول أنه تذكرنا، وتذكر أنك شفيت جرح كتفه قبل أن يواصل الهروب لكنهم قبضوا عليه وعلى رفاقٍ مثله وقدموه إلى المحاكمة وحكموا على بعضهم بالسجن وعلى الآخرين ومنهم هو بالعمل في خدمة الجيش كعامل لمدة لم يكن يعرف نهايته.

سكتت جوليانا ووجهت له الحديث فأجابها ومنصورة تتأمل بقية ذراعه والأخرى الحديدية القبيحة الملتصقة بها:

- يقول أنه أثناء جمعه للحديد في إحدى المناطق انفجرت قنبلة وأصابت ذراعه فاضطروا لبتريها.

تمت منصوره أن تقدّم له هدية لكنها لا تملك وهي في هذا المكان الكئيب شيئاً، دارت بعينيها فرأت على منضدة مركونة أسفل الجدار مزهرية بها القليل من الورد، ذهبت إليها وسحبت وردتين، اختارت الوردة البنفسجية لها وأعطت الأخرى لجوليانا، اقتربت من سريره وفي عطف وحنو قدمتها له فابتسم في رضا وتناولها بأنامل أصابعه السليمة، هز رأسه وبرفق وضع الزهرة على الوسادة، أخذ من جوليانا هديتها الأخرى، فتح كتاباً مغلقاً ووضعها بين الصفحات، ابتسم وهو يوجه كلامه لجوليانا:

- يقول: أنها أجمل هدية تلقيتها وسأحتفظ بها إلى الأبد، ولا أنسى جميلك عليّ في مداواة جرحي، فأنت الغريبة أحزّ عليّ من قادة وطني الذين تسببوا في سلب ذراعي التي كنت أزرع بها الأرض، لكنني سعيد الآن لأنني سأعود أخيرًا إلى مزرعتي وأبقاري، لا يهم إن فقدت ذراعي وبقيت الأخرى المهم أني سأعود.

توالت أنفاس منصوره وهي تسمع ما نقلته صديقتها عن ديمار فذرفت دمعته بصدق وتمتت لو أنها تقبل جبينه وتهنئه على سلامة بقاءه حيًا، مدت جوليانا كفها فسلم عليها، ابتسمت منصوره وهي تمد يدها وتقبض على الطرف الصناعي وتهزّه فرفع ديمار حاجبه واتسعت ابتسامته لدعابة منصوره البريئة، تحدث فضحكت جوليانا:

- يقول: أنه أصبح معوقًا كنظام بلاده المعوق وكقاداته المعوقين في تفكيرهم، هنا يجبرونه على تركيب الذراع الصناعية، وحين يعود لمزرعته سيتخلص منه فذراعا زوجته تكفيانه.

بكفها ربتت منصوره على كتفه وتراجعت خطوة وديمار يلفها بنظرات الامتنان، أشارت له جوليانا وهي تقول: "أو روقوار ديمار"، خرجتا من العنبر فعاد ديمار لتمدده على السرير، لم تنتظر الفتاتان طويلاً فقد خرج ليمان من عنبر ابن رينو الذي لم يكلف نفسه عناء مرافقته لباب الغرفة، سار أمامهما وحين اقتربوا من باب المصابين بالانفلونزا تسارعت خطوات ليمان ومن خلفه الفتاتان حتى خرجوا من باب المستشفى، وقف ليريح صدره من فرط إجهاد السير ثم سار في اتجاه نهر السين، انبسطت جوليانا ومنصورة لاقترباهما من حديقة شامب دي مارس حيث يشمخ البرج الحديدي وكل منهما تتمنى أن يكون المصور الذي التقط لهما صورًا قبل مغادرتهما باريس منذ شهور طويلة موجودًا فيصورهما مرة أخرى.

على الأرض الخضراء ترّبع ليمان أمامه جوليانا ومنصورة يتناولون البيض المسلوق والجبن في شهية مفتوحة.

- عم ليمان، ابن عمك رينو وزوجته مادلين يشبهان بعضهما.

- رينو ابن خالة مادلين.

- والاثنان في منتهى البخل.

نغزت منصوره جوليانا في فخذها لجرأتها في وصف قريب أبيها بالبخل واحمرّ وجهها خجلاً لكن ليمان ضحك وهو يؤكد معلومة ابنته:

- رينو طوال عمره يمسك على كل فرنك وزوجته مادلين أبخل منه لكن ربنا يساعدهما في ظروف ابنيهما.

صمت ليمان وأنهى طعامه، نهض وهو يطلب أن تتبعاه إلى الكامب فالشمس في طريقها للمغيب ويجب أن يصلوا إليه قبل حلول الظلام.

قسم الله ببندقيته المعلقة على كتفه يحول بين بغلي ليमान وأربعة رجال أولهم ذو شارب كث، سمين يكاد كرشه ينضو من ملابسه يقبض على سكين طويلة خلفه ثلاثة منهم جنديان، نحوهم هرول ليमान وجوليانا ومنصورة تلاحقانه، وقف العجوز لاهت الأنفاس وهو يحدث الجزار بردائه الأبيض الطويل، تدخل أحد الجنديين في الحوار لكن ليमान أشاح بذراعه أمامه وعلا صوته، نادى جوليانا على القائد جوستاف حين لمحتة يسير أمام أحد العنابر فالتفت وتسارعت خطواته، بكلمات قليلة أنهى القائد الموقف وتراجع الجزار ومن معه، استدار القائد عائداً إلى عنبر الجند فتلاقت العيون مندهشة فالأمر لا يحتاج إلى تفسير.

- أشكرك عزيزي قسم.

- لا شكر على واجب، جميل أنكم عدتم في الوقت المناسب، كدت أرفع البندقية في وجوههم لأمنعهم من أخذ البغليين لذبحهما.

- أزمة توفير الغذاء وصلت لذروتها، إنهم يبحثون عن أي مصدر لإطعام جنودهم في الشمال و...

لم يكذب يتم كلمته حتى انطلق عيار ناري من الحظيرة الكبيرة، حسب قسم الله وليمان أنهم يذبحون واحداً من الأحصنة المصابة لكن قسم الله مَيِّز أصوات العمال والهجانة المهتاجة واتسعت عيناه لخروج العمال من العنبر الثاني واندفاعهم نحو زملائهم فركض بكل ما أوتي من قوة وهو يسمع طلقة ثانية وثالثة، اقتحم الحظيرة إلى اللمة في آخرها والجمال حفيظ يكيّل اللكمات لجندي فرنسي وآخرون يحاولون تخليصه بلا جدوى، انحشر قسم الله بين عماله، أمسك بيد حفيظ القابضة على تلابيب الفرنسي ودمه يلطخ وجهه، في قوة خلّصه ودفع الشاب إلى الورااء خطوة، انطلقت رصاصة طاشت في الهواء فتراجع العمال

خلف قسم الله الذي لا يدري سبب فتك حفيظ بالجندي، ظهر القائد موريس بنفسه خلفه جوستاف، تراجع الجنود الفرنسيون لينكشف جسد الجمل المكوم على الأرض والدماء تسيل من ثقب بين عينيه، جفلت قدما موريس وفار صدره غضبًا لحماقة جنوده، وقف الجندي أمامه وهو يمسح نزيه جرح رأسه فصرخ موريس في وجهه، خطا قسم الله نحو الفحل فشعر بمرارته تكاد تنفقي فالجمل المغتال هو العنّاب، التفت إلى موريس وأشار إلى الجمل ثم أشار إلى صدره ففهمها القائد وبدا عليه التأثر، غلى رأس قسم الله والدماء تكاد تبك من أنفه، وقف أمام الجندي وقائده، رفع ذراعه وهوى بها بكل ما أوتي من قوة فصرخ الجندي على أثر الصفعة، سحبه رفاقه إلى الخلف وأشار لهم موريس بالخروج.

- لا عليك يا كبير العمال، تعود لبلدك ويكون لك أفضل منه.

تمالك قسم الله أعصابه ورغبة جامحة لأن يطلق كل رصاص بندقيته عليهم، كظم غيظه لكن ظهور الجزار الفرنسي بجسمه السمين وبيده سكينه حوّل رغبته إلى حقيقة فرفع بندقيته في وجهه وانفلت الجزار مصطفى من بين العمال يشهر الساطور أمام نده الفرنسي:

- أيها القائد موريس، نحو أحق بلحمنا.

رفع موريس يده إشارة انسحاب كل من هو فرنسي فدبت خطواتهم خارجين، انخرط حفيظ في بكاء مرير.

- والله يا ابن العم حسبت أنه يذبح واحدًا من الخيول المريضة هناك لكنه صوّب على العنّاب من بعيد.

رَبّت قسم الله على كتف حفيظ وهو يوقن أن الشاب لم يقصّر في المحافظة على الجمال المتبقية فقد غلب على أمره عندما أطلق الفرنسي المتهور النار على أكبر الفحول وهو يظن أنهم سيقدمونه هدية لهم، أبعده حفيظ وهزّ كتفيه في قوة:

- لا عليك يا ابن العم، ما ضاع قد ضاع.

جثا أمام رقبة فحله الممددة على الأرض، قلبه يخفق في التيعاع، تعتصره مرارة القهر، مال برأسه وقبّل جبهته العريضة، ارتعشت شفتاه وهو يبث كلماته الأخيرة الهامسة لصديقه:

- أشهد الله أنك ما خذلتني يا صديقي وما فرّطت فيك إلا وأنا مغلوبٌ على أمري، إرادة الله أن أفقدك هنا ونحن على أبواب العودة للديار.

ابتلع ريقه وانتصبت قامته المديدة، أدرك أن أي تهور من جانبهم سيكون له عواقب لا تُحمد نتائجها على عودتهم فأشار إلى الجزار وليمان وغيرهم من العمال:

- مصطفى، اسلخه، جهّز مواعينك وأشعل نيرانك يا ليमान، عشاؤكم الليلة عندي يا رفاق.

لم يطق مصطفى وبقية العمال أن يشرعوا في ذبح الجمل إلا بعد أن خرج قسم الله من الحظيرة، أمامها برك وظهره يسنده الجدار، بكفيه أخفى وجهه، أصابع تبعدهما فرقع وجهه المغرق بالدموع أمام منصور المرفضة قبالة، خفق قلبها لقسم الله الباكي وذرفت دموعها، لا تدري ماذا تقول للجندي النبيل الذي أنقذ بغلي الطباخ من الذبح وضخى بغضبه على اغتيال رفيق غربته من أجل عدم تعطيل عودتهم، ربتت على كفيه وهي تقول مواسية:

- هون عليك، ربنا يعوّضك عنه بالخير.

- والله يا منصور ما كنت أبخل بالعنّاب على أصحابنا لو أنهم لم يجدوا ما يقتاتون به لكن أن يستحله جندي غبي وهو يظن أنني أفرّط فيه، هذا ما قهرني عليه.

- الحمد لله على ما أعطى ونحمده على ما أخذ.

- طوال الوقت كنت أسمع عم غلاب يرددّها، لا عليك يا منصور، عودي إلى صديقتك وأبيها وجهزوا العشاء لنا جميعًا.

الليل يوغل والعمال ينقلون اللحم المقطّع إلى المطبخ وليمان يسلقه إلى أن نضج تمامًا وبدأ مصطفى وعامر الإسناوي وسابق البولاقى وعبدالمعين الأزهرى فى توزيعه على كل العمال والجمّالة، زعق حفيظ حين قدّم إليه مصطفى رغيفًا بوسطه هبرة اللحم، جثا على ركبتيه وبكلتا قبضتيه يضرب الأرض، التفت إليه قسم الله ورفع أمامه القطعة الكبيرة، قضم منها وأقحم بقيتها بين أسنان حفيظ، لم يتركه إلا بعد أن بدأ يمضغها وعيناه مغرورقتان بالدموع، خرج من العنبر وجوليانا تقبل عليه وبين يديها أرغفة وطبق كبير من اللحم، تراجعت خطوة حين أقبل موريس خلفه جوستاف

- أكرر اعتذارى عما حدث يا قسم و...

فوجئ القائد موريس بقسم الله يتناول رغيفًا وقطعة لحم ويقدمهما إليه، أطرق القائد وزمّ شفتيه، بأصابعه خلع قبعته وثبتها على صدره، أشاح بوجهه فى أسف حقيقي:

- غدًا تركبون القطار نحو ليون ومنها تسافرون إلى مرسيليا، سيرافقكم القائد جوستاف حتى باب السفينة، اجعل عمالك يرتدون ملابس ثقيلةً فالبرد شديد ونحن فى اليوم الأخير من العام.

أنهى القائد موريس عبارته واستدار فوجد جوستاف نفسه وجهًا لوجه أمام قسم الله، انتصبت قامة جوستاف واعتدل فى وقفته ثم استدار بدوره مبتعدًا، ركنت جوليانا الطعام أمام قسم الله، لمحت فى عينيه الرغبة فى أن يبقى وحيدًا فعادت إلى المطبخ، ليان وزّع آخر ما بالإناء من لحم وجلس يدخن.

- القائد موريس أمر بأن نركب القطار فى الصباح إلى ليون وربما إلى محطة جرونوبل.

- ترافقنا يا عم ليان أم تبقى فى باريس؟ لكن لا أرى منصوره.

فوجئت جوليانا بقسم الله يقف أمام الباب وعلى ضوء المصباح المعلق على الجدار رأى ليان وجهه المتعب لكنه رحّب به وقرب كرسياً خشبياً صغيراً فجلس وهمّ أن يعيد السؤال

عن منصوره فخرجت من باب جانبي تحمل المخلاة الكبيرة، جلست جوار جوليانا فأراد لييمان أن يزيد من مواساته وهو الذي سلق لحم جملة:

- كنت تحب جملك العُتاب؟

- والله يا عم لييمان جملي العُتاب حمل على ظهره من حديد وأخشاب وصناديق أضعاف ما حملت عربات الجيش، وجرّ من المدافع ما لم يجره غيره ونقل من جرحاهم الكثير.

- صدقت.

- وكان من الممكن أن يُصاب في أي وقت فنحن في حرب محفوفة بالمهالك لا يأمن فيها إنسان على نفسه لكن ما صعب عليّ وشق صدري أنه ينجو من رصاص الألمان في أراس وباشنديل ويموت غيلة برصاص جياع الجيش.

- حقيقة صدقت يا قسم الله وأشهد أنك من أنبل وأشجع من قابلت في حياتي وأكثرهم تحكماً في نفسك، ربنا يعوضك عن العُتاب خيراً.

- أما عن اسمه عُتاب فقد أسميته على اسم جدتي كما قلت من قبل.

- ثمر العُتاب، أذكره، بلدة بونة بالجزائر مشهورة به، إنها حبات كالعنب لونها أحمر غامق.

دارت عينا قسم الله في وجه جوليانا ومنصورة الصامتين والتفت إلى لييمان الذي نجح في أن يستدرجه ليخفف عنه تكله الفحل القوي، فسأله في جرأة:

- لكنك أصررت على أن يأكله العمال ولم تدفنه كما فعل...

- قلتها لابن العم حفيظ، ما ضاع قد ضاع، تفضل أن أدفنه كما تقول ويمسي مرعى لدود الأرض أم ألقيه فتنهشه الكلاب أم أسلمه للجزار المخبول فيطعم به الجنود الفرنسيين، فضلت على ذلك كله أن يشبع بلحمه أصحابنا.

اقترب ليमान من قسم الله وازداد إعجابًا بقوة شخصية الجندي الأسود وشكيمته الصخرية لكنه يشعر في نفس الوقت برقة قلبه فلف ذراعيه حول جسمه النحيل وحضنه في قوة، هز رأسه وهو يبعدة في رفق:

- سنكون جاهزين لركوب القطار.

- وأنت يا منصور، لا تفارقي عم ليमान وأختك جوليانا.

خرج قسم الله من المطبخ ليواصل حث العمال والهجانة على الاستعداد للرحيل الطويل ولم يغمض له جفن حتى اطمأن تمامًا على رفاقه وانتظر أمر التحرك نحو القطار.

لم تكد ترتفع الشمس أقدامًا عن الأرض حتى أعطى قسم الله للقائد جوستاف إشارة التحرك بعد أن تراصت الجمال في العربات المكشوفة وكالعادة فضّل أصحابها الركوب معها، أما العمال فشحنوا في بقية العربات المغلقة، ليमान والبغلان استقروا في العربة الثانية بعد عربة القائد جوستاف وجنده، أطلق القطار صفيره وبدأ جراره في سحب حمولته فأطلت منصوره برأسها تودّع برج إيقل وذكرياتها في ذلك الشمال البارد، أعادها ليमान للداخل فالقطار يسرع وتيار شديد البرودة يرشق وجوههم بالصقيع، أغلق الباب فسرى الدفء بين أوصاله الهرمة، ظلت العجلات الحديدية تصلصل في قوة والقطار يبطن تارة ويسرع أخرى.

- المسافة بين باريس وليون أكثر من أربعمئة وخمسين كيلو.

قالها ليमान وهو يعطي جوليانا الخبز وبقية لحم الجمل وبدورها قدمته لمنصورة التي تناولت غداءها وصدرها منبسطة، علقت جوليانا وهي تلوك الطعام:

- المفترض أن نصلها قبل الغروب.

- لكن مع بطء القطار وتوقفه المتكرر قد نصل ليون قرب منتصف الليل.

أنهت منصوره طعامها وظلت صامته وما يتردد في نفسها أنه لا يهمل، نصلها متى نصلها المهم أنهم جميعاً راحلون إلى بلادهم التي اشتاقوا لتمريغ وجوههم بترابها، بقيت على حالها لكن في نفسها هاجس خوف من خيبة الأمل التي قد تصفهم؛ فمدينة ليون كبيرة ومن أهم نقاط توزيع الجنود وقد تتعطل عودتهم هناك أو في شامبيري أو فوارون التي عملوا بها من قبل، استعازت بالله من الشيطان الرجيم وتمنت أن يصل القطار إلى جرونوبل بلا توقف ومن هناك يهرولون على أقدامهم حتى مرسيليا، مالت برأسها فتوسدت مخلتها وانطبقت أجفانها وهي ترجو ألا يعيقهم شيء، أي شيء.

لم يخيب القطار رأي ليمان فدخل محطة ليون في العاشرة مساءً فأطلقت صافرته إشارة التوقف، فتح ليمان باب العربة فغيّر الهواء الطازج الرائحة المكتومة طوال الساعات الفائتة، على أضواء المشاعل التي يحملها الجنود نزل جوستاف وتقابل مع قسم الله:

- ربما يتأخر السفر إلى ظهر الغد.

- لماذا؟

- مكابح القطار تحتاج إلى صيانة ونريد المزيد من الفحم.

لم يكذب جوستاف كلماته المتكسرة حتى انفصل جرّار القطار عن العربات الرابضة في سكون.

- انظر، الجرار يتجه إلى عنبر الصيانة البعيد.

تركه القائد واتجه برفقة جنوده نحو مدخل المحطة، علا صوت قسم الله بالتنبيه على أصحاب الجمال بالبقاء معها حتى ظهر الغد وكرر التنبيه على العمال، التفت ليمان إلى جوليانا ومنصورة:

- يمكن أن نبيت في بيتنا.

- لكن قد يتم إصلاح القطار يسافر من غيرنا.

- لا تقلقي يا منصوره، لا يتم تزويد القطار بالفحم قبل الصباح وإصلاحه أيضًا يستغرق حتى الظهر أو أكثر.

- اشتقت إلى العمة أميمة.

صدمت منصوره بعباره جوليانا التي ذكرتها بتلك السيدة الطيبة التي تمت حين عودتها أن تقابلها مرة ثانية وها هو ليماي يعرض تحقيق أمنيتها ولم يتردد فأزاح اللوح الخشبي العريض نحو الأرض وساق أحد البغلين وجوليانا دفعت الآخر، ابتهجت منصوره فإنها لن تنجشم مشقة السير بين طرقات المدينة في هذا الليل والبرد، يبقى أن تستأذن قسم الله فخرجت ونادت عليه، أقبل نحوهم مستغربًا لكن هذه المرة كلمه ليماي:

- برجاء الاستئذان لمنصوره في المبيت معنا في بيتنا هنا.

- نعم يا قسم الله فقد بتنا فيه من قبل حين كنا ذاهبين إلى باريس.

- من قبل كان عم غلاب رحمه الله صاحب الرأي.

- أنت الآخر تعال معنا.

- أنا؟

- نعم يا قسم الله، تستريح وتستحم وتفرد جسمك.

ابتلع قسم الله ريقه واستحبّ الفكرة؛ ففضاء الليل في بيت أفضل بكثير من البقاء في عربة القطار، في استحياء نظر إليهم وهم أن يبدي موافقته لولا دبيب خطوات أحد العمال:

- حفيظ يريدك يا قسم الله، فهو محموم منذ ركبنا القطار.

ضاق صدر منصوره من الخبر الذي جاء به رحيم النوبي ولأنها تعرف طوية قسم الله ونخوته فإنه لن يقبل على نفسه أن يستريح في بيت بعيد عن عربات القطار التي تحمل عماله وجمّالته وهو يعلم أن أحدهم مريض وفي حاجة لرعايته، فرد كفه أمامهم واستدار مع رحيم، ركبت جوليانا البغل وخلفها منصوره، نخس ليماي مؤخرة البغل الآخر وقادهم

نحو الممشى المؤدي إلى خارج محطة ليون وحوافر البغلين تدفع الثلوج الهشة، اقشعرَ بدن منصوره ورفعت ياقة المعطف، لفت الشملة على نصف وجهها وزادت رغبتها في التبول، شوارع المدينة خالية إلا من أناس يتحركون في سرعة؛ ليلوذ كل منهم ببيته، معظم البيوت تغطت أسطحها ببساط خفيف من الثلوج فبدت كقشرة بيضاء تبزغ من فوهات مداخنها خيوط من دخان أسود، أحست بجفاف حلقها فراودتها رغبة في شرب الماء وإفراغ المحتبس بها في آن واحد، استبطأت سير البغل فنغزت جنبه بقدمها، تمت أن يركض بها لكن ليमान بحكمته يقود بغله في تودة خوفًا من تزلجه فتتكسر ساقه وتكون مصيبته الكبرى في الحيرة بين علاجه أو تركه لجياع الفقراء يغنيهم لحمه في برد الشتاء القارس، ظلوا سائرين في دروب المدينة ومنصورة تقاسي ألم بولها حتى أوشكت أن تفعلها على نفسها، ميّزت جوليانا الشارع الصغير المؤدي إلى الحارة الضيقة فأشارت إلى البيت الأخير بها، استراحت منصوره للوصول فلم تنتظر أن تساعد جوليانا في إدخال البغل فخطت داخل البيت، هزّ ليमान المسرحجة المعلقة على الجدار فترقرق السائل بداخلها، أشعلها فخطت منصوره نحو الكنيف ذي الرائحة الزهمة من طول إغلاقه، خرجت وأسنانها تصطك فأوقد ليमान الأخشاب المتبقية بالمدفأة، تخلصت جوليانا من ثقل معطفها وبدورها أراحت نفسها، خرجت وانتظرت أباها فيتناولون معًا العشاء لكن منصوره جسمها يشتهي النوم فأغمضت عينيها وهي على الأريكة وبهزة من رأسها امتنعت عن تناول أي شيء سوى الراحة فنهضت من فورها واستلقت على السرير، لقيمات قليلة مضغها ليमान ولم يلبث أن مدد قامته النحيلة على الفراء المفروش أمام المدفأة فلم تجد جوليانا بدا من تغطية نفسها ومنصورة ببطانية لم تستحب رائحتها فالنوم الجاثم عليها محا أي تفكير آخر غير الغرق في بحوره.

لا شمس بازغة تدافع أشعتها عن الأجساد المتشعبة بالبرودة، فالسماة التي تراها منصوره وهي على سطح البيت ملبدة بغيوم قاسية، جوارها على مقعد قديم جلست جوليانا تراقب

الأسطح البيضاء المتشابهة والأدخنة تتعالى من الفتحات الضيقة، لحظت أن عشة الفراخ فارغة وتنتظر بين لحظة وأخرى ظهور العمّة أميمة لكنها لم تأت، صوت ليमान يعلو بمناداتها من الأسفل، نزلت الفتاتان ومنصورة تنفث أنفاسها الحامية من خلف الشملة:

- عمّتك أميمة مريضة.

- هي في البيت؟

- نعم، فتحت لي الباب في صعوبة وعادت إلى السرير.

- نزورها يا عم ليमान.

- ونعتني بها إلى قرب ذهابنا للمحطة.

قادت جوليانا صاحبته نحو الباب الموارب، فتحت ودلفتا، مالت العجوز في وهن، فقبلت جوليانا يدها، لحظت منصوره وجه أميمة الذي شاخ أكثر مما رأته المرة السابقة، نهضت السيدة وثبتت جوليانا الوسادة العريضة خلف ظهرها، ارتعشت شفتاها وكلماتها تتواتر في صعوبة:

- تقول: يوجد خبز ملفوف بقماش في تلك الفتحة التي بالحائط، لا يحتاج إلا إلى تسخين.

أنصال من حزن نغز قلب منصوره لما أصاب العجوز من وهن وهي الكريمة حتى في مرضها، فردت كفها على جبينها فاطمأنت قليلاً لاعتدال حرارته، الكحة المتكررة تكاد تخلع صدرها، أشارت إلى كيس صغير ففتحته جوليانا وأخرجت أوراقاً لدنة لكنها غير معطوبة، طافت بأنف منصوره تلك الرائحة التي ميزتها على الفور، فإنها أوراق الريحان، أخذت منها جوليانا القليل وغلته على نيران المدفأة الهادئة، حلته بملعقة عسل النحل وقدمته دافئاً للسيدة التي احتسته على مهل وهي تتكلم:

- تقول: أنها تحسنت كثيرًا والجيران يرعونها ويأتون لها بالطعام، سبب مرضها قلقها على ابنها الغائب في البحر بعد أن سمعت أن الألمان يغرقون السفن والمراكب القادمة من أمريكا.

صمتت وواصلت احتساء المشروب وبقية من بخار يتهادى أمام فمها، دخل ليمان وحياتها، قبل يدها، أصرت على النهوض بلا معاونة من الفتاتين، عودها الفارع تغطيه الدثارات فلا يظهر سوى وجهها الشاحب، تمنى منصور أن تبقى وتعتني بالسيدة الجليلة التي يدق قلبها كلما رن اسمها العربي في أذنها واتسعت أميتها بأن تصطحبها معها إلى مصر أو على الأقل إلى حيث يستقر ليمان وجوليانا فقد عرفت أن الطباخ قرر أن يقضي بقية حياته في مرسيليا بعد أن اتفق مع رينو وهم في باريس أن يشتري نصيبه في أحد مطاعم مرسيليا، وجوليانا أخبرتها أن أباهما يحب مرسيليا لأنها على البحر مثل وهران، عز على منصور مفارقة العمدة أميمة لكن لا مفر من سرعة العودة إلى القطار، بإشارة من ليمان فهمت جوليانا أنهم يجب أن يرحلوا الآن فقبلت جبين العجوز وهاتفتها في خفوت، ألقت منصوره بنفسها على صدر السيدة التي ربّنت على ظهرها فزاد طمع منصوره فقبلت وجنتيها في حب لا تدري منبعه، حادثتها أميمة، رفعت سبابتها أمام ليمان الذي جرّع من زجاجة النبيذ في سرعة وكلمته بنبرة محذرة، خطت خلفهم وعند باب البيت اختصت منصوره بكيس صغير، دون أن تفتحه وتعرف ما به قبضت أصابعها عليه في اعتزاز وركبت البغل خلف جوليانا، رفع ليمان يده مودعًا ومعهما ودّع بيته في ليون ووجه لجام ركوبته إلى خارج الشق الضيق ومن حين لآخر تلتفت منصوره إلى الخلف وفي صدرها حب جارف للعمدة أميمة:

- كلمتني ولم أفهمها يا جوليانا.

- قالت: إن وجهك يحرك داخلها حكايات قديمة.

ابتسمت منصوره وتحسست الكيس الصغير ففكّت رباطه الرفيع، فوجئت بأوراق الريحان وفكرت أن تغلي منها القليل ويشربه حفيظ؛ فيساعده على الشفاء واحتمال السفر، الوقت

ظهر والشمس الغائبة خلف السحاب المركوم أحالت الدنيا إلى لون رمادي قاتم، اقتربوا من المحطة فدار ليमान بالبغل حول السور ليتجه إلى القطار مباشرة، من بعيد أبصرت منصوره لمة أمام إحدى العربات، ضربت جوليانا مؤخرة بغلها فتراكضت سيقانه نحو لفييف العمال وقسم الله يقف وسطهم، نزلت منصوره وهي تقبض على كيس الأعشاب الشافية لكن الوجوم يلون وجوه العمال بصمت ثقيل.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، حفيظ مات.

انعقد لسان منصوره وأفلتت أصابعها المرتعشة الكيس، انتفض جسدها للخبر المفجع فلم تتخيل أن في عودتهم سيدفنون واحدًا منهم، اهتز صدرها والدموع تساقطت بلا إرادتها، انتحبت وهي تهذي بكلماتها، قسم الله يجب أن يتصرف وفي سرعة فالقائد جوستاف منذ أن أخبر بموت العامل أمهلهم ساعة واحدة ليتدبروا أمر دفنه بعدها سيتحرك القطار، الدقائق تمر فأطل رحيم وخلف الله والحداد عبدالمعين الأزهري، لم يجدوا محفة خشبية فتكالت أيدي العمال في حمل الجسد الملفوف فيما بينهم، تقدم ليमान ببغله فاعتلاه قسم الله وأراح العمال الجثة أمامه على ظهر البغل العريض، دبّت كعوبهم خلف مجند فرنسي نحو مخزن منطو مجاور للمحطة، بمجرفة كبيرة أزالوا قشرة الثلج المرتفع عن الأرض قرابة شبر، حفروا شقًا كبيرًا وأراح مصطفى الجزار اللفة على جنبها الأيمن، أهالوا التراب ووقفوا واجمين فأمسك المجند بالمجرفة وغطى التراب بالثلج، حزم قسم الله أمره وطلب منهم العودة إلى القطار، نهنات منصوره تتعالى وتود لو عاتبت العامل المسكين بأنه كان يجب أن يتشبث بتلابيب الحياة بكل قوته فإنهم في طريقهم إلى العودة، مسحت دموعها وبحثت عن حجر، أي حجر لكن الثلوج تغطي البراح حول المخزن فقبضت على قطعة فحم صغيرة وكتبت على الجدار: العامل حفيظ.. من بين أصابعها انفلتت شذرة الفحم، التقطها ليमान فاستعصت الكتابة عليه لكنه استطاع أن يدون: يناير 1918.

مع اهتزازات القطار، أغلق ليमान باب العربة وانتظر حتى يسري الدفء فيستثمر الوقت في النوم، منصوره تقووس ذراعيها حول ركبتيها وتدفن وجهها بينهما، تشعر بصداق يطن في نصف دماغها، بين طيات ذاكرتها توارت وجوه كل من فُقد في مودروس أو باشنديل، في شامبيري أو أراس ولم يبق غير وجه حفيظ، هذا الأخير ينكسر قلبه على العُتاب جمل صديقه قسم الله المغتال بيد سفهاء الجياع من مجندي الجيش قبيل مغادرتهم باريس وها هو يُدفن في ليون، تمت أن تتلاقى أرواحهم جميعاً ويرافقون الناجين منهم إلى مصر، غفت عيناها وفي قلبها حزن دفين.

لم تشعر بالوقت والقطار يمرق بين صفحات الثلوج البيضاء التي تقل حداثتها كلما أوغلوا نحو بلدة شامبيري على نهر الرون ثم فوارون ومنها إلى جرونوبل، عافت نفسها الطعام البارد الذي قدمته جوليانا وظلت متكومة تحت الأغطية لا تحسن سوى الصبر وإغصاب نفسها على النوم ومداواة أرقها بالدعاء لأبيها وكل وجه قابلته منذ أن دبّت أقدامهم في كامب مودروس ولم تعد تراه وهم في طريق العودة، ظل القطار يشق طريقه حتى شعرت به يهدئ سرعته ويتوقف تماماً ولا تدري إن كانوا بالليل أم بالنهار، بقيت متدثرة بالمعطف الثقيل حتى سمعت قرعاً على الباب فنهض ليमान في تناقل وأزاح المصراع الكبير فلفهم الهواء البارد، صوت قسم الله بالأسفل يحدث ليमान فنهضت منصوره لتقف على الحافة:

- القطار آخره هنا في جرونوبل، القائد جوستاف أعطانا فرصة أن ندبر أمر الرحيل إلى مرسيليا وسيحاول أن يوفر لنا عشر عربات والجمال ستحمل بقيتنا.

كعادته ثبت ليमान الألواح العريضة وبحذر دفع عربته إلى الأرض وربط البغليين بها جيداً، أعاد تثبيت أواني الطهي القليلة، ركبت جوليانا ومنصورة التي قلدت صديقتها في ربط المخلاة بسور العربة الخشبي حتى لا تفقدها أثناء السفر الطويل، على غير توقع قسم الله من فتور رفاقه وجدهم يعملون في همّة ونشاط في نقل أمتعتهم الشحيحة على الأرض وانتظار العربات ومنهم من أناخ الجمال وغطوا أسنمتها وظهورها بأكياس الخيش واختاروا بعضهم لرفقة السفر فانبسطت نفسه لروح عماله وجمالته المتأهبة للرحيل إلى

مرفاً السفن بمرسيليا محطتهم الأخيرة ثم ركوبهم السفينة وما عليهم بعدها سوى الصبر
والدعاء للوصول لبر السلامة.

قبيل الفجر هبّ لفيف من العمال على صوت صافرة باخرة تهديء من سرعتها، رأوها تتهادى وهي تدخل البوغاز المخصص لرسوها، علا صوت حركتها وهي ترسو رويدًا داخل المسرب البحري، السفينة ليست كأى سفينة فهي كبيرة لدرجة أن أحد العمال أشار إليها وهو يتعشّم أن تكون هي نفسها التي ستنقلهم بجمالهم إلى مصر:

- أخيرًا نركب سفينة نوح.

من قلبها ضحكت منصوره وهي تحك كفيها وتفرك أصابعها لجلب الدفاء فالتفت إليها سابق البولاقى:

- أعجبتك يا منصوره؟

غاضت ضحكتها لنطق سابق اسمها فالتفت إليه في حدة وخطت نحوه فرفع سابق حاجبه وهو يشير إلى قسم الله الواقف بعيدًا جوار القائد جوستاف:

- قسم الله السودانى أخبرنا كلنا أنك منصوره بنت غلاب النجار رحمة الله عليه وأن عم غلاب أخفى اسمك محافظة عليك.

ألجم لسان منصوره وهي تستمع إلى اعتراف سابق لشخصها وتلبّستها دهشة عارمة لما دفع قسم الله أن يكشف سرها وهم على وشك العودة لكنها لم تتعجّل إصدار الحكم وفضلت أن تنفرد به تناقشه، الشمس تعلقو وأشعتها تتسحب على أرض الميناء وبرودة الصباح تهريء أجساد العمال الذين تزايدوا لمشاهدة الباخرة الكبيرة وكأنها جزيرة حطّت أمامهم، وقفت جوليانا أمام منصوره ويدها ممدودة برغيف محشو بالجبن فتحيّنت فرصة استيقاظها باكرًا وأخبرتها فشاركها التعجب من تسرّع قسم الله فى البوح بسرّها الذى لم

يعترف به صالح إلا وهو على فراش الموت بمودروس ولم يَأتمن أبوها أحدًا غير كامل وبدوره أوصى قسم الله برعاية منصوره، تحيَّنت عودة قسم الله وذهبت إليه لتحاوره لكن الفرصة لم تكتمل فقد جمع العمال ووقف على حجر كبير وعلا صوته:

- علينا إفراغ حمولة السفينة من أكياس القمح على الرصيف.

لغط الضيق انتاب نفوس العمال وأشاح بعضهم بذراعه معترضًا على العمل المفاجئ، فحثهم قسم الله على إطاعة الأوامر وربما تكون هي نفسها التي سيغادرون على منتهها، تناول العمال إفطارهم وما إن فُتح باب ضخم ببطن السفينة على مصراعيه حتى تدلت سقالة عريضة بحبال غليظة ومالت رويدًا نحو الرصيف الحجري للميناء، خرج خمسة عمال يتأملون الساحة المقابلة وأشار أحدهم إلى مربع معيَّن فغاب اثنان دقائق وعادا يحملان كيسين وأرجلهما تدب في هدوء حتى ركناهما في جانب بعيد، أشار جوستاف إلى قسم الله بالبده فاصطف العمال وتقدموا نحو بطن السفينة في طابور طويل فبدأت الأكياس تنتقل على أكتاف العمال حتى تلقى على الأرض، قسم الله يستحثهم لكن حمولة السفينة كبيرة، والأكياس أكثر من أن تفرغ في يوم، تركت منصوره جوليانا مع أبيها يتدبران مع أحد الجنود أمر إطعام العمال وأصرَّت على محادثة قسم الله فذهبت إليه مباشرة فابتسم لها:

- أعرف سبب حضورك.

- وإذا عُرِف السبب.

- بطل العجب، كل العمال شكوا في علاقتك بجوليانا وخصوصًا لما كنا في ليون وركبت البغل خلفها وكانت هي الهئة والسهو، فظنوا بكِ السوء وهم يحسبون أنك منصور حتى أن واحدًا منهم وصفك بالفجور مع ابنة الطباخ وترحموا على روح عم غلاب الشريف العفيف.

سكت قسم الله فجحظت عينا منصوره وهي تسمع كلامه وسقط قلبها بين ضلوعها لتفكير العمال، همت أن تصيح بأعلى صوتها زاعقة فيهم أنهم مخطئون لكنها انتظرت أن يكمل قسم الله، تأرجحت نظراته بين وجهها وحركة العمال البندولية في حمل الأكياس وركنها في صفوف طويلة حتى صنعوا منها تلاً.

- من الطبيعي أخبرهم أنك بنت وأن عم غلاب احتار في تركك في بورسعيد أو يصحبك واختياره الأخير كان الأصح بعد أن قدمك للقومندان أنك منصور لا منصوره، لا يزال عامر الإسناوي يذكر عم غلاب وهو يقول: هذا ابني منصور ابن غلاب النجار.

انفرجت شفتا قسم الله الغليظتان عن ابتسامه رائقة كشفت أسنانه الصفراء فأطرقت منصوره رأسها وهزته مرات وحمدت ربها في سرها أن الإفصاح بأنها بنت حدث الآن قرب نهاية الرجوع، عاد إلى عمال السفينة الغرباء.

- من مصر؟

- من الجزائر، وكل أكياس القمح تم تحميلها من سيدي فرج.

- مرحباً بكم، أخوكم قسم الله، سوداني يخدم في الجيش المصري.

- أنا بو مرداس الوهراني وزميلي رشيد مستغانمي، نعمل في شحن وتفريغ السفن.

- وسفينتكم هذه؟

- عائدة بعد أيام للجزائر، الحرب جعلتهم في أشد الحاجة للمؤنة.

- لي سؤال عن مدة إفراغ القمح.

- ربما يومين أو ثلاثة على أكثر تقدير فتوجد مهمات أخرى يجب تسليمها.

- أشكركم.

- الشكر لله أخي قسام.

- قسم الله، أستأذنكم.

تركهما قسم الله وهو في حيرة من الأمر فالمرفاً لا يوجد به غير سفن صغيرة ومراكب لا تتسع لحمل الجنود والهجانة بجمالهم في رحلة طويلة إلى الإسكندرية أو بورسعيد، داخله شك في نوايا جوستاف ومكره في أن يستبقهم بمرسيليا أسابيع أو شهوراً أو إلى ما شاء الله ما دام في حاجة إلى أكتافهم، صمتت منصوراً لتقطيبه وسارت خلفه بخطوة حتى وصل إلى الخيمة التي اتخذها ليमान مقرّاً لتجهيز وجبات العمال، العجوز يجلس يدخن غليونه وهو يتأمل نوارس البحر البعيدة.

- هؤلاء من الجزائر يا عم ليमान، أحدهم يسمى بو مرداس الوهراني ورشيد مستغانمي والسفينة قادمة من سيدي فرج.

- أكيد تحمل القمح الجزائري، سيدي فرج، هو نفسه البلد الذي احتلته فرنسا زمان من سبعة وثمانين سنة وتزيد.

- والسبب يا عم ليमान؟

- أسباب كثيرة منها أن الداى حسين طالب القنصل الفرنسي بدفع عشرين مليون فرنك للجزائر قيمة مساعداتها من أيام نابليون لكن القنصل عامله بتكبر فضربه الداى بمذبة على وجهه.

- يا سلام!!

- ومنها أن أهالي عنابة الجزائرية هاجموا سفينة فرنسية تسمى لابروقاس وامتنع الداى عن معاقبتهم، مما أغضب القيادة الفرنسية فقاد بورمون جيشاً بأكمله لضرب سيدي فرج

تمهيدًا لاحتلال الجزائر.

- ولم يحاربهم أحد بعد احتلالها؟

- لم تهدأ ثورات أهل البلاد والقبائل بالجزائر، بعد ثلاث عشرة سنة حاربهم الأمير عبدالقادر في معركة كبيرة بمنطقة طاقين الواقعة جنوب قصر الشلالة ومعروفة بمعركة الزمالة لكن هزمه الدوق دومال ابن ملك فرنسا.

- جميل أنك تعرف حكايات قديمة عن حرب فرنسا في البلاد.

- ومستعد أحكي لكم تاريخ فرنسا والجزائر كله لو أمكن الوقت، أربعون سنة عشتها هناك في وهران الجميلة.

- شكرًا يا عم ليमान، المهم عودتنا؟

- أعتقد أنه لا عودة لكم إلا بوصول سفينة إنجليزية تحملكم لمصر؛ فكل السفن الفرنسية محجوزة لخدمة الحرب وسمعت أن الألمان هاجموا باشنديل مرة ثانية.

- يا ساتر، وكأن الآلاف من المقتولين هناك راحت أرواحهم هدرًا.

- ربنا يسترها يا منصوره، المهم يا قائد قسم الله، أستأذنك أن ترافقنا منصوره داخل
مرسيليا، أنا امتلكت مطعمًا وأرغب في تجهيزه.

- تستقر هنا في مرسيليا؟

- مرسيليا تشبه وهران، آه على وهران وأيام وهران.

- ما في مشكلة يا عم ليमान لكن لا بيات خارج الميناء.

- نعود إلى المرسى قبل الغروب، أنا نفسي لم أتدبر امتلاك بيت للآن.

علانية ركبت منصوره البغل خلف جوليانا وقادهم ليमान بعيدًا عن الميناء الكبير في
شوارع مرسيليا، لم تترك منصوره زاوية إلا والتفتت إليها فزكمت أنفها روائح البارود
وشاهدت سيارات ذات صناديق مفتوحة تحمل معدات عسكرية، مدافع كبيرة تجرها
الخيول، حلقت طائرات ذات جناحين فوق رؤوسهم حتى اختفت في الجانب الآخر من
الميناء، الناس في الشوارع حركتهم سريعة وكأنهم يخافون من هجوم الموت عليهم في
أي وقت، قاد ليमान ركوبته إلى منعطف بعيد في بقعة نائية، وقف أمام محل واسع مفتوح
على مصراعيه بابه ذو ضلعتين، المطرح يلفه هواء الفراغ وكلب يرفع ساقه الخلفية ويزخ
بوله جوار الجدار فنهرته منصوره في شيء من التقزز فزام وجرى مبتعدًا، رفع ليमान رأسه
لأعلى ونادى:

- بلزأك.. بلزأك.

هنيهة وانفتح الشيش وأطلت صلعة ناصعة البياض لرأس كبير، لحظت منصوره ضخامة
وجهه وغلظة ساعده عندما أشار ثم أغلق النافذة، لحظات وانفتح باب البيت فتدلى فك
منصوره وانتابتها رغبة في الضحك لهيئة الرجل ذي الوجه المنتفخ ورأسه على كتفيه من

قصر رقبتة، كرشه الأسطوانى يمتد وقدماه تدبان فى رشاقة غير متناسبة مع جسمه البدين، جوليانا ضحكت بجرأة فحدجها أبوها بنظرة معاتبة فغلقت ضحكتها بالترحيب بالعم بلزك فحاورهما فى هدوء ثم سحب الكراسى حول منضدة ودعاهم للجلوس، التصقت الفتاتان ببعضهما وانشغل ليمان مع بلزك فى حوار طويل.

- تخيلى يا منصور، العم بلزك أخو رينو زوج مادلين البخيلة.

- لكن العم بلزوق هذا كرمه طافح على كل جسمه.

- اسمه بلزك والبيت مقسوم بينه وبين أخيه العائش فى باريس وأبى اشترى المحل من رينو ودفع له ثمنه هناك.

- ويستلمه من بلزك هنا؟

- أكيد، إنه يعرض على أبى مشاركته فى المطعم لكن أبى يرفض.

- ما عنده حق، العم بلزك سيخلصه كل يوم من الأكل الزائد، بدل رميه فى...

ضحكت جوليانا لتعليق منصوره فالتفت إليهما بلزك وبادلها الابتسام، صقق بيديه وعاد إلى حوارها، أول الأمر ابتسمت منصوره من منظر أنف بلزك النافر، لحظت اهتزازات لغده النازل وبرغم البرودة فإنه من حين لآخر يمسح عرقه الناز من رأسه، دهشت من رفضه لتدخين الغليون الذى قدمه له ليمان، ما هي إلا دقائق وخرجت فتاة صغيرة فى العاشرة من عمرها وهاتفت بلزك فى سرعة ودخلت مرة أخرى، وقف الرجل وسار أمامهم إلى أن دخلوا البيت فشعرت منصوره بالدفء بعد إغلاق الباب، الصالة فسيحة ومنضدة الطعام عامرة بالسّمك المقلي والأرز فزغردت معدتها للطعام الشهي، فى المنتصف جلس بلزك وعلى الجانبين اتخذت جوليانا ومنصوره مكانهما أما ليمان فجلس فى المقابل، علا صوت بلزك بالمناداة:

- أركون، إيلاريا!

تارة أخرى أقبلت الفتاة بعينيها الزرقاوين اللتين تشبهان الخرز الملون وبين يديها طبقان من الأرز الغامق خلفها يخطو شاب ابتلعت منصوره ريقها لهيئته المختلفة عن أبيه فهو ممشوق القوام ووجهه يميل إلى اللون الأسمر، فيه الكثير من ملامح عمه رينو، جوار أبيه جلس أركون وفي الناحية الأخرى إيلاريا، ابتسم بلزك وهو يتحدث فقربت منصوره أذنها من جوليانا التي ترجمت:

- العم بلزك يقول: إن أمهما دوريا يونانية وماتت بعد ميلاد ابنته إيلاريا ويشغل كل وقته في العمل بمطاعم الفنادق لرعايتهما أما ابنه أركون فإنه يعمل في مركب لصيد أسماك البحر.

تأملت منصوره الصغيرة إيلاريا ولا تدري لِمَ أحببتها؛ فالفتاة كلؤلؤة بيضاء وأسنانها مصفوفة في رشاقة أما شعرها الأسود الفاحم فيضفي على بياض وجهها الرقيق جمالاً، خفق قلبها لأركون ولحظت من طرف خفي أنه يتفرّس في جوليانا التي مدت ملعقتها لتأكل، لا تدري سبباً لتمنيها أن ترتبط جوليانا بالفتى الوسيم وتعيش هنا بقية عمرها كصاحبة مطعم في مرسيليا، خجلت أن تمد يدها للسّمك الكبير ورائحته تعربد بأنفها فتشعل جذوات التهامه، رفع بلزك الحرج ووزع الأمشاط المقلية عليهم، انهمكوا في الطعام ومن حين لآخر يتبادل الرجلان الحديث إلى أن أنهى ليّمان أكله في سرعة فصحبه أركون إلى الحمام ليغسل يديه.

بعد انتهائهم ساعدت جوليانا ومنصورة الفتاة في لملمة بقية أشواك السمك وكسرات الخبز وفي حوض المطبخ قامتوا بغسيل الأطباق وأركون الواقف أمامهم يحادث جوليانا وهو مبتسم فردت عليه وخرج.

- يشكرنا ويقول أننا أصحاب بيت.

- يظهر أنه إنسان شهم وشكله حلو.

بعينها غمزت منصوره فأنهت جوليانا تنظيف الصحون وورصها في مكانها، خرجتا من المطبخ إلى الصالة وأحضرت إيلاريا صينية الشاي، تبادلوا أحاديث طويلة بين جذب ورد، من حين لآخر تتأمل منصوره البيت المنظم وأثاثه القليل ومنظره يريح العين، تأكدت أن الدور الأرضي كله مخصص لاستقبال الضيوف أما النوم ففي الدور العلوي، نهضت جوليانا نحو الباب الموارب ففتحته والشمس البازغة استقوت وأرسلت أشعتها لتنشر الدفء، خطت منصوره خلفها وسارتا صامتتين والبحر من بعيد تمتد مياهه الزرقاء إلى ما لا نهاية، دون أن تسأل عن الحوار أوضحت جوليانا:

- أبي وافق على مشاركته في المطعم لكن تجهيزه يحتاج إلى مال وعمل وعرض هو أن يشارك بالمال وابنه يتولى إحضار السمك.

- جميل يا جوليانا ولو اصطادك يكون فاز بأجمل سمكة.

في حدة التفتت جوليانا إلى منصوره ورأيها الجريء وبقبضتها ضربت كتفها وهزت رأسها وهي تقول في ارتياب:

- ربما يكون مرتبًا بأخرى و...

فوجئت الفتاتان بأركون يقبل نحوهما فتأملته منصوره مرة أخرى فشعره كشعر أخته والطاقيه على رأسه تزيده وسامة، يرتدي معطفًا بنيًا قصيرًا والسروال يبرز قوامه الممشوق، ألقى بكلماته واستدار مبتعدًا.

- يقول أن العم ليما يريدينا.

عادت جوليانا إلى الصالة فأشار إليها ليما أن تجلس هي ومنصوره، عرّف العجوز منصوره فهز بلزك رأسه مبتسمًا، دق قلبها لصدره العريض وأصابع يديه الغليظة لكن هيئته تبدو

عليها طيبة أهل السواحل وعدم حملهم لهم الحياة مهما واجهتهم المحن، التفت ليमान إليهما وحدثهما بالعربية:

- سأجهز المحل لكن يحتاج الأمر إلى عمل كثير ويجب أن أوازن بين إطعام العمال في المرسى ومباشرة تجهيز المطعم.

- لا تحمل همًا يا أبي، أخبرنا أنت بما تريد.

- وأنا وجوليانا ننفذه يا عم ليमान، نجارة المحل كلها أقوم بها إن شاء الله.

- أشكرك يا منصور، لكن...

- نعمل طوال النهار ونبنت مع العمال في المرسى وقسم الله لن يعترض.

استبشر ليमान خيرًا من حماسة الفتاتين فهز رأسه موافقًا ودخان غليونه يزفره في هدوء، نهض مقررًا العودة إلى الميناء لتجهيز الطعام للعمال وليعرض على قسم الله إبقاء منصوره معه لحين إفراغ السفينة من القمح وتدبر أمر رحيلهم.

لم تكن سفينة القمح الجزائري هي الأخيرة، فقد رست بواخر أخرى احتاجت إلى من يفرغها على وجه السرعة فلم يجد قسم الله بدءًا من الاتفاق مع القائد جوستاف على أجور العمال ولم يعترض القائد فوجدها فرصة عظيمة يضمن بها حمالين دائمين فمضت أيام أخرى والعمال والهجانة يشغلون أوقاتهم في إفراغ السفن وشحن مراكب صغيرة بمهمات أخرى وليمان يواصل تجهيز طعام العمال، عمل اثنان من البنائين في تشييد حوائط مطعم الأسماك أما منصور فقد وضعت كل مهارتها التي استقتها من أبيها في صناعة المناضد والكراسي واقترحت إقامة سور حول فناء المطعم فاستحسن ليमान وابن عمه بلزك رأيها، استمرّ أركون في صيد الأسماك وإطعام كل من يشارك في تجهيز مطعم أبيه وذات مرة اصطحب جوليانا معه في مركب الصيد فغابا إلى منتصف النهار وحين عادت اختلت بمنصورة:

- أركون ابن العم بلزك طلب أن يرتبط بي يا منصور.

- جميل يا جوليانا، فيه مثل عندنا يقول: يبقى زيتنا في دقيقتنا وأركون شاب وسيم وتسكنين هنا في مرسيليا الهادئة وعم ليमान يشرف على مطبخ المطعم وأنت معه.

- أنا معه حتى لو لم أتزوج أبدًا؛ أبي إنسان عظيم يا منصور وحمل في قلبه حزنه على موت أمي وأختي وهجرة ماجي إلى أمريكا.

- وشهامته ما لها وصف، ربنا يطيل عمره ويفرح بأولادك.

تحاضنت الفتاتان في ودٍ صافٍ فأقبل ليमान جواره بلزك وهما يبتسمان، دون أن يتكلما فهمت جوليانا أن موضوع خطبتها دخل حيز التنفيذ الأسري لكن بعد افتتاح المطعم وتجهيز الدور فوق العلوي لسكنهما.

ككل ليلة عادت منصوره وجوليانا مع ليمان إلى المرسي فجهز العشاء واستراح في غرفته بعد نهار كامل في وضع اللمسات الأخيرة للمطعم ثم عشاء العمال، طرق الباب ففتحه:

- قسم الله يريدك يا عم ليمان.

- حاضر.

سار ليمان وراء رحيم النوبي وعامر الإسناوي حتى الغرفة الخشبية في نهاية ثكنات العمال والحمالين بالميناء، ألقى على القاعدين تحية المساء وانتظر أن يفصح قسم الله عما استدعاه فلم يضيّع الوقت فدارت عيناه في وجوه عامر وسابق البولاقي ومصطفى الجزار.

- اجلس يا عم ليمان، أنت أكبرنا سنًا ورافقت عم غلاب وكل رفاقه من أول يوم هنا في مرسيليا.

- وأتمنى أن ترجعوا لبلادكم سالمين يا قسم الله، خيرًا يا ولدي؟

- خيرًا إن شاء الله، الموضوع وما فيه أن منصوره بقيت وحيدة لا أب ولا أخ وما لها عم أو خال ولما نرجع مصر تكون مقطوعة من شجرة على رأي المثل؛ فغرضي أتقدم لمنصورة، أنت بمثابة عم غلاب وأقدر على أن تفتحتها.

- يقولونها عندكم: زين ما اخترت.

- غير أنها بنت، حرمة ولا يصح سفرها بغير إنسان يحميها.

- عندك حق يا ولدي، صدقني يا قسم الله، منصوره أحببتها كبنتي جوليانا وأتمنى أن تبقى هنا في مرسيليا.

- أكرمك الله يا عم ليمان، مهمتك تسألها.

- حاضر، ومهرها أدفعه أنا.

ضحك الحاضرون لعبارة العجوز التي أنهى بها الجلسة ونهض متثاقلاً، عاد إلى غرفته فوجد جوليانا تمشط شعرها ومنصورة تعيد ترتيب مخلاتها.

- منصوره يا ابنتي، غرضي أستشيرك في مسألة.

- أمرك يا عم ليमान.

- قسم الله كلمني في...

لم يكمل ليमान عبارته فصاحت جوليانا وهي تحضن منصوره التي أطرقت وجهها وران عليها الصمت، رفعت جوليانا رأسها فرأت التماع الدموع في عيني أليفتها، ربت ليमान على كتفها وهو يقول بصوت يفيض حناناً:

- أعرف يا منصوره أني غير ممكن أحل محل الحاج غلاب لكن قسم الله كلمني وأنتِ حرة في قرارك.

- والله يا عم ليमान أعتبرك كأبي لكن صعب عليّ ألا يسعد أبي بارتباطي.

- اجعليه يفرح بزواجك ويستريح في تربته.

- أمرك يا عم ليमान.

- فيه خبر جميل، سمعت من أحد الجنود أن سفينة إنجليزية متجهة إلى مصر تمر على مرسيليا في نهاية الأسبوع، اليوم الأحد وانتهى يعني يمكن ركوبها بعد يومين أو...

- الله عليك يا عم ليमान وعلى أخبارك، خبر السفينة أحلى من خبر قسم الله.

ما كادت تنهي جملتها الصاخبة حتى طُرق الباب ففتحته جوليانا، قسم الله يقف في ارتباك فدعاه ليমান إلى الدخول، اتسعت ابتسامته وهو يدير نظراته بينهما:

- ألف مبروك لك ولها يا قسم الله.

كعذراء خُدش حياؤها غض قسم الله طرفه ثم رفع وجهه إلى منصوره التي دق قلبها وتلبّسها خجلٌ عارم غريب على نفسها التي اعتادت الخشونة منذ مغادرتها بورسعيد، توقف تفكيرها برهة ثم عاد عقلها لرشده فدعت قسم الله للجلوس وتناثر سؤالها بين شفيتها المرتعشتين:

- نعلن بين العمال خطوبة؟

- لا، نكتب كتابنا والشيخ عبدالمعين الأزهري عرض أنه يقوم بالمهمة.

- الأزهري! شيخ يعمل بينكم؟!

- درس في الأزهر ولما أبوه مات وكان حدادًا، ترك الدراسة وعمل في محل أبيه وأطلق عليه أهل الحي لقب أزهري.

انبسط ليमान من ترتيب القدر لارتباط ابنته جوليانا بقريبه ابن بلزك وكذلك منصوره بالشاب النبيل قسم الله، بحث في بقجته عن شيء ثم أخرج كيسًا صغيرًا فتحه وعبثت أصابعه بما فيه، سحب أسورتين فضيتين رفع إحداهما أمام منصوره فاثالت دموعها على خدها ومالت على يد ليमान تقبلها فسحب العجوز ذراعه وهو يربت على كتفها، أعطى الأخرى لجوليانا فقبلت رأس أبيها الحنون واتفقوا أن يكون عقد القران في الغد بعد انتهاء العمال من إفراغ إحدى السفن التي رست لتوها في الميناء.

- توجد مشكلة يا جماعة.

قالها سابق البولاقي أمام المجتمعين حول قسم الله؛ ليهنئوه على خطبة منصوره، دون أن يستفسر منه أحدهم انتظروا أن يفصح سابق، ففرد سبابته وهو يوضح:

- منصوره لا ولي لها فمن سيزوجها؟

ران السكوت على الحاضرين وترحموا على أبيها وانتظر كل منهم أن يقدم أحدهم حالاً لهذه المعضلة التي عرضها سابق، بجرأة تكلم مصطفى الجزار:

- نستشير الشيخ عبدالمعين الأزهري ما دام هو من سيعقد، أكيد له رأي.

- صح يا مصطفى، الشيخ عبده قادم.

انتظر العمال حتى ألقى عليهم عبدالمعين التحية وجلس وسطهم وهم يستدقون بجمار النار الهادئة.

- مبارك عليك يا قسم الله، زين ما اخترت وما دام كلنا على سفر فالأفضل أن يكون لمنصورة مرافق.

- جئتنا يا عبدالمعين لتعين، تعرف يا شيخ أن منصوره ما لها ولي يزوجها، أكيد يوجد عندك حل.

صمت الأزهري وأراح رأسه إلى الوراء وكأنه يحاول أن يسترجع معلوماته القديمة قبل انهماكه في العمل بمحل أبيه، هز رأسه وهو يقول:

- تعرفون أني هجرت حلقات العلم بالأزهر، لكن ما تركت القراءة في كتب الفقه وقت الفراغ.

- ربنا يزيدك يا شيخ.

- محلولة إن شاء الله، يقول القرطبي في المرأة التي لا ولي لها "وإذا كانت المرأة بموضع لا سلطان فيه ولا ولي لها، فإنها تصير أمرها من يوثق به من جيرانها فيزوجها ويكون هو وليها في هذه الحال".

- لكن يا شيخنا لا جيران للبنت لها هنا في مرسيليا.

- صبرك بالله يا سابق يا بولاقى، قال الإمام الشافعي "إذا كان في الرفقة امرأة لا ولي لها، فولت أمرها رجلاً حتى زوجها جاز".

- الله يفتح عليك يا شيخ معين، وليها هو الصعيدي عامر الإسناوي.

- وأنا أتشرف يا عم سابق.

- تمام، يبقى المشكلة انتهت والحمد لله.

- هز جيبك يا قسم الله وإلا ما أوافق على زواجك من منصوره.

بتلقائية انفجر العمال مقهقهين لهزار عامر، لأول مرة يذوقون الضحك من أعماق قلوبهم وتفيض صدورهم بسعادة لا حدود لها، نهض الجزار مصطفى تبعه عامر الإسناوي إلى المطبخ، غابوا قليلاً وعادوا والبسمة تعلو وجهيهما، على منضدة قصيرة فرد ليمان ورقة ومحبرة وريشة فباشر عبدالمعين الأزهري تحرير العقد حتى إذا ما أنهاه وقّع الشاهدان سابق البولاقى ومصطفى الجزار، أغمض عبدالمعين عينيه وتمتم في خفوت، علا صوته بالتاريخ الذي حسبه في سرّه ثم دونه أسفل الصفحة: الإثنين 20 من جمادى الأولى 1336 من الهجرة يوافق 4 من مارس 1918 من الميلاد، أطلقت جوليانا زغرودة دكت ذاكرة العمال والهجانة بمطارق فرحة قديمة فاستلح أحدهم صفيحة وثبتها على وركه متخذاً

منها طبله، نفخ في كفيه وطفق يدق عليها والمتحلقون حوله يصفقون بأيديهم فوقف
عامر الإسناوي يغني:

يا طالعين الجبل (13)

يا راكبين الخيل

مر عليكم جدع

أسمر كحيل العين

كحيل العين كحيل العين

يا طالعين الجبل

يا راكبين جمال

مر عليكم جدع

أسمر كعود الزان

كعود الزان كعود الزان

تارة أخرى انتابت العمال موجة من الضحك للأغنية القديمة التي استقاها عامر من بئر
ذاكرته وهو يشير

*من أغاني الأفراح المنتشرة في صعيد مصر.

لقسم الله المبتسم لهم بملء فمه ومن حين لآخر يبص على منصوره الواقفة من بعيد بين ليمان وجوليانا، لفت صخبهم الجنود الفرنسيين فقدم بعضهم نحو اللمة وجوستاف يترجم لعساكره الحدث الهام الذي يعيشه العمال، صفقوا لمصطفى الجزار وهو يرفع عصا من الخيزران، يلفها وهو يرقص على أنغام دق الصفيحة فشاركهم الفرنسيون التصفيق والصيحات حتى إذا ما خطا أحد الجنود توقف مصطفى عن الرقص وخفض عصاه، انتظروا جميعاً ما يفعل الجندي الذي دار بعينيه في وجوه العمال، رفع خوذته الحديد عن رأسه ووجهه ينضح بما يريد، رسم بقامته انحناءة رقيقة أمام قسم الله، حادثهم في عبارات منفصلة فترجمت جوليانا لمنصورة ما يقوله الجندي:

- باسمي أنا المجند رينيه في الفرقة الأولى من المشاة وباسم كل جندي في فرنسا شارك في المعارك السابقة وسيقاسي ويقاتل المعارك القادمة أقدم لكم التحية، فربما أكون أنا الوحيد الذي استقبل حضوركم هنا في مرسيليا منذ ثلاثة أعوام أو تزيد، ورافقتكم إلى جرونوبل وفوارون ثم شامبيري وليون ومنها إلى باريس وخاض معكم معارك أراس وانتقل معكم إلى باشنديل في بلجيكا وعاد مع بقيتكم إلى هنا، ربما لا يتذكرني أحدكم فقد كنت أعمل في الاتصالات بعيداً عنكم، ربما لا تتقابل وجوهنا مرة ثانية لكني أحترمكم؛ فإنكم تركتم بلادكم وخدمتم هنا في بلاد غريبة وبأيديكم دفنتم زملاءكم جوار كل من قتل من جنود فرنسيين وإنجليز وغيرهم.

صمت الجندي رينيه ودارت عيناه في وجوه العمال المستغربين موقفه، قبل أن يكمل ترجم القائد جوستاف ما قاله في اختصار وسرعة فاستأنف رينيه حديثه ومنصورة تصغي لكل كلمة تنقلها جوليانا.

- أنتم أيها الشرقيون جديرون بالاحترام فإنكم تعرفون كيف تكون المحافظة على الحياة، في وسط نيران الأزمات تصبرون وتخترعون الفرح والسعادة، ربما تسمعون بعد عودتكم إلى بلادكم أن الحرب مستمرة أو أنها انتهت في يوم من الأيام وهذا ما ننتظره جميعاً ولكني أقول بكل تأكيد أن الملايين هنا أو في أماكن عديدة في العالم ضحوا بحياتهم

الهادئة وفقدوا أرواحهم تنفيذًا لأوامر القادة الحمقاء التي لا تعرف غير توجيه البسطاء من الجنود نحو الموت.

بمجرد أن فاه بكلمته الأخيرة لم يتمالك الجندي رينيه نفسه فانكسرت تقاسيم وجهه وتقارب حاجباه وسالت دموعه، تراجع خطوتين ثم جرى مبتعدًا عن حلقة العمال فانصرف القائد جوستاف وسط جنوده وأمر قسم الله العمال بالعودة لمخادعهم ورجعت منصوراً مع جوليانا إلى المطبخ منتظرين انقضاء الليل.

كعروس أهدتها السماء رست السفينة الكبيرة فرفرقت نفوس العمال المشتاقين إلى بلادهم، نَظَّمهم قسم الله في صفين أما الهجانة فوقفوا جوار ما تبقى من الجمال البالغ عددهم أربعين جملاً، تهيأت أرواحهم لمغادرة كل ذكرى لهم في تلك البلاد الباردة، اكتوت قلوبهم المنكوية بنيران الغربة التي استطالت وظنوها لا تنتهي، أمام الجسر الخشبي الممتد من المرسى إلى باب كبير في بطن السفينة اصطفوا منتظرين أمر الصعود، أطلت قائدة القائد جوستاف من أعلى السفينة فأشار إلى تقدم الحيوانات أولاً فسحب قسم الله خطم أول الجمال نحو الجسر، جفل الفحل لاهتزاز الألواح الخشبية لكن عصا قسم الله حثته على أن يدب في حذر وتتبعه أخفاف أقرانه في بطاء حتى دلف الباب الكبير إلى بطن السفينة الشبيه بحظيرة هُيئت لمكوئهم أياماً، الدقائق تمر والجمال يبتلعهم الخُن الكبير حتى إذا ما دخل آخرهم بدأ العمال في السير نحو الباب الآخر وهو الأصغر المؤدي إلى أعلى ومنه سيوزعون لمهاجعهم..

تشابكت أصابع منصوره وجوليانا وكأن الفتاتين لا تريدان الافتراق، جوارهما يقف ليमान ومعه ابن عمه بلزك وأركون يمسك بيد الصغيرة إيلاريا، تارة أخرى ظهر قسم الله ليباشر بنفسه صعود العمال وقد هرول بعضهم وهو غير مصدق نفسه أنه بعد أيام قليلة سيعود إلى بلده غانماً حياته وبعض العملات التي لا تساوي لحظة واحدة من جزع الحرب التي خاضها، مالت منصوره نحو إيلاريا فقبلت خدها الغض، مدت يدها فسلمت على بلزك وأركون وبسبابتها أشارت له بأن يحفظ جوليانا، اتسعت ابتسامتها حين قبضت على أصابع ليमान واغرورقت عيناها بالدموع، بين عينيها طبع العجوز قبلة أودع فيها كل معاني الحب لابنته الثانية، افترت شفثاه عن ابتسامه وهو يقول لها:

- ربما يمتد بي العمر فأزور الإسكندرية أو بورسعيد وهناك أقابلك يا منصوره ويكون معك أولادك.

- أكيد يا عم ليما ن ولن أنساكم طوال عمري.

انتظرت جوليانا حتى تفرغ منصوره من السلام على أبيها فيكون لها النصيب الأكبر من وداعها، دموع غزيرة سالت على خديها وهي تفرد ذراعيها لمنصورة التي اعتصرت بساعديها القويين صديقتها وانتحبت الفتاتان وهما متحاضنتان وكان روحًا واحدة شملتهما في جسدين ملتصقين، لم تترك منصوره عقلة إصبع في وجه جوليانا إلا قبلته في حرارة وكان كلاً منهما تستقي من الأخرى زادًا لوداع لا لقاء بعده، أطلقت السفينة صافرتها الزاعقة فافترقتا في رفق، دق أحد البغليين حافره على الأرض وكأنه ينبه لوجوده فالتفتت منصوره إليهما، مالت نحو أولهما وقبلت جبينه وحضنت الآخر ذا الغرة البيضاء الذي كانت دائمًا تمتطيه، اصطحبتها جوليانا حتى أول الجسر الخشبي وأمامه أعادتا الكرة فتلاقي جسدهما ومنصورة تهز رأسها وتتمنى لو تسافر صاحبتهما معها والأخيرة تشتاق لأن تبقى منصوره برفقتها طوال العمر.

- لو رزقت بنت سأسميها منصوره.

- أصيلة يا جوليانا أما أنا لو رزقت بنت فسأسميها أميمة.

نداء قسم الله قطع دقائق الوداع المؤلمة فافترقت منصوره عن رفيقتها وما زالت عيناها تسحان الدموع، قبضت أصابع قسم الله على يدها والجسر الخشبي يتأرجح بفعل الهواء الشديد، كانت الأخيرة التي دخلت فأغلق باب السفينة، ركنت مخلاتها وصعدت إلى السطح، لا تزال عائلة ليما ن بأكملها باقية بالمرسى فأشارت لهم بيدها فظلت جوليانا تبادلها الإشارات حتى أطلقت السفينة صافرة المغادرة فانفصلت عن الجسر الخشبي ولطمت المياه جوانبها وهي تفارق مرسيليا.

الشاطئ يبتعد ومعه تستودع أحداث سنوات قضتها في تلك البلاد القاسية بصيفها وشتائها، تركت أباه ورفاقه تقاسي قبورهم وحشة الغربية، ظلت تنتحب وتتوالى شهقاتها، ودّت لو يُتاح لها الوقت والفرصة فتتنشل أباه وكل من تعرفهم وتعود بهم، تركها قسم الله

لتسكب أحزانها حتى هدأت قليلاً، الهواء البارد يصفع وجهها، حمل مخالاتها الكبيرة ورافقها إلى إحدى قمرات السفينة، أغلق خلفه الباب، بهدوء ركن حملة الثقيل وجلس قبالتها على السرير الخشبي الآخر، مرت دقائق وهما صامتان يتبادلان نظرات خجلى لاختلائهما ببعضهما، ابتلعت ريقها ومسحت شعر رأسها القصير، انتبهت لرائحتها التي لم تستحبها فهز قسم الله رأسه وفهم رغبة عروسه في تهيئة نفسها، قرر أن يغادر القمرة ليتمم على أماكن العمال والهجانة، قبل مغادرته فك رباط صرة كبيرة وسحبت أصابعه كيساً جليداً اتسعت عينا منصوره لرؤية محفظة أبيها، تناولتها في لهفة، جلدها المنتفخ يشي أنها تحوي شيئاً، استدار قسم الله خارجاً من القمرة وعند الباب:

- في الليلة المشنومة، قبل رحيله أعطاها المرحوم غلاب لكامل وبدوره سلمها لي قبل موته.

- لكنك لم...

- أعرف، خباتها عنك؛ كي لا أزيد حزنك، والحين وفي عودتنا، أمانة عم غلاب رجعت لك.

أغلق خلفه الباب، بأصابع مرتعشة قرّبت منصوره الجوزلان من فمها فتنشقت رائحة أبيها، سألت دموعها وزاد إعجابها بقسم الله، انفلتت المحفظة من بين أصابعها فتناهى لأذنيها صوت اصطكاك خافت، فكّت الخيط الملفوف حولها وما إن فتحت مشفريها الغامقين حتى سقط الكردان الذهبي فشهقت منصوره لرؤية ما تبقى من حُلي أمها، استحلبت ريقها، دارت بعينها فرأت زجاجة مملوءة بالماء، الجرعات روت حلقها الناشف، تارة أخرى تحسّست الكردان وهي لا تصدّق أن أباهما احتفظ به في محفظته الخاصة ولولا أنفاسه الأخيرة التي أوصى فيها لكامل وسلمه المحفظة لضاعت في أحوال حفر وخنادق باشنديل، لفت السلسلة حول رقبتها ونهضت نحو شرخة مرآة مثبتة على جدار الغرفة الخشبي، تأملت جيدها وزكمت أنفها رائحتها التي عجزت عن وصفها، باب صغير دفعته فطالعتها فتحة الحمام وماعون به القليل من الماء، أراحت نفسها وخرجت، برفق خلعت سلسلة الكردان وقبلته في شوق، تحسّست جيب المحفظة الداخلي فنفرت عدة فرنكات

على الفراش، لم تبال بها ودست أصابعها فسحبت صورًا، ارتفع حاجباها وحملت،
ترجرت في ذاكرتها بقايا سُخرة لا تريد أن تتذكرها، تأملت أشباح الشخوص التي بالصور،
ها هو أبوها يقف في المنتصف حوله العمال، ابتسمت لوجه عوض المنفلوطي وهو يرفع
المجرفة لأعلى نحو رأس الفرشوطي عبدالصمد، الدموع تبلل رموشها فأبعدت الصور
خشية أن تسيل دموعها عليها فتفسد الأوراق القصيرة، صورة أخرى وهم أمام أول عمود
للتلغراف تم نصبه على جانب الطريق، لعنت الكتلة الخشبية التي فتكت ببسمة عوض فلو
أنه نجا وامتدَّ به العمر لكان فاكهة ليلة عرسها في ميناء مرسيلىا ولأوجع بطونهم من
هزاره وسخريته من كل شيء.

غاضت ابتسامتها وتقارب حاجباها في تقطيب لصورة أبيها وسط لفيف العمال بعد أن
أتموا سكة حديد شامبيري وخلفهم على أرض عالية يبرز سميث وويليام وموريس
وغيرهم من قواد فيلق العمال والهجانة.

التفت لمخالاتها ففتحتها وعبثت أصابعها حتى أخرجت كيسًا سحبت منه صورها مع
جوليانا خلفهما برج باريس الحديدي العالي، أغمضت عينيها وفتحتها لتطالعها الصورة
الأخيرة التي التقطها لهم البدين بلزاك بعد أن أنهوا تجهيز مطعمه هو وليمان في مرسيلىا
وضحكوا جميعًا حين حاول بلزاك إقحام رأسه الوارم داخل القماش الأسود للكاميرا فلم
يستطع، ها هي جوليانا يلتصق كتفها بكتف خطيبها أركون والصغيرة إيلاريا تقف على
واحد من الكراسي الخشبية التي صنعتها لمطعم أسماك بلزاك وليمان، ليمان العجوز في
الخلف بين قسم الله ورحيم وعامر وسابق البولاقى وعبدالمعين الأزهرى ومصطفى الجزار
وكل من شاركوا في تجهيز المطعم، دمة حارة انحدرت على خدها فشعرت شفتها
بملوحتها، ضمت الصور مع بعضها داخل محفظة أبيها وأعادتها إلى مخلاتها.

تارة أخرى سحبت صرة صغيرة وفكت رباطها، فردت جلبابًا قماشياً خفيفًا بألوانه الزاهية
فاتسعت ابتسامتها لهدية صوفيا، فردته على السرير وهمّت أن ترتديه لكن رائحتها الفائحة
دفعها لأن تتمنى أن تستحم أولاً، دق خفيف فانتصبت واقفة وهي تستعلم عن الطارق.

- قسم الله يا منصور.

فتحت الباب وإذا به يدلف في سرعة وبين يديه ماعون كبير به ماء ساخن، يخطو نحو الحمام ويركنه بداخله ويقف قبالتها:

- سخنت لك الماء.

دون أن ينطق تركها مغلقًا الباب بإحكام، في سرعة خلعت جلباب الرجال برائحته الزهمة، حرّرت نهديهما من النطاق القماشي الملفوف حولها فنفرا فرحين باستعادة حرّيتهما المكبوتة طوال سنين، المياه فاترة فاستحمت على مهل، الماء الآسن يسيل نحو فتحة الصرف الجانبية ومعه تخلصت من أدران ما مرت به طوال سنواتها المنقضية، نشفت جسمها وارتدت جلباب صوفيا النظيف، مشطت شعرها فشعرت أنه طال ففرقتة في المنتصف، أخرجت كيسًا أهدته لها جوليانا ليلة رحيلهم، رائحة زجاجة العطر الفرنسية زكمت أنفها وأدارت رأسها وهي تسكب القليل بين كفيها وتمسح وجهها وأسفل إبطيها وتمر بهما على جنبها، أعادت ترتيب بعض الأشياء في القمرة الضيقة، على منضدة مجاورة للباب وضعت مصحف صالح واتسعت ابتسامتها لوجه جوليانا التي تناولت منها كتاب الأجيبة وقبلته قبل أن تركنه أسفل أيقونة صغيرة تصطحبها دائمًا في المطبخ، تمتمت بكلمات الترحم على روح صالح وميخائيل.

مالت السفينة بشدة فتحرك أحد السريرين، اتسعت ابتسامتها فدفعت السرير ليلتصق بالآخر، فرشت عليهما ملاءة واحدة كبيرة، تمددت على ظهرها وأغمضت عينيها، وجه قسم الله لا يفارقها وها هي تستعصم بنصيبها الذي قسمه الله لها، رعشة تنتابها وهي تنتظره، التفتت فطالعتها نافذة مستديرة مغلقة، نهضت ووقفت قبالتها، من خلف الزجاج تأملت زرقة المياه الرائقة، لم تشعر بدخول قسم الله ووقوفه جوارها، التفتت لذراعه المقوسة حول كتفيها ورائحة حمومه تطوف بأنفها، تلاقت خيوط ابتسامتهما فنسجا معًا روح الطمأنينة وهما يتأملان نوارس البحر ترفرف في عين الشمس وترافقهما رحلة العودة.

1. الغلاف
2. إلهجانة
3. رجب طاهر، أيمن، الهجانة: رواية / أيمن رس
4. إهداء
5. ***
6. -1-
7. ***
8. -2-
9. البيدين، بالحيال الغليظة، وكل ما عرفوه أنه...
10. ***
11. -3-
12. ***
13. -4-
14. ***
15. -5-
16. -6-
17. -7-
18. الشريط حول موطن الإصابة، انتظر صالح أن ت...
19. -8-
20. -9-
21. -10-
22. ***
23. - ربنا يجازيك بالخير يا رحيم، تعال معي...
24. ***

[-11-](#) .25

[***](#) .26

[-12-](#) .27

[-13-](#) .28

[-14-](#) .29

[***](#) .30

[-15-](#) .31

[-17-](#) .32

[***](#) .33

[-18-](#) .34

[***](#) .35

[-19-](#) .36

[-20-](#) .37

[-21-](#) .38

[-22-](#) .39

[***](#) .40

[-23-](#) .41

[***](#) .42

[-24-](#) .43

[***](#) .44

[-25-](#) .45

[-26-](#) .46

[-27-](#) .47

[***](#) .48

[-28-](#) .49

[-29-](#) .50
[-30-](#) .51
[***](#) .52
[-31-](#) .53
[-32-](#) .54
[***](#) .55
[-33-](#) .56
[-34-](#) .57
[-35-](#) .58
[***](#) .59
[-36-](#) .60
[-37-](#) .61
[***](#) .62
[-38-](#) .63
[-39-](#) .64
[-40-](#) .65
[***](#) .66
[-41-](#) .67
[-42-](#) .68
[-43-](#) .69
[***](#) .70
[-44-](#) .71
[***](#) .72
[-45-](#) .73